د. عبد المجيد الحر

ابو فراس الحمداني

شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية

أعلام الفكر العربي

دار الفكر العربي
بيروت

ابو فراس الحمداني

شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية

لسان العرب

ابو فراس الحمداني

شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية

د. عبد المجيد الحر

دار الفكر العربي
بيروت

دار الفكر العربي
للطباعة والنشر
كورنيش سليم سلام - مقابل مخفر المصيطبة
بناية الشروق - الطابق الأول
ص.ب. ٥٠٧٠ / ١٤ - بيروت لبنان

الطبعة الاولى ١٩٩٦

المقدمة

أراني أمام شخصيةٍ عبّاسية، فذّة المسلك، كريمة المحتد، تتطلع إلى حياةٍ ترقى بقيمها، وتتعالى بأنفتها؛ وتشمخ لا كبرياءً وصلفاً؛ بل اعتزازاً بمنبتها، وتفاخراً بآصالتها، وعناداً على واقع يرفض أن يكون متردياً، فتشدّه بعزمها الإنساني، إلى الفضيلة؛ كما تشهد شمائل الدنيا الفوّاحة، عمّا اختزنته من عقيدةٍ ثابتةٍ في أصغري المرءِ، قلبه ولسانه.

وتعريف هذه الشخصية هو: أبو فراس الحمداني من حيث الكنية؛ أمّا الاسم المجرّد فهو: الحارث بن سعيد، ابن عمّ سيف الدولة الحمداني. ورغم أن هذا الأخير كان رأس الدولة الحمدانية، وعلمها الخانق شهرةً وعلواً ومجداً؛ فقد تفوّق عليه أبو فراس بلقبٍ لم يستطع أن يناله، وهو لقب أمارة الشعر. فكان لمن نترجم له ثلاثة ألقاب لتسميةٍ لم ينلها غيره وهي: أمارة في الأصل، وأمارةٌ في الفروسية، وأمارةٌ في الشعر، اختصرت بعنوان: مثلّث الأمارات. وهذا ما كان يغيظ الشاعر الكبير «المتنبي» الذي أراد أن يفوز على أبي فراس في حضرة سيف الدولة، ويعلو مقامه عليه عند صاحب حلب، فخاف، وهرب إلى مصر، تلحقه لعنة الحارث بن سعيد، المفاخر على كل من حوله، عدا ابن عمه ـ أمير الحكم والسلطة ـ والمعتز بمثلث أماراته. وبعد كل ما قدّمنا، نعجب وتأخذنا الدهشة، حين نجد الدارسين، لم يتناولوا شاعرنا أبا فراس بالدراسة القائمة على الإحاطة بمختلف حياته، وما امتاز به عن سواه. بل العكس هو الذي أدهشنا، حين فاجأتنا دراسة قليلة مبتورة، تناولها البعض، وأغفل كثيرها البعض الآخر؛ فجاء الشاعر على ألسن الباحثين، بعيداً كل البعد، عن حقيقة ما كان عليه، وما يُعرف به في عصره. ولعلّ هذا يعود إلى شهرة المتنبي التي طغت على كل ما عداها، فاهتم الناس بها، وأهملوا سواها، ومنهم الشاعر الحمداني. ولذا نجد أنّ ما كتب عن أبي فراس، يساوي الجزء الضئيل الذي تناول حياة المتنبي وشاعريته؛ أو ذاك

التحبير الذي سفح حول المثلث الأموي، وبعض شعراء العصر الجاهلي، وقد وجدنا أن مَنْ ترجم لأبي فراس، أقصر ترجمته على بعض الجوانب، وأهمل الأخرى، فأساء من حيث أراد الرفعة والإعلاء. ويسبب ذلك، لم تكن أيّة دراسة ـ تناولت الشاعر ـ شاملة، ملمّة بأغراض الشاعر وخصائصه، وميزات شهرته.
ولذا فقد وفقنا الله، وفتح علينا أبواب زوايا أُهملت، فأمدتنا بقبسٍ من رؤى، ساعدتنا على إيصال ما أُغفل، إلى القاريء العزيز، كما يتعرّف على ما لم يسبق الوصول إليه، من فضلٍ وعلوٍّ وشاعرية. وكم كنت أود، لو أتيح لي، تضمين دراستي هذه، كلَّ القيم والشمائل والأبعاد الأدبية والفكرية، التي حوتها قصائده؛ إلى جانب المواقف البطولية، التي لونت شخصيته بظلال عصره المتألّق. ولكن هذه الدار الزاهرة، التي عنيت بنشر نتاج أعلام الأدب والفكر والشعر، اعتمدت نظام التقيّد بحجم معيّن، تخرج به الكتب، ويتقيّد الدارس به، ولا يخرج عن الإجراء المتبّع بمضمونه.

ومما تقدّم، اضطررنا إلى اختصار الدراسة وإيجازها، دون أن نهملٍ جانباً، أو نغفل غرضاً؛ اللهم ذاك الذي يتطلّب دراسةً مخصّصةً موسّعة، حيث أُجّل إلى متّسع من الآتي، لعلّنا نصل به إلى الغاية المرجوّة، بفضل الله ومنّه، فهو وليّ إنجادنا وإسعادنا ببلوغ المراد، وهو وليّ التوفيق.

بيروت في ٢٥ حزيران ١٩٩٥

عبد المجيد الحرّ

الفصل الأوّل

- الحياة السياسية
- الحياة الاقتصادية
- الحياة الاجتماعية
- الحياة الأدبية

الحياة السياسية

الحياة السياسية التي نحن بصددها، تكونت معطياتها من وقوع ما زخر به العصر العباسي، من تفاعلات التأثر والتأثير بالأعاجم، الساعين حثيثاً للرجوع بسلطتهم وسلطانهم إلى بلاد العرب. ولذا فقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس خاصةً والشعوبية عامةً، والعرب المناهضين للدولة الأموية، ممن يناصرون الهاشميين (علويين وعباسيين). وعلى أثر ذلك مالت كفّة العرب والعروبة، ورجحت كفة الأعاجم، وأصبح العرب عنصراً من العناصر الكثيرة التي احتوتها دولة بني العبّاس[1].

وكان الأثر الفعّال في انتشار العجمية داخل تلك الامبراطورية، تغلغل الفرس في صلب الدولة، حيث برز منهم في واجهة الحكم المساعد للخليفة، القوّاد والوزراء، والحجاب والولاة والكتاب. وما ذلك، إلاّ لأن قاعدة الدولة، نُقلت من دمشق العربية، إلى بغداد، على حدود فارس، وبجوار مدائن كسرى. وعلى الأثر، تحوّل وجه الدولة عن البحر المتوسط، وتوجّه شطر فارس؛ وساعد هذا في تمكين الفرس، على إدخال سياسة الحكم المطلق، التي جعلت قصور الخلفاء في بغداد، أشبه بقصور الأكاسرة في المدائن[2].

وأما الأثر الفعّال المباشر لبسط سلطة الخليفة العبّاسي، فيتمثّل بمساعدة الفرس الذين تمكنوا من إخماد الثورات المناهضة بقيام دولة بني العبّاس، وعلى رأسهم الموالي، الذين انضموا إلى أبي مسلم الخرساني سنة (١٢٩هـ/ ٧٤٦م)

---

(١) C. Brockelman: Histoire des peuples et des états islamiques. Tradution de Mtazeron. Paris (1949) p: 98.

(٢) J. Pirenne: Les grands courants de l'histoire universelle. II. Paris (1947) p: 11 - 14.

في ثورته لهدم أُسس الدولة الأموية، وإرساء دعائم الدولة العباسية، التي تسنّى لها بسط سيطرتها، وإرساء سلطاتها سنة (١٣٢هـ/ ٧٤٩م) وقد تسنّى لهذا السلطان أن يمتد ما يقارب الثمانية قرون. واشتهر العصر العباسي بخلط السياسة بالدين، على ادّعاء إحياء السنّة بالدين، وإقامة العدل، وإرجاع الخلافة الحقّة، بدلاً من الملك الذي أقامه الأمويون. وفي هذا السبيل، نشأ صراع طويل، بين الخلفاء العباسيين، وبين العرب والفرس. وقد سجل التاريخ لأبي جعفر المنصور (١٥٩هـ/ ٧٧٠٥م) جرأته في القضاء على النفوذ الفارسي. وتتبع هذه الجرأة بخطىً ثابتة، الهادي (١٦٩هـ ٧٨٥م) والمهدي (٧٠هـ/ ٧٨٦م) ثم هارون الرشيد (١٩٤هـ/ ٨٠٩م) الذي تمكن من القضاء على البرامكة. وحين تربع الأمين (١٩٨هـ/ ٨١٣م) سلطان الخلافة، شعر الفرس بمناوءته لهم، فلم يناموا على ضيم. وسرعان ما تخلصوا منه وأقاموا المأمون (٢١٨هـ/ ٨٣٣م) واجهةً لسيطرتهم، ولو إلى حين انتفاضه عليهم، وقضائه على وزيره، ثم كاتبه الفارسيين[١].

ولو رجعنا إلى تلك الحقبة ـ التي نحن بصددها ـ لرأيناها مليئةً بالصراع الدائم، بين العباسيين أنفسهم، وبين العباسيين والفرس، وبين الفرس والعرب، وبين العرب أنفسهم. وليس أدل على ذلك، من الاغتيالات الكثيرة، التي تناولت قسطاً وافراً من الخلفاء البارزين، أمثال أبي جعفر المنصور الذي حاولوا اغتياله؛ وأمثال الهادي والمهدي والأمين، الذين اغتالوهم الواحد إثر الآخر، إلى جانب قادة الحركة العلوية.

وإذا كان العصر العباسي، قد عجّ بالحركات الدينية، فإن خلفاء هذا العصر، استفادوا من الدين، لتثبيت مركزهم السياسي؛ حتى أمسى الناس يطيعونهم إمّا تديناً، وإمّا لرهبة أو رغبة[٢]. وكانوا حريصين على الزيادة من الاستفادة، فعمدوا إلى فكرة المهدي المنتظر، أمل الغد عند الجماهير المتبعة، التي تنتظر من يخلصها، من شقاء السياسة التي تسومهم أنواع العذاب. وسرعان ما التهب العصر، بتلك البارقة النيّرة، وسطعت عقيدتها بوهج صارخ بين عامّة الناس؛ وصارت بمثابة الشعار الديني الممزوج، بحدّة السياسة، الذي يرفعه كل

(١) العبادي: أحمد مختار ـ في التاريخ العباسي ـ دار النهضة العربية ـ بيروت سنة (١٩٧٢) ـ ص: ٣٢.

(٢) العلي: صالح أحمد ـ العراق في التاريخ ـ بغداد (١٩٨٣) ص: ٣٢.

ناقم أو ساخطٍ للإسراع بالثورة ضد أعدائه، والمخططين للقضاء عليه[1]. واصّطنع قادة الحكم وخلفاؤهم، الأحاديث النبوية الموضوعة، لتثبيت دعواهم بأن المهدي منهم[2].

وزيادةً في تثبيت سطوتهم، جعلوا ينكلون بمن جافاهم، واصطنعوا ضدهم المكائد والمصائد. فكان من يفلت من مواجهتهم، يقع في حبائلهم: ويصيح إمّا مستسلماً لهم، أو مفتولاً برجالهم، وعملائهم المنتشرين في أرجاء دولتهم المترامية. ومع الزمن المتحوّل إلى دسائس وافتراءات، كاد القوّاد لبعضهم، ونقم رجالات الدولة على حكامهم وبدأ الحقد يذرّ قرنه في جسم الخلافة لينخر كرسيّ الحكم فيها، كيما تضعف وتنهار[3]. وشهد العصر قبل انهيار الخلافة، أحقاباً متتالية من التفسُّخ السياسي، سرعان ما أدّى إلى تفسخ إقليمي، يفرّع الحكم الواحد إلى حكام؛ والدولة الواحدة إلى دويلات.

وأغلب الظنّ، أن الدولة الأولى، التي ذرّت قرنها في فتنة الدويلات التي انقسمت على الدولة الأم، هي دولة بني طاهر. وسبب هذه التسمية، يعود لنسبتها إلى طاهر بن الحسن الخرساني (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) الذي قاد الجيش الفارسي للقضاء على الأمين، وإحلال المأمون مكانه. وما كاد هذا الأخير يولّيه خراسان، والبلاد الواقعة شرقي بغداد، حتى أعلن استقلاله، وبقي بالاسم فقط، تابعاً لمركز الخلافة في بغداد. وبقي أيضاً يدعو للخليفة في الخطب أيام الجمع، وقد جعل مدينة نيسابور عاصمةً له[4].

وحلّت الدويلة الصفادية (٨٦٧ ـ ٩٠٧م) محلّ دويلة بني طاهر. وعندما قويت هددت بغداد، في عهد خليفتها المعتمد يومذاك. ولكن السامانيين لم

(١) السيوطي: جلال الدين: تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة ـ مصر ـ ط ١ ـ سنة (١٩٥٢) ص: ٣٠.

(٢) فكرة المهدوية قديمة، ويعود عصرها إلى المغالين من الأمويين. وقد استعملها الحارث بن سريج في ثورته على الأمويين، ولقب نفسه بالمهدي، كذلك عمل بها الأمويون وأوجدوا مهدياً اسمه «السفياني» وقالوا بأنه سيعيد ملك بن أمية. وكان من الطبيعي أن يستغلها العباسيون بعد توليهم الحكم، لقطف ثمار الثورة دون شركائهم، وأبناء عمومتهم العلويين: فعمدوا إلى أحاديث وضعوها تقول بأن المهدي منهم.

(٣) أمين: أحمد ـ ضحى الإسلام ـ القاهرة (١٩٣٣) ص: ١٢.

(٤) حتي: فيليب: تاريخ العرب ـ دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ ط ٤ سنة (١٩٦٥) ص: ٥٣٦.

يمهلوها لتطبق وعيدها، إذ سرعان ما قضوا عليها، وأسّسوا الدويلة السامانية التي دامت حتى سنة (٩٩٩م)[١]. وتتابع إنشاء الدويلات، فنشأت الدولة الغزنوية، وكان أعظم ملوكها محمود الغزنوي (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) الذي تمكن من فرض سيطرته على بلاد البنجاب، وملتان، والسند، واحتلال قسم من العراق وخراسان، وأصبهان وطخارستان، وسجستان وغيرها من البلاد المجاورة. ويرينا عهد الخليفة المقتدر (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) مزيداً من التقاتل والتناحر، داخل الحكم الواحد، الذي تناوب عليه ثلاثة عشر وزيراً، انتهى حكم أكثرهم قتلاً. وقد حاول ابن المعتز (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) أن يأخذ الخلافة من المقتدر، فلم يتسنّ له أن يستمر أكثر من يوم وليلة، حيث انتهى قتيلاً[٢]. ومن الثائرين الذين ظهروا في هذه الحقبة من العصر العباسي، عبد الله الفاطمي (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م) في المغرب العربي. وعبد الرحمن الثالث الأموي في الأندلس. ومنهم أيضاً، رئيس حرس الخليفة المقتدر، الخصيّ مؤنس المظفر، الذي ولاه مولاه شؤون دولته، فخلعه وعيّن أخاه القاهر (٣٢٣هـ/ ٩٣٤م) خليفةً مكانه. وحين تمكن المقتدر من العودة ثانيةً إلى الخلافة، ثار عليه العساكر، وسعوا إلى قتله، ثم حملوا رأسه إلى الخصيّ المظفّر. ولم يكن حظ القاهر بأحسن من حظ أخيه المقتدر. فقد خلع من كرسي الخلافة، وسملت عيناه وعذّب وقُهر، وعاش متسوّلاً، يستعطي الناس في عاصمة الخلافة. وهذه الحالة المزرية أصابت الخليفتين المتقي (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م) والمستكفي (٤٤٥هـ/ ٩٤٦م). فقد عذّبا وسملت عيونهما، ورميا في شوارع بغداد ليشحذا، وينهيا حياتهما بالتسّول. وعلى هذه الشاكلة، وصل بنو بويه إلى الحكم (٩٤٥هـ/ ١٠٥٥م) وهم يدعون الانتساب إلى ملوك آل ساسان الفرس، وتبدأ سلطتهم عندما دخل أحمد بن بويه على الخليفة المستكفي، فجعله أمير الأمراء. وبعد أن احتل البويهيون أصبهان وشيراز والأهواز وكرمان، زحف أحمد بن بويه على بغداد، فاحتلها. وأخرج الجند الأتراك منها، ثم عمد إلى سمل عيني المستكفي، وتعيين المطيع وأمر أن يخطب له مع الخليفة[٣].

وأعظم البويهيين نفوذاً وقوةً، عضد الدولة، الذي رفع الطائع إلى سدّة الخلافة ـ وتزوج ابنته، ثم زوّجه بنته؛ طمعاً في أن تؤول الخلافة إلى ذريته ـ ولذا

---

(١) المدوّر: جميل نخلة ـ حضارة الإسلام في دار الإسلام ـ القاهرة (١٩٠٥) ص: ٨٧.

(٢) البغدادي: الخطيب ـ تاريخ بغداد ـ القاهرة (١٩٣١) ص: ٥٦.

(٣) حتي: فيليب: تاريخ العرب ـ ص: ٥٤٧.

فقد أطلق عليه لقب شاهنشاه تلك المرحلة الغنيّة بالأحداث[1]. هذا ما كان من أمر حكام بلاد فارس، في عاصمة الخلافة العبّاسية، التي جعلوها مطيّةً لأهوائهم وأغراضهم. يخلعون خليفتها متى شاؤوا، والناس من حولهم ينظرون إليهم خائفين مرتجفين، وكل همهم أن يسالموا فيسلموا. وهذا ما كان عليه حال العصر العبّاسي في عهد الخلفاء الفارسيين؛ ومن تواروا في ظلّهم من الخلفاء العرب، الذين يوهمون الناس أنّهم هم الحاكمون، في الوقت الذي لا حكم لهم فيه، ولا سلطة[2]. فما الذي كان عليه الحال، في الناحية الأخرى من الدولة العباسيّة، ونعني بها مصر التي حكمتها سلالتان تركيتان: السلالة الطولونية، والسلالة الإخشيدية (٢٧١هـ/ ٨٨٤م).

أمّا السلالة الأولى، فقد أسس أسرتها أحمد بن طولون. وأنشأ جيشاً قوياً من الزنوج والترك، استقلّ به عن الخلافة ـ وقد تولّى الحكم بعده ابنه خمارويه (٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) الذي زوّج ابنته قطر الندى من الخليفة، المعتضد (٢٩٠هـ/ ٩٠٢م) وجعل مهرها مليون درهم، بالإضافة إلى ألف هاونٍ من الذهب جعلها هديةً لها. ولم يتسنّ له أن يكمل ما كان يدور في رأسه من أمر الخلافة، حيث مات مقتولاً[3].

أمّا محمد بن طغج (٣٣٥هـ/ ٩٤٦م) فقد وكّل إليه الخليفة العبّاسي الراضي (٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) أمْرَ مصر، ومنحه لقباً أميرياً إيرانياً هو الأخشيد، الذي عرف به وصار يلقّب بمحمد الأخشيدي. وكان ذلك سنة (٩٣٥م) وحين قويت شوكته، استقلّ بأمر الخلافة، واحتل فلسطين والحجاز وسوريا. وقد ولد له ابنان، كانا ضعيفين حين مات، وأصبح كافور وصياً عليهما، وأدار الأمارة بإرادة وحزم في ظل الخليفة العباسي، حتى دخل جوهر الصقلي مصر بعد وفاته، وأسست الدولة الفاطمية سنة (٩٦٩م)[4].

وإذا توجهنا ناحية حلب في بلاد الشام، تطالعنا الدويلة الحمدانية، التي قامت في الموصل، ثم في حلب. ويعود نسب بني حمدان إلى قبيلة تغلب. وكان أوّل أمرائها أبو الهيجاء، وخلفه عليها ابنه ناصر الدولة، بينما احتل أخوه

---

(١) زيدان: جرجي ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ الجزء الثاني ـ القاهرة (١٩٣٠) ص: ٦٧.

(٢) المرجع نفسه ـ ص: ٧٠.

(٣) المدوّر: جميل نخلة ـ حضارة الإسلام في دار الإسلام ـ ص: ٩٠.

(٤) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٥٣٠.

سيف الدولة، حلب وحمص، وأقام الأمارة فيهما[١].

ومن بيّنات هذا السرد الموجز، تراءت لنا العصبيات العرقية، والتجمعات السياسية، التي أدّت إلى تفسّخ الدولة العباسية، والقضاء على سلطتها المركزية فتلاشت دويلاتٍ مشتّتة مبعثرة، بعد أن كانت حكماً خلافياً، ينشر السلطان القائم على السطوة، والقدرة النافذة[٢].

الحياة الاجتماعية

حين نعرض للحياة الاجتماعية في العصر العباسي، يتبادر إلى ذهننا قوة التدخل الأعجمي، التي عمدت إلى هدم الأساس العربي المتتالي زخمه، حتى نهاية الحكم الأموي. فقد تسربت الأداة الفارسية، بيدٍ طويلة المنال، لإزالة كل قديم أصيل، وإدخال ما هو غريب عن المدّ العربي. وقد عمد الأعاجم إلى إفساد الدم العربي، بدفع نساءٍ أعجميات، ليصبحن زوجاتٍ للخلفاء، ويلدن أولياء العهد، الذين سيصبحون حكام المستقبل وأصحاب السلطان. وإذا استثنينا أبا العباس السفاح، والمهدي والأمين، فإنّ الآخرين من الخلفاء، لم يكونوا أبناء حرائر من النساء[٣].

ومما ساعد على اختلاط العنصر العربي، بسائر العناصر في الشعوب المغلوبة، تعدد الزوجات، والتّسرّي، وتجارة الرقيق، الأمر الذي أدّى إلى فقدان العرب مكانتهم الرفيعة، ومرتبتهم المجرّدة من كل زيغ. ولم يكن بالغريب، أن تلمح في سدة الخلافة، أنصاف العرب، والمهجنين من ليسوا في العير أو النفير. وهذا أدّى إلى زوال الارستقراطية العربية، وبروز طبقة من الموظفين من لونٍ غير عربي، يغلب عليه الطابع التركي، والفارسي، الذي تمثل في قول الشاعر:

إنّ أولاد السراري كثروا يا ربُّ فينا
ربّ ادَخلني بلاداً لا أرى فيها هجينا[٤]

وأخرجت المرأة عن نطاق الحريّة التي كانت تتمتع بها في العصر العباسي الأول، حين بسط البويهيون نفوذهم، في أواخر القرن العاشر الميلادي. فبسط

(١) حتي: فيليب: ص: ٥٣٧.

(٢) المرجع نفسه: ص: ٥٣١.

(٣) حتي: فيليب: تاريخ العرب ـ ص: ٤٠١.

(٤) المبرد: محمد بن يزيد ـ الكامل ـ نشر ريت اليزيغ (١٨٦٤م) ص: ٣٢٠.

على وجهها الحجاب، وعزلت عن الرجال. وفي حقبة الانحطاط السياسي المتميّز، بسقوط مستوى الآداب الجنسية، وكثرة الأنغماس في الملذّات والتهتك؛ هوت المرأة إلى الدرك الأسفل في المكر والدسائس ومستودع الفساد(١).

ونستطيع أن نقف على مقاييس الجمال النسائي الشائعة في هذا العصر، من ألسنة الشعراء، الذين جعلوا أحسن القدود ما كان كالخيزران، وأجمل الوجوه ما كان كالبدر استدارة، وأجود الشعر ما حاكى الليل سواداً، وأحبَّ ألوان الخدود، البياض مع الحمرة، ويزداد الخدُّ جمالاً إذا توسطه خال. وقد أحبوا في المقلتين الكحل الطبيعي دون التكحيل. وشبهوا العيون الكبيرة بعيون المها. وقالوا في الجفن المتكسّر: ناعساً سقيماً. ووصفوا المبسم بالإقحوان. وجعلوا الأسنان فيه كعقد اللؤلؤ، أو كالبرد. والنهدين كرمانتين. والخصر كقضيب. والردف ككثيب. واستحسنوا الأصابع الدقيقة الرخصة الأنامل المستدقة الأطراف(٢).

وكان الأثاث ديواناً للجلوس، يمتد حول بعض جدران الغرف المفروشة بالسجاد. والمقاعد تأخذ شكل الكراسي. وانتشرت الوسائد المفروشة على طراريح. وكان الأكل يقدّم وسط أطباق نحاس مدوّرة، على موائد واطئة أمام الدواوين، أو على الأرض مقابل الوسائد. وفي منازل الأغنياء، يقدم الطعام على أطباق مصنوعة من الفضّة.

وتوضع الطباق فوق موائد من الخشب المرصّع بالأبنوس. وانتشرت الأطعمة الفارسية: كالسكباج المصنوع من مرقٍ مخلوطٍ باللحم والخل. وكالدجاج المعلوف بالجوز المقشّر واللوز. وكالفالوذج، وهو أحسن أنواع الحلواء. وصارت المنازل تبرّد بالثلج في فصل الصيف(٣). وتدار فيها المرطبات المصنوعة من الماء المحلّى بالسكر، والمقطّر بمعصور البنفسج والموز والزهور،

---

(١) ولإعطاء صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية للمرأة العباسية، نذكر رسالة تعزية أرسلها أبو بكر الخوارزمي، المتوفي بحدود (٩٩٣م) أو (١٠٠٢م) إلى صديق له معزياً يقول فيها: «ولولا ما ذكرت من سترها، ووقفت عليه من غرائب أمرها، لكنت إلى التهنئة أقرب من التعزية. فإن ستر العورات من الحسنات، ودفن البنات من المكرمات. ونحن في زمنٍ إذا قدم أحدنا فيه الحرمة، فقد استكمل النعمة. وإذا زفت كريمته إلى القبر، فقد بلغ أمنيته من الصهر».

[رسائل: القسطنطينية (١٩٢٧) ص: ٢٠].

(٢) ابن قيّم الجوزية: أخبار النساء ـ القاهرة (١٣١٩هـ/ ١٩٠١م) ص: ١١٩.

(٣) ابن أبي أصيبعه أحمد بن القاسم: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ـ نشر مرغليوث (ليدن ١٩٠٧) ج ١. ص (١٣٩).

أو بمعصور التوت. وانتشر شرب الخمر بين الخلفاء والأمراء، والعامّة من الناس. حتى القضاة، لم يحفلوا بأوامر الدين، وأقبلوا على شربه[١]. وقد تسابق الخلفاء إلى التنافس في طلب العلماء والشعراء والمغنّين وأرباب الموسيقى؛ واتخذوهم ندماء لهم، يقارعون معهم كؤوس الخمرة المصنوعة من التمر. وكانوا يتحلقون في حلقات تسمّى مجالس الشراب.

وقد درج الداعون إلى الشراب، أن يعطروا وضيوفهم لحاهم بالمسك وماء الورد، ويرتدون ثياب المنادمة، بينما تتضوع أرجاء الغرفة، برائحة العنبر والندّ المشتعل، حيث تطوف به القيان والغواني المحترفات الهوى. وأكثر الغواني، من بنات الرقيق، يتخذن مغنيّات، وراقصات وسراري[٢]. وكان لبعضهن نفوذ عظيم على أسيادهم الخلفاء. فقد حُكي عن الرشيد، خبر شراء جاريته ذات الخال بسبعين ألف درهم. وقد هاجته الغيرة ذات يوم فوهبها لوصيفه: حَمَوَيه[٣]. وبعد أن وهبها عاد فاشتاق إليها، فاسترجعها من وصيفه، وحلف ألاّ تسأله حاجةً إلاّ قضاها؛ ولم تخيّب أمله، فطلبت منه، تولية (حمويه) الحرب والخراج بفارس، مدة سبع سنين فلبّى طلبها[٤]. يضاف إلى ذلك، نادرة ثانية، تتعلق بشغف الرشيد، بجارية اسمها دنانير، كانت مولاة ليحيى بن خالد البرمكي، فأخذ يتردد عليها، ويقيم عندها ويبرّها. وما عتم خبرها حتى وصل إلى زوجته زبيدة، التي سعت أن تبعده عنها، بإهدائه عشر جوارٍ منهنّ: مارية أم المعتصم، ومراجل أم المأمون، وفاردة أم صالح، وغيرهنّ من الجواري الأخر[٥].

ويتبيّن أثر سطوة الجواري على الخلفاء، ما نقرأه على لسان شاهد عيان، دخل على المأمون في أحد الشعانين، فرأى بين يديه عشرين وصيفةً، تزنّرن وتزينّ بالديباج، وعلّقن في أعناقهنّ صلبان الذهب، وفي أيديهنّ أغصان الزيتون. فلم يزل يشرب، والوصائف يرقصن بين يديه حتى سكر. وللحال أمر أن يُنثر على الجواري ثلاثة آلاف دينار. وكان أكثر الخدم الذين دخلوا في خدمة الخلفاء والأمراء من الأرقاء، من شعوب غير مسلمة؛ انتزعوا قسراً من بلادهم، أو أسروا

(١) النويري: أحمد بن عبد الوهاب ـ نهاية الأدب ـ القاهرة (١٩٣٦) ج ٤ ص: ٩٢.
(٢) الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين ـ الأغاني ـ بيروت (١٩٥٥) ج ٣ ـ ص: ١٨٠ ـ ١٨٩.
(٣) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٤١٠.
(٤) الأصفهاني: أبو الفرج ـ ج ١٥ ـ ص: ٨٠.
(٥) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٤١٢.

في الحرب، أو اشتروا بالمال[1]. وكان أكثر هؤلاء الأرقّاء من البيض ـ عدا أرقّاء زنج وآخرين ترك ـ من اليونان أو السلاف، أو الأرمن أو البربر. وكان بعضهم من الخصيان، الذين يُستخدمون في دور الحريم، والبعض الآخر من المميزين الذين ينالون عطف أسيادهم، ويُلبسون الحلل الجميلة الجذابة، ويُزينون ويُعطرون، كما يتزين ويتعّطر النساء. وهذا فيض من غيض ممّا حفلت به أروقة الخلفاء، من طرف الجواري وألاعيبهن المميزة.

وشاع وسط الأجواء الاجتماعية، في العصر العباسي، تكاثر الغلمان في أروقة هارون الرشيد، ومجالس بلاطه العامرة بفنون الغناء، والرقص[2]. وذكر أن الخليفة الأمين، هو أول من سعى في طلبهم، وجعلهم لملذاته وخلواته، كما كان يفعل الإكاسرة[3].

وذكر أن أحد القضاة الذين عاصروا المأمون، كان في حوزته ما يقارب الأربعمائة غلام، من المرد الحسان الوجوه الخفيفي الظل، الممتعين بالطلاوة والملامة[4]. وكان في دار المقتدر، ما يقارب الأحد عشر ألف خادم خصيّ، من اليونان والسودان، وبعض بلاد الجراكسة. وقيل فيما قيل، بأن بلاط المتوكل على الله، حوى أربعة آلاف سرّية منتقاة من العارفات بحسن الغنج والدلال. وقد أهدى إليه أحد قوّاده مئتي وصيفة ووصيف[5].

ومن العادة المتبعة لدى العمال والقوّاد، السعي في طلب الغلمان والجواري، وشراء بعض الرقيق، ليقدم هديّة تقرّب وولاء للخليفة. كما أن الخلفاء كانوا يرسلون بعض وصفائهم الموثوق بهم، هدية إلى عمّالهم؛ ليكونوا عيوناً وجواسيس يوافونهم بأخبارهم، ويدسُّون لهم السُمّ لقتلهم في حال لم يكونوا على الخط المرسوم لهم[6].

---

(١) الطبري: محمد جرير ـ تاريخ الرسل والملوك ـ القاهرة (١٩٦٣) ج ٣ ـ ص: ٩٥٠.

(٢) المرجع نفسه ـ ج ٢ ـ ص: ٩٥١.

(٣) المسعودي: علي بن الحسين ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ بيروت (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) ط ٤ ج ٧. ص: ٤٧.

(٤) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٤١١.

(٥) الخطيب البغدادي: الحافظ أبو بكر: أحمد بن علي ـ تاريخ بغداد ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة (١٩٣١) ج ١ ـ ص: ١١٨ ـ ١١٩.

(٦) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٤٠٧.

بالإضافة إلى ما تقدم، انتشرت الحمامات حول المساجد، لا لاستعمالها للوضوء والطهارة، بل للهو والترف أيضاً. وقد بُنيت على شكل قسمين: واحد يختص بالنساء، وآخر يخصص للرجال. وفي عهد الخليفة المقتدر، أُحصي ما يقارب السبعة والعشرين ألفاً من تلك الحمامات الشبيهة بما نراه اليوم. وكانت تحتوي على مخادع كثيرة، مفروشة بالفسيفساء، وقد طلي نصف حائطها مما يلي الأرض بالقار؛ وطلي النصف الآخر الأعلى بالجصّ الأبيض الناصع البياض. وكانت تُبنى حول ردهة واسعة، عليها قبّة فيها نوافذ زجاجية صغيرة مستديرة للنور. وفي كل مخدع حوض من الرخام فيه أُنبوبان للماء الحار والبارد. أمّا الغرف الخارجية، فكانت للإتكاء والإستراحة، وتناول المشروبات وبعض الأطعمة. وبالإضافة إلى ما تقدم، انتشرت الألعاب واللهو المنزلي، كالنرد والشطرنج. وقيل: إن الخليفة هارون الرشيد، أوّل من أدخل هذه الألعاب إلى قصر الخلافة[١].

وإذا كان قد ذكر بأن الرشيد، هو أوّل من لعب الشطرنج، وأرسله فيما أرسل من الهدايا إلى شرلمان ملك فرنسا، فمن الثابت أنّه رسّخ هذه اللعبة بين أفراد الطبقة الارستقراطية، فاعتاظت بها عن النرد الذي انتشر أولاً في منازلها. وكلاهما ـ أي النرد والشطرنج ـ من أصل هندي. وانتشرت ألعاب أُخرى، غير هذه التي ذكرنا، منها: الجوكان[٢] والصولجان، ولعب السيف والترس والجريد، وسباق الخيل. وكان من مزايا الندماء، الرمي في الأغراض وطلب الصيد، واللعب بالكرة، وهي صفات يساوي فيها الملك ندماؤه وبطانته[٣] ومن الخلفاء الذين أُغرموا بلعب الكرة: الخليفة المعتصم. وهناك إشارات إلى لعبة الطبطاب. وهي خشبة عريضة يُلعب بها. وهي شديدة الشبه بلعبة التنس المنتشرة اليوم، ولعلها كانت في شكلها البدائي[٤]. وكان الرشيد يُسرُّ بمشاهدة سباق الخيل، ويعتز كثيراً إذا نالت خيله النصر، وكانت من السوابق، وانتشر الرهان بين الناس على الخيل في حلبات السباق، وكانوا يدفعون لأجل ذلك المبلغ الطائل من المال الذي يستحقه المراهن الرابح[٥].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ـ ج ٨ ـ ص: ٢٩٦.
(٢) الجوكان: لفظة فارسية معناها: عصا معقوفة.
(٣) المسعودي: مروج الذهب ـ ج ٨ ـ ص: ٢٩٦.
(٤) الأصفهاني: أبو الفرج ـ الأغاني ـ ج ٩ ـ ص: ٩٧.
(٥) المسعودي: مروج الذهب ـ ج ٨ ـ ص: ٢٧٠.

وكان للصيد ولعٌ كبيرٌ لدى الخلفاء والأمراء. ويُذكر أنّ الأمين ولع ولوعاً كبيراً بصيد الأُسود. وكان له أخٌ شديد الولع بصيد الخنازير. وقد شغف كلٌ من أبي مسلم الخراساني والمعتصم بصيد الفهود(١).

وكانت هناك مواضع خاصّة، ينصبون فيها الشراك، ويروضون البزاة على الصيد المحكم الأهداف.

وقد دخلت تربية البزاة والبواشق، إلى المجتمع العباسي في بلاد فارس، ولا يزال العمل بهذا الصيد معروفاً في إيران والعراق وسوريا. وكان يُستعان بالبواشق والبزاة، لصيد الغزلان والأرانب والحجل، والأوز البرّي والبط والقطا. وكانت كلاب الصيد تُستعمل لصيد الغزلان وغيرهما من الحيوانات المنتشرة في البرّ الصحراوي(٢).

وهذا التمازج الاجتماعي الذي مرّ معنا، من خلال الجواري والغلمان وشرب الخمر، ودور اللهو والغناء. يضاف إلى ذلك، العادات المكتسبة من الفرس والترك والهند... الخ. بالإضافة إلى الترف في المأكل والملبس والرياش والأثاث، والشرف في الحمامات، والصيد وما شابهه، الذي أدّى إلى نشوء مجتمع جديد، تتجاذبه أهواءٌ وميولٌ مختلفة النظم والمقاييس، ترتكز على دعائم طبقة واهية منها: الارستقراطية المتمازجة مع العرب الاقحاح. ومنها البرجوازية العربية المتداخلة مع غير المسلمة من الأقطار المجاورة. ومع الأعجمية المسلمة، وهي خليط من القيان والجواري، والمولّدين والرقيق والغلمان، إلى جانب من كانت لهم المكانة الرفيعة في بلاط الخلفاء والأُمراء(٣).

وكانت الطبقة الارستقراطية، تتولّى شؤون الجيش والعمل العسكري، أمّا الطبقة البرجوازية، فكانت تتولّى الشؤون التجارية والصناعية، وما شابهها من

---

(١) الأصفهاني: أبو الفرج ـ الأغاني ـ ج ٩ ـ ص: ٩٩.

(٢) كانت فرق الصيادين تطوق البقعة التي تلجأ إليها الطريدة، ثم تأخذ في تضييق الحلقة، حتى تتمكن من حصر الحيوان وصيده. وقد استخدم المعتصم طريقة الحلقة لحصر الصيد. فبنى في أرض دجيل حائطاً على شكل نعل فرس طوله فراسخ كثيرة، وطرفان في النهر، فكان رجاله يطردون الصيد، حتى يحصر بين الحائط والنهر ثم يصطادونه. كذلك استخدم الطريقة نفسها للصيد المعتصم، وبعده السلاجقة.

(٣) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٤٠٩.

أعمال الاستثمار. أمّا طبقة الخليط الشعبي، والعوام المختلف الأجناس فكانت تتولّى المهن الحقيرة القليلة المردود[1].

وقد لعبت الطبقتان: الارستقراطية والبرجوازية، دوراً فعّالاً في نشر الخلاعة والعبث والمجون، الممتزج بالشعر المتهتك، والأدب الفاضح، وكان للغانيات، وبنات الهوى، من الجواري الهنديات والروميات والتركيات، المتلقحات بالثقافات المتعددة المذاهب، أثر كبير في نشر ضروب الفسق المتهتك السلوك والغاية[2] كما كان لهنّ الحظّ الأوفر، في بسط أنواع من الظرف والفكاهة والتندر، بحبّ الزهور والرياحين، ووصف فعل السحر من منظرها، والنشوة من تنشق أريجها العابق بكل طيب. وفي بسط عادة كتابة الشعر، والجمل المستملحة على الأقمصة والأردية، والأكمام. وهذا كله، دخل في الظرف المستملح عادةً وتقليداً في المطعوم والمشروب والملبوس، وكل ما يمتّ بصلة لذلك[3]. وكان للخلفاء العباسيين، الدور الفعّال في نشر تلك العادات والتقاليد. وما صاحبها من مستظرفات وهوايات، ومغالاةٍ في انتشار المجون «وما لفّ لفّه». ومن قبيل ذلك، كان المهديّ يطرب لسماع المغنيّات، في حلقات الفكاهة والطرب المستظرف، بشتّى أنواع الجمـ الخلاّق، في وصف خمائل العشّاق، المكلّلة بالزهور والورود، ورياحين الطيبـ والآس، والمنتشرة المعاني وتعدد الأسماء، بأعذب إيقاعٍ من رقيق اللحن، وشدو الغناء، على جرس المعاني البهيجة المفرحة[4].

ومن أثر ما اعتمده الخلفاء، أخذ الأغنياء والمترفون طرق لهوهم وطربهم، أمثال أبي عيسى بن هارون الرشيد، وإبراهيم بن المهدي (٢٢٤هـ/ ٨٣٩م) المعروف بسرعة بديهته، ودقة علمه بالنغم والوتر والإيقاع، وتعلقه بالصوت الحسن الرخيم[5]. وقد أُقيم في مجالس عامرة، بمطارحات اللهو، لمثل من ذكر، احتفالات أنسٍ وإمتاع، داخل قصورٍ ترفل بما لذّ وطاب. وقد وصف أبو

(١) عمرو بن بحر: أبو عثمان: الجاحظ (الجاحظ والحاضرة العباسية)، الدكتورة وديعة طه نجم ـ نشر جامعة بغداد (١٩٦٥) ص: ٣١٥.
(٢) الجاحظ: عمرو بن بحر ـ الجاحظ والحاضرة العباسية ـ ص: ٣٢٧.
(٣) الأصفهاني: أبو الفرج ـ الأغاني ـ ج ١٤ ـ ص: ١٢٧.
(٤) المصدر نفسه ـ ج ٩ ـ ص: ٩٦.
(٥) الجاحظ: عمرو بن بحر ـ البيان والتبيين ـ الخانجي بمصر ـ ط ٢ (١٩٦٠) ج ٣ ص: ٣٠٨.

العتاهية (٢١٢هـ/ ٨٢٥م) وصفاً غنياً بالروعة والإبداع، لأنواع الفواكه والرياحين، والألوان المختلفة من النبيذ المعتق[1].

وكان للجنائن والرياض والحدائق والبساتين، المكان الأوفى والأعلى في وصف شعراء ذلك العصر. فقد كان الماءُ والخضراءُ توأمين للوجه الحسن، في قصائد الشعراء المولعين بحبّ الطبيعة، وما نبت فيها من جميل الورد والزهر المزيّن للموائد والدور، والردهات الواسعة الرفاهة[2] والجميل في هذا المجتمع المتقدّم، أنه صبغ الحياة العامة، بصيغة محاسن الوصف، المتغلغل في النفوس. وهذه الصبغة، نفذت بأريج عطرها إلى جمهرة الناس، فضلاً عن خاصتهم، وأخذ الشعر يرسم على منوالها، ويحذو حذوها، وينفذ إلى أعماق حياة الناس، معبّراً عن حياتهم، واصفاً لمجتمعهم، مصوراً أحوالهم، بحيث تحوّل الشاعر إلى راصد لحياة زمانه، وكأنه عالم اجتماع؛ غير أنه عالم شاعر، ووصّاف ماهر، ومعاشرٌ لبق يحسن رصف الكلام في حديثٍ طليّ[3].

وعندما شاع الغناء ـ وسط هذا المجتمع ـ كان هناك المغنيّ المجيد، والقينة المحسنة عزفاً وغناءً. وكان الشاعر يجلس إلى واحدةٍ من القيان المبدعات الضرب، المتشحات بغلالات من الدمقس، تتدرج من قمة رأسها، متهدّلةً على جانبها، فيأخذ شكلها وعزفها وأوتارها بمجامع خاطره، فيقول فيها على سجيته الشاعرة:

وجـاريـةٍ تـنـالُ الـنـفـسُ مـنـهـا … بِـلَـحْـظِ الـعـيـنِ غـايـةَ مـا تَـمَـنَّـتْ
تُـريـكَ الـحُـسْـنَ والإحـسـانَ وَقْـفـاً … إذَا بَـرَزَتْ لَـنَـا وإذا تَـغَـنَّـتْ
كـأَنَّ الـعُـوْدَ حِـيْـنَ تُـمَـسُّ مِـنْـهُ … يُـعـبِّـرُ عـن سـرائـر مـا أَجَـنَّـتْ
كـأَنَّ تَـرَنُّـمَ الأَوتـارُ فـيـه … أنـيـنُ مـشـوقـةٍ ذَكَـرَتْ فَـحَـنَّـتْ[4]

والشعر في وصف المغنيّن والقيان كثير وفير. جيدٌ أكثره. والغناء والعزف ـ في أغلب الأحيان ـ مقرونان بالرقص، وما شابهه على هذا الصعيد. وعرضنا لحياة الغنى والترف ـ في هذا العصر ـ لا ينفي وجود الفقراء، وما يعانون من

---

(١) الأصفهاني: أبو الفرج ـ الأغاني ـ ج ٩ ـ ص: ٣٥.

(٢) الأصفهاني: أبو الفرج ـ ج ٣ ـ ص: ١٨٠.

(٣) الشكعة: مصطفى ـ معالم الحضارة الإسلامية ـ دار العلم للملايين ـ بيروت (١٩٧٣) ص: ٢٨٣.

(٤) أبو العتاهية: الديوان ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت (١٩١٤) ص: ٣٠٤.

إرهاق ارتفاع الأَسعار، والغلاء المدوّن في قصائد الشعراء، الذين يذكّرون الأغنياء بالضغط المفقر، المتسلّط على أعناق إخوانهم المعوزين، وما يصيبهم منه من ألم وعذابٍ شاقٍ مرير[1] وانتشار آلام الفقر والجوع، أوجب انتشار حياة الزهد الداعية، إلى نبذ الإغراق في الملذّات، والجري وراء الشهوات، في سبيل متعةٍ فانية، تبدد بانتهاء، آنيتها السريعة الزوال.

وكان الناس يشاهدون دعاةً يطوفون الشوارع، وقد أَرسلوا اللّحى الطويلة، ولبسوا ما خفّ ثمنه من الثياب، وهم يهتفون بأصحاب المال، أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله، ليخلصوا من عبء مسؤوليته يوم الحساب. وكانوا يدفعون الموسرين، إلى التخفيف من غلواء الجري ـ وراء المادّة المسبّبة لأَصحابها ضياعاً في الإغراق بسفاسف المجون المفرط في الابتذال، والخلاعة الموصلة للزندقة المنحرفة السلوك والمنطق.

وهذه الأَخيرة ـ أي الزندقة ـ كثر شيوعها في العصر العباسي، وأَصبحت عبئاً ثقيلاً، حثّ الخلفاء على مقاومة حركاته، الهدّامة البغيضة الغاية. ومن هؤلاء الخلفاء، المهدي الذي وصل به الأَمر، إلى تعيين رجل، أُوكل إِليه أَمر مروّجي مظاهر الزندقة المسرفة التطرف. والحالة ذاتها مارسها الهادي والرشيد، اللذان أكثرا من ملاحقة مروّجي تفاسير قرآنية، وأحاديث نبوية ينبذها الإسلام ـ ويتبرأ من تأويلها المناقض للواقع. وشيوع الزندقة في العصر العباسي، ملأ كلّ تجمّعٍ يؤوّل التفسير عكس ما هو أهل له[2].

وكان أَهل الشعر، أولّ من جعل عيون الناس تتفتحّ، على هذا النوع من الانحراف المغرق في الاستهتار، والذي جعلهم يطلقون على صاحبه، معنى الزنديق المارق من الدين. وكان الشعراء، يفتقون في كلّ مجتمع فتقاً، يُثير عليهم المتدينين، الذين يلاحقونهم باللعن والسباب، ليرعووا عن غيّهم ويثوبوا إلى رشدهم، ويمتنعوا عن إنشاد شعرهم المليء بالتهكم والسخرية اللاذعة[3]. وفي الوقت ذاته، كنّا نلمح طائفةً من الناس، لا ترى في إباحية الشعراء، سوى شيءٍ من التلمج، الحافل بالطرافة والفكاهة. وما الزندقة التي يثور بسببها المحافظون المغالون، سوى لهوٍ بريءٍ، يبغي أَهله الترفيه عن الناس، والتخفيف من

(١) الشكعة: مصطفى ـ معالم الحضارة الإسلامية ـ ص: ٢٨٥.

(٢) الأصفهاني: أبو الفرج ـ الأغاني ـ ج ٣ ـ ص: ١٨٣.

(٣) أمين: أحمد ـ ضحى الإسلام ـ القاهرة (١٩٣٣) ط ٧ ـ ج ١ ص: ١٤٧.

همومهم، ولا يقصدون الانحراف بهم عن عقيدةٍ أو دينٍ يتساوق مع ما يسعون إلى بلوغ مرتجاه.

وظهرت طائفةٌ أُخرى، ناقض رأيها ما جاء على لسان الأُولى، ورأت في شعر التجديد، البعيد عمّا هو مألوف عند من التزموا القواعد الإِخلاقية، تلاعباً فاضحاً بعواطف الناس، وخدشاً لمشاعرهم الفيّاضة بالسعي وراء الكمال. إِنّهم يدعون التزامهم بالخطِّ الإِسلامي، الذي فيه ما فيه من مرحٍ وظرف إِباحة الدين، ولكنهم يميلون في باطنهم، إلى الأَخذ بالنزعة الفارسية، ونَشرها بين الناس، دون أن يحسّوا بما أقدموا على أَخذه[1] ونحن، وإن كنّا نرى، أن حركة الزندقة، وسط هذا المجتمع المتماوج باختلاف الأَجناس والألوان، قد صبغت نفسها بصبغة التسليّة والتلّهي البريء، في حالة التتعتع بنشوةِ السكر العابر، عبر حانةٍ أو ملهى، دونما قصد للطعن بالدين، أو الانحراف بأحكام الشرع الحنيف، فإِنَّ ما أخذ عليها، لدى المراقبين، عن هم منِ أتباعها، هو التطرف من قبل المولّدين خاصةً، للرجوع بمعاني المجتمع الأدبي في شعرهم، إلى الشعوبية القائمة على هدم كل ما هو عربيّ، والعودة إلى المجوسية وأَغراضها الوثنية. ومن الشعراء الذين اتهموا بتلك العودة وأغراضها، ابن المنذر (١٩٨هـ/ ٨٠٤م) والحسن بن هانيء (١٩٠هـ/ ٨٠٥م) والحسين بن الضحاك (٢٥٠هـ/ ٨٦٥م) وغيرهم من الذين حذوا حذوهم[2].

وإذا كانت الخلاعة، عنوان هؤلاء الشعراء، فإِنَّ الشعوبية، كانت اتهاماً لهم، ولمن هم على شاكلتهم من المولّدين الذين يريدون أن يتساووا بالعرب، ومن المتطرفين من الأعاجم، الذين هالهم ما أصابهم من هزيمةٍ ومن خضوع، فراحوا يفتخرون على العرب، بأنهم أعرق منهم حضارةً ومدنيةً، بينما كان العرب غارقين بالبداوة المظلمة. وقد وصل المتطرفون، إلى ذروة الحطِّ من قدر العرب، حين تمكنوا من العربية، واستطاعوا أن ينشروا تآليفهم التي تبرز مثالب العرب، وتجعل عاداتهم في الدرك الأسفل من الانحراف والتخلف[3] وليس أصعب على الباحث ـ حين يصل إلى دراسة الشعوبية ـ من الخوض في أسبابها، والتعمق في آثارها، التي تركت على تاريخنا، بصماتٍ محفوفة بالمخاطر، تدفع كل بناءٍ

(١) أمين: أحمد ـ ضحى الإسلام ـ القاهرة (١٩٣٣) ط ٧ ـ ج ١ ص: ١٤٨.
(٢) الأصفهاني: أبو الفرج ـ الأغاني ـ ج ٩ ـ ص: ٩٧.
(٣) ابن النديم: الفهرست ـ مكتبة خياط ـ بيروت (١٩٩٤) ص: ١٥٦.

مصلح، إلى ترك الحديث عنها، كي لا ينكأ جراحاً، من الخير لها أن تندمل، ويفجرَ فتنةً من الأفضل لها أن تنام.

الحياة الاقتصادية

بلغت الدولة العباسية شأواً بعيداً من التقدم والرقيّ، حتى عرفت ازدهاراً واسع الأَطراف، نالت معه لقب الأمبراطورية. وقد ترامى أَطراف تلك الدولة، ناحية النصارى واليهود والزرادشتيين، الذين نشط العرب المسلمون، لأَخذ دورهم؛ والحلول محلّهم في الدولة المتقدمة لتسلّم الصدارة، بجدّية مستحدثة[1] وما كادت أقدامهم تطأ الثغور التي أَصبحت في عهدتهم، حتى ازدهر إنتاجها البحري، بقوّة نشاطهم، وإقبالهم على ضبط العمل فيها. وباتت مرافىء بغداد والبصرة وسيراف والقاهرة والإسكندرية، موانىء هامة، يُشار إليها بالدهشة والإِعجاب، لما اعتراها من تقدّم مضطرد وتطور يميل نحو الحسن من جديد الأمور[2] وكان للخليفة المنصور، شأوٌ كبير في هذا المضمار، إذ دفع المسلمين شرقاً إلى الصين، وعزز معها المواصلات البحرية والفارسية والعربية، فامتلأت الامبراطورية الإِسلامية بالحرير الواصل إليها، عن طريق سمرقند وتركستان الصينية. وقد ابتكر المنصور طريقةً ناجحةً، للتسريع بإيصال الحرير، عن طريق القوافل المتعدّدة المنتشرة على طول الطريق، حيث تتسلم المنقول دون تعبٍ أو مشقة؟ بالإِضافة إلى الكمائن المنصوبة على طرفي الطريق، منعاً لغزو اللصوص وقطاع الطرق. وكان للسفارات دورٌ بارزٌ في منتصف القرن الثامن الميلادي، سجلته المدوّنات الصينية الراجعة إلى تلك الحقبة التي نحن بصددها. وعن طريق التجارة، وصل الإسلام إلى الجزيرة الهندية، التي أنشأت سنة ١٩٤٩ دولة جديدة باسم ولايات أندونيسيا المتحدة. وبلغت التجارة غرباً بلاد مراكش واسبانيا. وفكر هارون الرشيد قبل ده لسبس بنحو ألف سنة حفر قناة السويس[3].

ولم تنشط تجارة العرب كثيراً في البحر المتوسط، والبحر الأَسود، ولكن سفنهم كانت تمخر في بحر قزوين، لقربة من المراكز الفارسية الهامة في المدن العامرة، كسمرقند وبخارى، وما وراءهما من أراضٍ آهلةٍ بالسكان. وكان التجار

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ـ ج ١ ـ ص: ٢٨١ ـ ٢٨٢.
(٢) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ج ١ ـ ص: ٤١٢.
(٣) المرجع نفسه: ص: ٤١٣.

المسلمون، يحملون من تلك البلاد المختلفة، التمور والسكر والقطن، والمنسوجات الصوفية، والأدوات الفولاذية، والأواني الزجاجية، ثم يعودون ببضائع مختلفة، من التوابل والكافور والحرير، من أقاصي آسية والعاج والأبنوس والرقيق الأسود من أفريقيا المعمورة آنذاك، بكثير من التعاسة والشقاء[1] ويتسنّى للباحث الوقوف على عظم الثروة، التي تنعّم بها أمراء المال في ذلك العصر، والسعة التي كانوا فيها، من قصة ابن الجصاص الجوهري ببغداد[2] فقد ظلّ غنياً موسراً، بالرغم من أن المقتدر، صادر منه ستة عشر مليون دينار. وكان أوّل من عرف من هذه الأسرة التي نبغ فيها بعده، كبار تجار الجواهر والأحجار الكريمة[3].

ونرى كلما أوغلنا في الدراسة، أن الأثرياء من كبار تجار البصرة، استطاعوا حيازة مراكب، تنقل البضائع، إلى الأصقاع المترامية الأطراف، وتأمين دخل ماليّ يجاوز المليون درهم. ومن الذين اشتهروا في البصرة وبغداد، أحد الأثرياء الذي بلغ مقدار ما يخرج صدقةً كل يوم، مائة دينار. وحين بلغ ثراؤه مسامع الخليفة المعتصم، جعله وزيراً له، رغم ما عُرف عنه من جهل وشدّة غباء[4] وتكاثر الدخل المالي على التجار، فزادوا من إنفاقهم على تزيين منازلهم وزخرفتها. وقد بلغ ما أنفقه أحد التجار على منزله في «سيراف» أكثر من مائة ألف درهم. ووصل خبره إلى تاجر آخر، فشدته المنافسة، إلى إنفاق ثلاثين ألف دينار على تزيين منزله[5] وهناك تاجراً مضى ما يزيد على الأربعين سنة مسافراً في البحر؛ وبلغت ثروته، نحو أربعين مليون دينار أو تزيد. وصفة دوام السفر في البحر، ملازمة لأهل سيراف، الذين بلغوا شأواً كبيراً في فنهم التجاري، المعتمد على صناعة وطنية عامة، أو زراعة واسعة. وهذه الزراعة شملت أنحاء الامبراطورية العباسية، وتركزت في آسية الغربية على حياكة السجاد، والنسيج الموشّى، لتعليقه على الجدران. بالإضافة إلى ما تقدم انتشرت حياكة الحرير والقطن والمنسوجات الصوفية، والديباج والأطلس وأغطية الوسائد، وغيرها من أدوات الفرش والأثاث، وأواني المطبخ.

---

(١) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ج ١ ـ ص: ٤١٣.

(٢) الكتبي: فوات الوافيات ـ بولاق (١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م) ج ١ ـ ص: ١٧٧.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ـ ص: ١٧٧.

(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية. نشر ديرنبورغ (باريس ١٨٩٥) ص: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٥) ابن حوقل: المسالك والممالك ـ نشر دي غويه (ليدن ١٨٧٢م) ص: ١٩٨.

قد كانت أنوال فارس والطرق الكثيرة، تنسج أفخر أنواع السجاجيد والمنسوجات وكان لأم الخليفة المستعين (٢٥٢هـ/ ٨٦٦م) سجادة حيكت لها خصيصاً. وقد بلغت أكلافها، مائة وثلاثين مليون درهم. عليها صور لكثير من أنواع الطيور، مصنوعة من الذهب، وعيونها من الياقوت، وسواه من أحجار اللآلىء والجواهر النادرة[١].

وفي مدينة بغداد، ذاع ذكر حيٍّ يعرف باسم «العتابي» نسبةً إلى أميرٍ نزل فيه، وأصبح النسيج المصنوع في ذلك الحيّ، يعرف بالنسيج العتابيّ[٢] ثم أخذ عرب الأندلس، في تقليد حياكته، وأصبح مشهوراً بلفظة المحرّف (Tabi) في فرنسا وإيطاليا، وسواهما من أقطار أوروبا. وقد اتصلت الكلمة باللغة الإنكليزية التي تطلق فيها لفظة (Taby) على الهرر المخططة. وأنتجت الكوفة المناديل الحريرية وما شابهها، لتلك التي تلبس على الرأس، ويطلق عليها اسم الكوفية في عصرنا الحاضر[٣] يضاف إلى ذلك، اشتهار مدينة «توج» و «فسا» من أعمال فارس بمعامل كثيرة ممتازة، لصنع البسط، وثياب الوشي والديباج، والطراز، وهو لبس الترف، الذي كان يصنع لملبوس الخلفاء والأمراء، في مجال الإعزاز والتفاخر[٤] وكان يطرز عليه اسم الخليفة، أو الأمير الذي صنع له. وعُرفت معامل اشتهرت بزركشة الدّمقس الموشّى بالذهب، والستائر المصنوعة من الخزّ. أمّا منسوجاتهم المصنوعة من وبر الإبل والماعز، والعباءات المصنوعة من الحرير المغزول، فقد كانت كلها واسعة الانتشار. وكانت شيراز، تصدر العباءات الصوفية المخططة، والأقمشة الناعمة، والديباج المقصّب. واشتهرت خراسان وأرمينية بأغطية الفرش والستائر، وأغطية الموائد. واختصت بخارى بسجّادها الفاخر المميّز الشكل والنوع[٥] وبلدان ما وراء النهر، التي كانت الدولة العباسية تبسط عليها يدها، اشتهر مجتمعها بتجارةٍ اقتصادية حوت من الصناعة أهمها: الصابون والبسط والقناديل والنحاس والآنية المصفحة، وعباءات اللباد، والفرو والعنبر والعسل، والبواشق والمنقصات والإبر والسكاكين والسيوف والقسيّ واللجوم إلى جانب الأرقّاء من الصقالية والترك ومن لفّ لفهم في تجارة الرقيق الشائعة.

أمّا الموائد والمقاعد والقناديل والشماعد والمزهريات والفخار وأدوات

---

(١) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ص: ٣١٥.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ـ ص: ٣٢٤.

(٣) المرجع نفسه ـ ص: ٣٢٥.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ـ ص: ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٥) الحموي: ياقوت: معجم البلدان ـ ج ١ ص: ٨٢٢.

المطبخ، فكانت تصنع في سوريا ومصر. وكان النسيج المصري المعروف بالدمياطي (نسبةً إلى دمياط)، والدَّبيقي (نسبةً إلى دبيق)، والتينسي (نسبة إلى تينس)، قد اشتهر في العالم وقلده الفرس، وقد كانت بعض الصناعات الفنيّة القديمة المألوفة في عصور الفراعنة، لا تزال معروفة بشكل أخفّ في الصناعات القبطيّة[1] وكانت بلاد الشام، قد اختصّت بصنع الزجاج، في صيدا وصور، وسواهما من المدن التي حافظت على هذه الصناعة منذ عهد الفينيقيين. وقد ضرب المثل بالزجاج السوري لرقته وصفائه المغرق في شفافية بلوريّة جذابّة[2].

وكان الزجاج المخطّط منه والمطليّ بالميناء، مثالاً اتخذه الأوروبيون إثر الحرب الصليبية، لصنع الزجاج الملوّن، الذي استعملوه لتزيين كاتدرائياتهم. وكثر الطلب في العصر العباسي، على الآنية الزجاجية، والمزهريات المعدنية من مصنوعات الشام، وأصبحت تعتبر من لوازم المنزل، ومن متمّمات الرفاهية. وكانت مناشر الزجاج، تعلّق في المساجد والقصور، وعليها كتابات بالميناء من مختلف الألوان. وكانت دمشق مركز صناعة واسعة للفسيفساء والقاشاني، وإليها يرحل طالبو هذه الأصناف[3].

والقاشاني اسمٌ يُطلق على نوع من القرميد المصقول، المسدّس الشكل، وقد رسمت عليه صور زهورٍ مألوفة. ويستعمل لتزويق الأبنية والجدران من الداخل والخارج. وعرفت الحياة الاقتصادية العبّاسية، صناعة ورق الكتابة، التي دخلت إليها من الصين، عنْ طريق سمرقند[4].

ويعود للخليفة المعتصم (٢١٨هـ/ ٨٣٣م) فضل إنشاء معامل الصابون والزجاج، في بغداد وسامرّاء. كما يعود إليه الفضل، في تنشيط صناعة الورق. وكان الترف والبذخ المنتشر في قصور الخلفاء، قد شجّع على نشر صياغة الجواهر، وعلى رأسها اللؤلؤ والياقوت الأزرق والأحمر والزمرد والماس. وكانت العامة من الناس، تعتاض عن هذه الجواهر الثمينة بالفيروز والجزع. وممّا يذكر، أنَّ حجراً من الياقوت الأحمر، ذي الحجم الكبير، وصل إلى هارون الرشيد، عن

---

(١) المصدر نفسه ـ ج ٢ ص: ٥٤٨ و ٦٠٣ و ج ١ ص: ٨٨٢.

(٢) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٤١٥.

(٣) الحموي: ياقوت ـ معجم البلدان ـ ج ٤ ـ ص: ٢٩٦ ـ والقاشان اسم مشتق من كاشان، وهي بلدة في العراق العجمي.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ـ ص: ٣٢٦.

طريق ملوك الأكاسرة، فدفع ثمنه أربعين ألف دينار[1] ومما يحكى، أن الخليفة المكتفي (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) خلّف من الجواهر والطيب، ما يقدّر ثمنه بعشرين مليون دينار[2] وقد جرى في وليمة ملكية فخمة أقامها المتوكل (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) وتعد هي وعرس المأمون حادثتين فريدتين لا ثالثة لهما في الإسلام[3] أن استعملت موائد وصوانٍ من الذهب، مرصعة بالجواهر. والخليفة العباسيّ الثالث عشر المعتز، هو أوّل من أحدث الركوب، بحلية الذهب، على سرجٍ يُطلى بماء الذهب[4].

وزيادةً في إبراز مظاهر الترف العباسي، المغرق في البذخ، نعرض للخليفة المقتدر (٣٢٢هـ/ ٩٣٢م) الذي كان نموذجاً للإسراف التزويقي الفاحش، بحيث أنَّ خزائنه كانت ملأى بالجواهر النفيسة التي ينثرها على محضيّاته أبّان نشوته، في مجالس اللهو، ليرقصن ويغنين وهنّ متزّينات بها، ثم يأمر أن تجمع في الصباح لإعادتها إلى مخابئها. وكان يجد لذّةً متناهية الترف في عرضها والتلذّذ بمشاهدتها[5] والذي ساعد المجتمع العبّاسيّ على استعمال هذه الجواهر الثمينة، غنى الامبراطورية العبّاسية بالمعادن. وأهمها: الذهب والفضّة من خراسان، إلى جانب الرخام والزئبق[6] ثم الياقوت واللازورد، وحجر البازهر من وراء النهر[7] والرصاص والفضّة من كرمان، واللؤلؤ من البحرين، والفيروز من نيسابور. والعقيق الأحمر من صنعاء. والحديد من لبنان[8] ومن المعادن الثمينة، الجديرة بالاهتمام، نذكر الرخام المصدّر من تبريز، والصلصال والإثمد (معدن الكحل) من أصبهان، والقير والنفط من بلاد الكرج، والزئبق والزفت والقطران من فرغانة، والكبريت من سوريا وفلسطين. وحجر الفتيلة من وراء النهر[9].

وإلى جانب تنشيط الحركة الصناعية، نشطت الزراعة في كل أرجاء الدولة

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ـ ج ٧ ـ ص: : ٣٧٦.
(٢) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٤١٦.
(٣) الثعالبي: أبو منصور ـ لطائف المعارف ـ نشر دي يونغ (ليدن ١٨٦٧م) ص: ٧٢ ـ ٧٣.
(٤) المسعودي: مروج الذهب ـ ج ٧ ـ ص: ٤٠٢ ـ ٤١١.
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم ـ ص: ٣٢٦.
(٦) ابن الفقيه: كتاب البلدان ـ نشر دي غويه (ليدن ١٨٨٥) ص: ٢٠٦.
(٧) المقدسي: أحسن التقاسيم ـ ص: ٣٤١.
(٨) الأصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ـ مسالك الممالك ـ ط ليون (١٩٢٧) ص: ٣٦٢.
(٩) ابن حوقل: المسالك والممالك ـ نشر دي غويه (ليدن ١٨٧٢م) ص: ٣٦٢.

العباسية، لعلم الخلفاء، أنها تدرّ عليهم أهم موارد الدخل. وقد اعتبر وادي دجلة والفرات، أخصب بقعةٍ في البلاد بعد وادي النيل. وكانت القنوات تشق في وسط وأطراف الأراضي الزراعية، بحيث وفرت مغلولاً كبيراً من الشعير والحنطة والأرز والتمر والسمسم والقطن والقنب، والجوز والبرتقال والباذنجان وقصب السكر والترمس، وأنواع الورد والبنفسج. وقد نافست خراسان العراق ومصر في ميدان الانتاج الزراعي، حتى أن أحدهم وصفها في حضرة المأمون فقال: وهي المملكة بأسرها[1] وبين سمرقند وبخارى، يقع وادي الصغد الكثير الخصب. وتقع بساتين الأبلّة بجناتها الزاهرة، بين البصرة وغوطة دمشق. وكان البطيخ يُحمل إلى المأمون وإلى الواثق (٢٢٨هـ/ ٨٤٢م) في قوالب الرصاص المعبّأة ثلجاً، وتباع البطيخة الواحدة بسبعمائة درهم[2] وفي الساحل الشامي، ظهرت مزارع قصب السكر ومعامل تصفيته، على غرار المعروف فيها في فارس والأهواز. وكانت صناعة استخراج الروائح العطرية، من الورد والزئبق وزهر البرتقال والبنفسج، وأمثالها على غاية الاتقان، في دمشق وشيراز وسواها من المدن. وكان يُحمل إلى خلفاء بغداد من هذا الخراج العطر، ثلاثون ألف قارورة[3] وذكر أن الخليفة المتوكل (٢٣٣هـ/ ٨٤٧م) قد حمى الورد ومنعه عن الناس، وقال: لا يصلح للعامّة. فكان لا يُرى إلاّ في مجلسه. وكان يقول: «أنا ملك السلاطين، والورد ملك الرياحين، وكلٌّ منّا أولى بصاحبه»[4] ولأن العربي كان يأنف من تعاطي الزراعة، فقد تكفّل بها أهل الذمّة من اليهود والنصارى والصابئة، وعمل جميع هؤلاء معاملة أهل الكتاب، فأقاموا في مزارعهم ومنازلهم الريفية. وجاء إلى المدن من اعتنق الإسلام.

وقد أدّى هذا النتاج الضخم، من كل أنواع الصناعة والتجارة والزراعة إلى فرض ضرائب عادت على الدخل العباسي بمردودٍ وفيرٍ من اليسر والغنى؛ أخذ يتضاءَل في عهد الأمين. وسبب ذلك يعود إلى الاضطرابات والفتن التي هزّت الوضع الاقتصادي. وتسّببت في رفع الأسعار التي أثقلت كاهل الفقراء، وأغرقت الموالي في حالةٍ من البؤس، غيّرت وضعهم الاقتصادي الزاهر، الذي كان في

(١) اليعقوبي: أحمد بن إسحاق: كتاب البلدان (ليدن ١٨٨٣م) ج ٢. ص: ٥٥٥.
(٢) الثعالبي: عبد الملك بن محمد ـ لطائف المعارف ـ ص: ١٠٧.
(٣) المصدر نفسه ـ ص: ١٠٩ ـ ١١٠.
(٤) السيوطي: جلال الدين ـ تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ـ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة القاهرة ـ مصر ـ ط ١ (١٩٥٢) ج ٢ ـ ص: ٢٣٦.

العهود العبّاسية الأولى، التي شهدت الكثير من التقدم والازدهار[١] وهناك سبب آخر أوصل الدولة إلى ما آلت إليه، وهو إغراق الخلفاء، في الإنفاق المؤدّي إلى التبذير المسرف في الخيال، والبذل إلى حدود إعطاء من نال الإعجاب، من شاعرٍ أو نديم أو محدِّث، إذناً يأخذ بموجبه ما يطيب له من بيت المال، وما يحسّن وضعه المعيشي والاجتماعي[٢].

وهذا الإسراف البعيد عن كل دراسةٍ ماليةٍ صحيحة؛ وتلك اللامبالاة في تصريف شؤون الدولة، وإكثار الانفاق على ما أعطي ولم ينفذ في مرافق الدولة، وداخل البلاط؛ أدّى إلى حالةٍ اقتصادية متردّية، لقي السكان منها، أشدَّ العنف والإجهاد والضنك. وكان لا بد للأسعار من أن ترتفع، إزاء تلك الفوضى الضاربة عرض الحائط، بحاجات الشعب الفقير المعدم، والمؤدية فيما بعد، إلى اضطراب اجتماعيٍّ سيء العواقب على مركز الخليفة والرعية في آن. والشاهد على ذلك، قصائد شعراء تلك الحقبة، وبما تفيض به، من مكنون الألم الجارح الدفين[٣].

الحياة الثقافية

في نظرةٍ شاملة على واقع العصر العباسي، في مجمل الثقافة الشائعة، والمنتشر وهجها في المناظرات والمحاورات الأدبيّة، نجد وجود طبقةٍ من الرجال المعروفين بواسع العلم، وعمق الإدراك، في بلاط الخلفاء. أمّا الوعي الثقافي الشائع بين العامّة من الناس، فلا نستطيع تحديده. ودلّت المكاشفات، والتنقيبات داخل ما خفي، أن العرب كانوا على وعي ملتزم، بنشر حضارةٍ عربيةٍ واسعةٍ، بفضل انتاجهم وابتكارهم، إلى جانب قيامهم باقتباس تراث الهند والفرس واليونان؛ وتحويل التراثين العربي والإسلامي، لحاجاتهم الخاصة، وطرق تفكيرهم، وأضافوا إليها ما استطاعوا أن يستنبطوه، ويجعلوه خلقاً مبدع الدلائل.

وكان لهم باع طويل الأثر في شتى العلوم المميّزة كالطب والفلسفة. وظهر نبوغهم بنوع خاص، في الكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافيا. وزيادةً في التفوق والنبوغ، عمدوا إلى ما يساعدهم للوصول إلى الابتكار، في ميادين

---

(١) زيدان: جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي - دار الهلال (١٩٥٨) ج ١ - ص: ١٧٩.

(٢) حتي: فيليب - تاريخ العرب - ص: ٤١٠ - ٤١٣.

(٣) الطبري: محمد جرير - تاريخ الطبري - ج ١ - ص: ١٨٥.

الشريعة وعلوم الدين، وفقه اللغة المساعد على استنباط الأحكام بأصولها ومدلولاتها الدينيّة الصحيحة[1].

وما يتعلق بالترجمات التي قاموا بها، فقد طبعتها العقلية العربية، بطابعها الخاص، في الأجيال اللاحقة. ثم اتصلت بأوروبا مع ما اتصل من مبتكراتهم ومعطياتهم العلميّة، سالكةً طريق سورية واسبانيا وصقليّة.

ومما يجدر الإشارة إليه، هو أن حركة النقل في تاريخ الثقافة، لا تقل أهميةً وخطراً عن حركة الإبتكار نفسها. فلو أن أبحاث أرسطو وجالينوس وبطليموس فقدت، لكان العالم في افتقاره إليها بالوضع نفسه، لو أنها لم تكن أصلاً في عالم الوجود[2]. ونحن، وإن كنّا نجد طبيعة البحث، تفرض علينا إظهار الثقافات الإسلامية غير العربية، التي تأثّرت بها لغتنا الأُم؛ فإننا نجد أنفسنا جنباً إلى جنب، مع الثقافة الهندية، التي بدأت تدخل شيئاً فشيئاً إلى المجتمع الإسلامي، وتوجّهاته الدينية، بما لا يتعارض وأصول الشريعة وأحكامها. فهناك الهند وما لها من سمعةٍ عند قدماء العرب، مجلّلةٍ بوهج البريق الأخّاذ. إذ أنهم كانوا يعدونها، إحدى الأمم الأربع ذات الصفات الممتازة، وهي الفرس والهند والصين والروم[3]. وقد تبارى المؤرخون، في ذكر فضائل الهند، وجعلوا لها على صفحات كتبهم من الاهتمام، ما هي جديرة به. ونلاحظ وجود مؤلفين هنود، مثل ابن الأَعرابي أُستاذ ثعلب، وابن السكيت مؤلف كتاب أسماء البشر وصفاتها، وكتاب أسماء الخيل وأنسابها، والهنود الذين هم من أصل سندي، واحتلوا في البصرة مراكز الحساب والصيرفة وما ينتمي لذلك[4]. ونطالع في أمهات الأبحاث الوثيقة المصادر، أن ثقافة الهند قد نُقلت إلى العرب ـ أول الأَمر ـ عن طريق علماء الفرس. ولم يلبث بعد فترةٍ من الزمن، أن كتب البيروني (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) كتابه المشهور تحقيق ما للهند من مقولة[5]. وقد سبق البيروني، تفاعل حضاري، في مختلف العلوم والفنون، قد أخذ دوره، في محيط الحضارة

(١) الطبري: محمد جرير ـ تاريخ الطبري ـ ج ١ ـ ص: ١٨٧.
(٢) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٤٣١.
(٣) الشكعة: مصطفى ـ معالم الحضارة الإسلامية ـ ص: ١٢٨.
(٤) المرجع نفسه: ص: ١٣٧.
(٥) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٣٤٧.

الإسلامية، من واقع تأثرات النماذج والمخالطة. فحوالي سنة (١٥٤هـ/ ١٧٧١م) قدم رحالة هندي إلى بغداد، ومعه رسالة في الفلك تدعى سدذانتا (في العربية السندهند). وتمت ترجمتها بأمر المنصور، على يد محمد بن إبراهيم الفزاري المتوفي بين (٧٧٦م) و (٨٠٦م) وبذلك أخذ السبق، وأصبح أوّل فلكي في الإسلام[١]. وأول من استقدم أطباء من الهند، يحيى البرمكي (٢٣٦هـ/ ٨٥٠م)[٢] وقد دخلت في العربية، ألفاظ هندية كثيرة، أصبحت الآن كاملة التعريب[٣] وإن وسائل اللهو التي انتشرت في الأوساط المنفتحة، وعلى رأسها الشطرنج جاءت من الهند[٤] وإذا كان الإسلام قد حارب وسائل اللهو، فإنه شجع علم الفلك كوسيلة لتعيين جهة القبلة. ثم جاء الخوارزمي (٢٣٦هـ/ ٨٥٠م) العالم الشهير، فوضع قوائمه الفلكية المعروفة بالزيج، استناداً إلى مصنّف الفزاري، فجمع غاية ما بلغته أُصول الفلك، عند أهل الهند والإغريق وزاد عيها أُموراً جديدة. ومن جملة الترجمات الفلكية الأُخرى التي تمت في هذا العصر، تلك التي نقلها من الفارسية إلى العربية الفضل بن توبخت الفارسي (٢٠٠هـ/ ٨١٥م) أمين خزانة الحكمة لهارون الرشيد[٥]. وإلى الرحالة الهندي المذكور آنفاً، يعود الفضل في إتحاف العالم الإسلامي، برسالة في الرياضيات، تطرقت بواسطتها الأرقام إلى أوروبا؛ تلك التي يسميها الأوروبيون عربية، ويسميها العرب هندية. وفي أواخر القرن التاسع الميلادي، أتحف الهنود علم الرياضيات العربي بخدمة أُخرى، هي نظام الكسور العشرية[٦].

وإلى جانب الثقافة الهندية، كانت هناك الثقافة الفارسية، التي كان يجيدها

---

(١) ابن أحمد: صاعد والقاضي الأندلسي ـ طبقات الأمم: نشر شيخو (بيروت ١٩١٢) ص: ٤٩. يقول الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه: معالم الحضارة الإسلامية ـ ص: ١٣٠. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن الذي عرّب «السدهانتا» هو محمود بن مرسى الخوارزمي، الذي قام بهذا العمل بطلب من المأمون. والواقع أن المعرّب الحقيقي هو الفزاري. أمّا الخوارزمي، فقد قام بتصحيحه.

(٢) ومن الأطباء الذي جلبهم: «منكة» و «بازيكر» و «قلبرقل» و «سندباد».

(٣) من هذه الألفاظ الغريبة: أبنوس، ببغاء، خيزران، فلفل، إهليلج.

(٤) وإلى جانب الألفاظ التي ذكرنا، هناك القصص الهندي الواضح الأثر في بعض الأعمال العربية مثل: كليلة ودمنة والسندباد. فلاً عن الحِكَم مثلاً: «شر المال ما لا ينفق» و «شر الإخوان الخاذل» و «شر السلطان من خافه البريء».

(٥) الشكعة: مصطفى ـ معالم الحضارة الإسلامية ـ ص: ١٣١.

(٦) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٣٧٥.

أصحاب اللسانين (العربي الفارسي)، وقد وجد بعض الفرس الذين تحمّسوا للغة العربية بعد أن تعرّبوا، مثل: ابن جرير الطبري، وأبي بكر الخوارزمي. وكان من الطبيعي، أن تنشط حركة الترجمة.

وأقدم الكتب المترجمة عن (البهلوية ـ الفارسية الوسطى) كليلة ودمنة، الذي نقله عبد الله بن المقفع (٢٦٢هـ/ ٨٧٥م) إلى العربية وقد اكتسب النثر العربي، منذ العصر العبّاسي، مسحة الأُسلوب الفارسيّ، بما فيه من الإِسراف في التأنق والمجاز، والبديع اللفظي[١].

وكان الأَسلوب العربي القديم يمتاز بالرشاقة والإِيجاز، ولكنه لم يطل عليه العهد، حتى أخذت هذه المميزات تزول، ويحلّ محلّها الصفات المألوفة في الأُسلوب الفارسي، من تزويق وصقل وترصيع. وقد حفلت كتب الأدب العربي بأسس شيدت على الطريقة الفارسية[٢] وقد استدعى الخليفة المنصور طبيباً نسطورياً، اسمه جورجيس بن بختيوشع (١٥٥هـ/ ٧٧١م) وكان هذا عميد الأَطباء في بيمارستان جنديسابور، التي أسسها سنة (٥٥٥م) أنوشروان الكبير. فاشتهرت بعلوم الطب والفلسفة وكان ابن جورجيس المعروف باسم بختيشوع (١٨٥هـ/ ٨٠١م) رئيس الأطباء في بيمارستان بغداد في عهد الرشيد. وابنه المعروف بجبريل بن بختيشوع بعده، طبيب الخليفة الخاص في سنة (١٩٠هـ/ ٨٠٥م)[٣]. وممّا لا شك فيه، أن الأُدباء والكتّاب المتأخرين في القرنين الثالث والرابع الهجريين، قد تأثروا في كتابتهم، ببعض الأفكار الفارسية، المستمدة من الكتب المترجمة، وإن كان ذلك لا يُنال من أصالة عروبة الكتابة في ظل النطاق الإِسلامي، كون الكتابة العربية، ثمرة إسلامية خالصة، نشأت وترعرعت ونمت من منطق إسلامي محض، ثم دخلت عليها ألوان من التحسين، وأشكال من التطوير، بعد الامتزاج العربي الفارسي، وما صحبه من فنيّة الإبداع[٤].

وفي نطاق السماحة العقلية والفكرية، لا ننكر بأَنَّ المسلمين، قد استفادوا من علوم اليونان، في الفلسفة والمنطق والطب والفلك والرياضة. وقد بلغ التأثير اليوناني أوجه في عهد المأمون، بسبب ما كان لهذا الخليفة من نزعة عقلية، ومن

---

(١) ابن النديم: الفهرست ـ ص: ٢٧٤.

(٢) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٣٧٦.

(٣) ابن أبي أُصيبعه: عيون الأنباء ـ ج ١ ص: ١٢٥.

(٤) الشكعة: مصطفى ـ معالم الحضارة الإسلامية ـ ص: ١٣٧.

ميل إلى مذهب المعتزلة. وقد نقل «تاوفيل» بن توما الرهاوي الماروني (١٦٩هـ/ ٧٨٥م) وهو منجم هندي بعض الألياذة لهوميروس إلى العربية[١]. أما الفتح الفكري الذي تمّ لليونانية، فقد بدأت طلائعه في الطب الذي وضع أُصوله جالينوس (٢٠٠م) وبولس الأجانيطي (٣٠هـ/ ٦٥٠م) وفي علوم الرياضيات وما شاكلها، التي حمل لواءها أقليدس (٣٠٠ق .م) وبطليموس، زهاء الشطر الأول من القرن الثاني للميلاد[٢] ومن المترجمين عن اليونانية، أبو يحيى البطريق المتوفي بين (٧٩٦ و ٨٠٦م) وقد قيل: إنّه ترجم لجالينوس وأبقراط (٤٣٦ق .م) وأغنى العصر العباسي بكلّ نادرٍ وثمين[٣].

وما دمنا في صميم هذه النوعية النادرة، يجدر بنا أن نذكر بين النقلة الأولين يوحنا (يحيى) ابن ماسويه (٢٦٢هـ/ ٨٧٥م). أمّا شيخ المترجمين فهو حنين بن إسحاق (٣٦٠هـ/ ٨٧٣م). وكان يُدفع له ومن معه من النقلة، نحو خمسمائة دينار في الشهر[٤].

ومن الشائع في كتب التراجم، ما يُنسب إلى ثابت بن قرّة (٢٨٩هـ/ ٩٠١م) وتلاميذه من صائبة حرّان الوثنيين، نقل القسم الأكبر من كتب اليونان في الرياضيات والفلك.

ولا ننسى في هذا المضمار الشيّق السرد، ما نقل من مؤلفات أرخميدس (٢١٢ق .م) وأبلونيوس المولود سنة (٢٦٢ق .م). ولقد وجد ثابت من الخليفة المعتضد (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) رعاية كبيرة[٥] وتولّى أعمال ثابت من بعده، ابنه سنان بن قرّة (٣٣٢هـ/ ٩٤٣م) وخفيداه ثابت (٣٦٣هـ/ ٩٧٣م) وإبراهيم (٣٣٥هـ/ ٩٤٦م). وكان أعظم من نشأ بعد ثابت من الصائبة، السيّافي (٣١٧هـ/ ٩٢٩م) أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان. ويدل أسمه على أنّه دخل الإسلام. وقد شهد القسم الأخير من القرن العاشر الميلادي، ظهور جماعة من المترجمين اليعاقبة، منهم يحيى بن عدي (٣٦٤هـ/ ٩٧٤م) الذائع الصيت[٦]. ولا يغيب عن بالنا «أرسطو» الذي لم تلبث مؤلفاته في علم البيان

---

(١) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٣٧٩.
(٢) ابن أبي أُصيبعه: عيون الأنباء ـ ج ١ ص: ١٨٨.
(٣) ابن النديم: الفهرست ـ ص: ٢٦٧.
(٤) حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ ص: ٣٨٠.
(٥) المسعودي: مروج الذهب ـ ج ٨ ـ ص: ٢٩١.
(٦) المرجع نفسه: ص: ٢٩٢.

والمنطق وعلم الشعر، وكتاب الأيساغوجي لبرفيروس، أن احتلت مكانها، إلى جانب النحو والصرف في اللغة العربية.

ويبيِّن لنا من السرد المتقدم، بعض جوانب العصر الذهبي، الذي أطلع هارون الرشيد، وابنه المأمون فيه الشرق، على خبايا الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية، وما تحوي من غنىً وثروة علمية[1] وليس من شك، أن عنوان الابتكارات العقلية، وحصيلة الاستنباط الفكري الخلاّق، ونتاج الترجمات وشيوعها، أغنت معين الفيض العلمي في العصر العبّاسي، بروافد جعلت الفيض زاخر بكل ما يعزّر التراث العربي ويُعلي شأنه[2] ولا عجاب بعد هذا، أن يُنبت ذلك العصر المتقدم أمثال شاعرنا أبي فراس الحمداني، الذي ارتقى إلى شهرة الشعر والثقافة المترامية المعرفة.

(١) ابن الطقطقي: محمد بن علي بن محمد الفخري في الآداب السلطانية ـ باريس (١٨٩٥م) ص: ٤٢٨.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ـ ج ٨ ـ ص: ٢٩٥.

الفصل الثاني

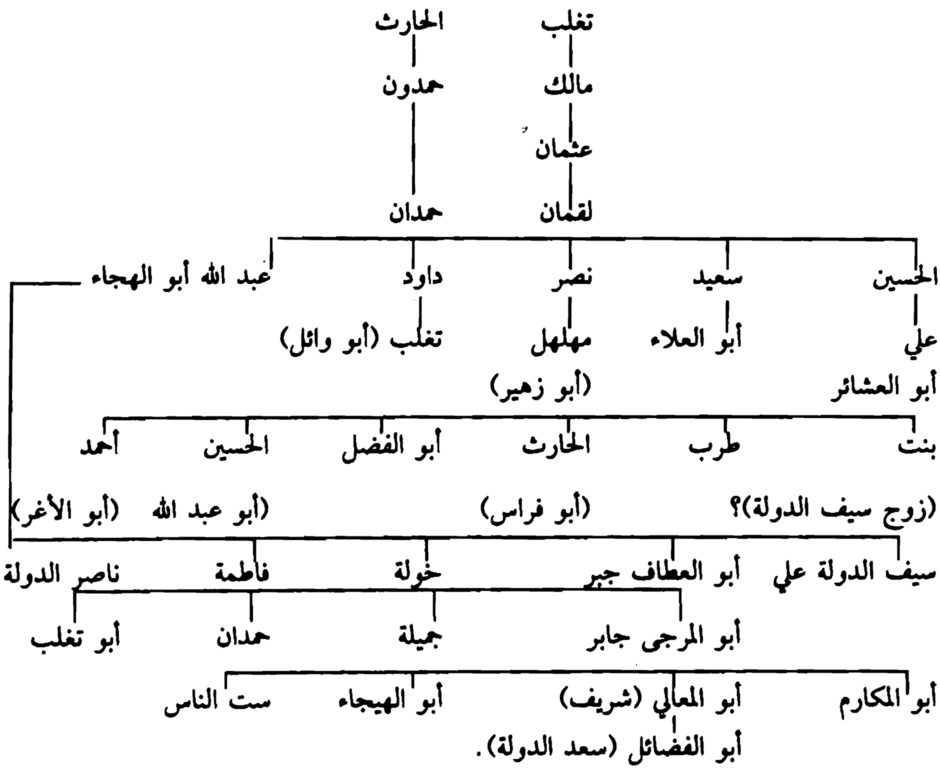
أبو فراس الهمداني

- ولادته
- نشأته
- شخصيته
- في بلاط سيف الدولة
- الفروسية وبطولات حروبه مع الروم
- وقوعه في الأسر وأعجوبة فراره
- العودة إلى الأسر وقصة الفداء
- توليته لحمص وصراعه مع أبي المعالي
- وفاته
- آثاره

أبو فراس الحمداني

ولادته:

من أسرة عريقةٍ لها طابعها المميز، وتحتل مكانةً مرموقة في السعة والرفعة، ولد الحارث بن سعيد بن حمدان المعروف بأبي فراس سنة (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م). وقد شهدت ولادته فرحةً تعج بتوافد المهنئين على والده سعيد، يقدمون له واجب التكريم بالقادم الكريم. وإذا كان الأب ينتسب إلى التخطيط الماثل أمامنا بشكله التالي:



فإنه يعود في جذوره إلى أنّه في الجزء الشمالي من بلاد العراق، بين الفرات ودجلة، وعلى تخوم الشام، في منبج والرصافة وقنسري ودمشق، كانت تعيش قبيلة عربية عتيّة، عرفت في جميع أدوار تاريخها بالقوة والبسالة والأنفة، هي قبيلة تغلب، التي قيل فيها «لو أبطأ الإسلام قليلاً لأكلت بنو تغلب الناس»[(١)].

ويطالعنا الباحثون بدراسات غنيّة بمآثر هذه القبيلة، الحافلة ببطولات متعددة، وحروباً عظيمة، خاضتها وخرجت منها مرفوعة الرأس بنصرٍ مؤيد. ومن تلك الحروب التي انتصرت فيها، حرب البسوس في الجاهلية. كما كانت لها مشاركات في حروب إسلامية، وأخرى جرت في زمن الدولة الأُموية. وإلى هذه القبيلة يعود نسب والد أبي فراس الحمداني، كما يظهر ذلك الجدول الذي قدمناه آنفاً.

وكان والد أبي فراس الحمداني، يحرص على التمسك بمآثر قبيلته، في حفظ مكانته العالية بين الناس، في التمسك بالفضائل العربية الأصيلة، من كرم إلى نجدة، إلى أباء، إلى شجاعة وأدب وسماحة في الأخلاق، ولينٍ في العريكة؛ وصدقٍ في المعاملة، وحفاظٍ على الشرف. وفي ذلك يقول صاحب يتيمة الدهر: «وكان بنو حمدان ملوكاً وأمراء، أوجههم الصباحة، وألسنتهم الفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم إلى الرجاحة»[(٢)].

أمّا أُمّه فكانت من الذخائر النسائية الحافلة بالكرم والطيبة وطهارة النفس. ويبدو من شعر ولدها بأنها رومية الأصل، كما في البيت التالي:

إذا خفْتُ من أَخواليَ الرُّوم مَرّةً   تخوَّفْتُ من أعمامي العرب أَرْبَعا

بيد أنه يقول في هذين البيتين:

لم تتفرّقْ بنا خؤولُ   في جَذْم عزٍّ ولا عمومُ[(٣)]
سَمَتْ بِنَا وائلٌ وَفَازَتْ   بالعزِّ أُخوالُنا تميمُ

ونجدنا أمام معضلةٍ يصعب التوافق فيها بين قولٍ ينبىء بأن الروم هم أخوال الشاعر؛ وآخر يجعل أخواله عرباً من بني تميم؟ يرجح لدينا أن يكون أحد القولين

---

(١) البستاني: بطرس ـ دائرة المعارف ص: ٣٢٤.
(٢) الثعالبي: عبد الملك بن محمد ـ يتيمة الدهر ـ ج ١ ـ ص: ١٦.
(٣) الجَذَم والجِذم: منبت الشيء وأصله.

منحولاً، أو أن يكون الشاعر قد ناقض نفسه لجهلٍ أو تمويهٍ، وهذا ليس بمعقول. ويصل بنا التعليل إلى القول بأن تميماً هم أخوال الشاعر - وهو الأرجح - أو أن تكون إحدى جداته لأمة أو لأبيه رومية ومهما يكن من أمر، فإن ولادة شاعرنا أبي فراس، كانت عربية الشخصية، ولم يكن للدماء الرومية أيُّ أثرٍ فيها[1].

نشأته:

نشأ أبو فراس نشأةً عربية صميمة، غذتها أصالة المحقد الذي يتمتع بها والده زعيم العشيرة وبطلها.

فقد تمكن من تثبيت صلة وثيقةٍ بالخليفة المقتدر حيث يحارب في صفّه، ويعينه على إخماد الثورات الكثيرة، التي تثبت ضده حيناً بعد حين. وزيادة على ما تقدم فهو صاحب غزوات في بلاد الروم. كما يستدل من شعر أبي فراس، وخاصةً في قصيدته الرائية المطوّلة، التي تحدث فيها عن أمجاد قبيلته الخالدة، رداً على شاعر يدعى أحمد بن ورفاء، مدح سيف الدولة بقصيدةٍ، ذكر فيها مآثر بكر وتغلب في الجاهلية والإسلام، مفاخراً المضريين، ومباهلاً عليهم بما يُعلي قدره[2] وقصائده في هذا المضمار كثيرة، منها قوله بعد أن انتصر على قوم يدعون بني عقيل، في مكان يُسمّى «سَرْحاً» وراء نجد، في أبياتٍ ناضحةٍ بالقوة والجزالة:

يَا لَيْتَهَا تَسْأَلُ عَنْ مَوْطِىءٍ	بِأَرْضِ سَرْحٍ والقَنَا شُرَّعُ[3]
وَعَنْ عَقِيلٍ إذْ صَبَحْنَاهُمُ	وَقَدْ تَلاقَى الحَشْدُ والدُّرَّعُ[4]
وَقَدْ أَتَانَا مِنْهُمُ فَيْلَقٌ	حَمَاهُ حَامٍ مَا لَهُ مَدْفَعُ[5]
حَتَّى إِذَا مَا كَشَّرَتْ نَابَهَا	وَعِيفَ كَأْسُ المَوْتِ لاَ يُكْرَعُ[6]
وَفُلِّقَتْ هَامُ أُسودِ الوَغَى	وَقُطِّعَ الأَسْوُقُ والأَذْرُعُ[7]

(١) أبو حاقة: أحمد - أبو فراس الحمداني - أعلام الفكر العربي - منشورات دار الشرق الجديد - ط ١ (١٩٦٠) ص: ٢٩.

(٢) أمين: أحمد - ظهور الإسلام - القاهرة (١٩٥٦) ج ١ - ص: ١٨٠.

(٣) القنا الشرّع: الرماح المسدّدة المصوّبة إلى الخصم.

(٤) الدرّع: لابسو الدرع.

(٥) الفيلق: الجيش العظيم.

(٦) عاف الشيء: كرهه.

(٧) الأسوق: جمع ساقٍ.

شَـدَدْتُ فـيـهـم شَـدَّ ذِي صَـوْلَـةٍ   قَـدْ جَـرَّبَـتْـهُ الـحَـرْبُ لاَ يُـخْـدَعُ
لاَ تَـزْجُـرَنّـي عَـنْ طِـلابِ الـعُـلا   فـلا يَـنَـالُ الـعِـزَّ مَـنْ يَـفْـزَعُ
أَنـا سـعـيـدٌ وأبـي أَحْـمَـدٌ   بـالـسَّـيْـفِ ضُـرِّي وَبِـهِ أَنْـفَـعُ

ومن هذا الشعر، تبدو لنا نشأةُ أبي فراس، في ظلِّ شاعريةٍ أبوية، ذات شهرةٍ واسعة، أخذ منها الكثير من الأصالة والإبداع. ولم يكن أبو فراس، الإبن الوحيد لأبي العلاء، سعيد ابن حمدان، بل كان له إخوة نذكر منهم الحسين، وأبا الهيجاء. وكان له أُختان، تزوّج إحداهما سيف الدولة، وتزوج الثانية أبو العشائر. بيد أَنَّ أبا فراس، هو الابن الوحيد لأُمّه. لم تعقب غيره من البنين ومن البنات، ولم يكن لها من مَعُوْل سواه. وقد وقفت عمرها على تربيته، فلم تتزوّج بعد مقتل أبيه، بل احتضنته، وصرفت حنانها وحبّها إليه وحده، وأصبح أنيسها في الوحشة، وعزاءَها في الأحزان، وأملها في الحياة. وشاء القدر، أن تكون نشأة أبي فراس الأولى في ظل اليتم المبكر. ذلك أنَّ الخليفة المقتدر، ولّى أبا الهيجاء الحمداني على الموصل. وأبو الهيجاء، هو أخو سعيد بن حمدان، والد أبي فراس. فلما مات أبو الهيجاء، أثناء دفاعه عن الخليفة، أراد هذا أن يحفظ الجميل للأمير القتيل، فأقرَّ ابنه ناصر الدولة على الموصل مكانه فعمد هذا الأخير، إلى ضرب سلطة الخليفة عرض الحائط، واستقلَّ بولايته تمام الاستقلال، ولم يعد يحسب أيَّ حسابٍ لسلطة الخلافة[1]. وحين تسلَّم الراضي الخلافة بعد موت المقتدر، وحاول أن يُخضع ناصر الدولة لحكمه، فلم يستقم له ذلك الأمر، فبحث عن ندٍّ يقف في وجه الأمير الحمداني، فوجده في شخص سعيد بن حمدان، عمِّ ناصر الدولة، ووالد أبي فراس. وعمد إلى توليته أمارة الموصل، وأغراه بأن يطرد منها ابن أخيه، الذي كان قد أعدَّ للأمر عدته، للوقوف في وجه عمّه ومجابهته. وبعد أن أحكم المقاومة في وجه سعيد، دبَّر له ميكدةً قضت عليه قتلاً. بيد أنه أشفق على ولده أبي فراس، وأحاطه بعنايةٍ خاصةٍ تعوض عليه فقد أبيه، فلا يعيش في كنف اليتم وما ينشره من عزلةٍ وحرمان[2]. وقد نقله إلى بلاطه، وحاول أن يحسِّن علاقته بينه وبين قاتل أبيه، ناصر الدولة، وتوفير تربيةٍ صالحة، تحيطه بالتدريب في ميادين الرجولة، وتقرّبه منه، ليكون هو وأمثاله الركيزة المتينة لبناء الدولة. وقد توفّر لسيف الدولة ما رمى إليه، فنشأ أبو

(١) بروكلمان: كارل ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ـ ج ٢ ـ ص: ٩٥.

(٢) أمين: أحمد ـ ظهور الإسلام ـ ج ٢ ـ ص: ١٤٠.

فراس مقداماً، غير هيّاب للشدائد، عارفاً بأُصول الحرب والطعان، قادراً على قيادة الجيوش، وهو طريّ العود، حديث السن، في ميعة الحداثة وهكذا نشأ أبو فراس على ثقافةٍ واسعة، تتناول اللغة والأدب، والتاريخ والشعر والفلسفة وما شابه. وإلى جانب التنشئة القوية الشكيمة، حظي أبو فراس، بتنشئةٍ شاعريةٍ ورثها من قبيلته الحمدانية، ونمّاها بمخالطة الشعراء الكثر، الذين كانوا يتردّدون على بلاط سيف الدولة. وحين توسّم أمير البلاط الحمداني بابن عمّه سمات النجابة، وأراد أن يفتح أمامه طريق المجد، أسند إليه أمارة «منبج» و «حرّان» وهو لا يزال فتىً، في السادسة عشرة من عمره[(١)].

وكانت هذه الأمارة، تفرض على صاحبها مهمة شاقّة جداً؟ فهي أخطر ثغرٍ من ثغور الدولة الحمدانية، وهي أسهل طريقٍ ينفذ منه البيزنطيون إلى بلاد الشام. ولهذا لم يكن منتظراً منه أن ينصرف إلى نعيم الدنيا وملذاتها، بل التوجّه ناحية الرجولة القويّة الشكيمة، الدافعة به إلى مصاف الأبطال الفطام. وهكذا لم ينشأ في الظلّ، بل انصرف إلى جليل المهمات، الدافعة به لاضطلاع المهام الشديدة المراس. فشبّ وهو ساهر على شؤون ولايته، أمام أطماعٍ شديدة، كان يبيّتها الروم في نفوسهم، وكانوا يستعدون لتحقيقها يوماً بعد يوم، فيجمعون الجيوش، ويرابطون على الحدود. وكانت تتقدم منهم كتائب تستطلع الأخبار، أو تتحرش بجنود القائد البطل أبي فراس[(٢)].

وكان سيف الدولة، يمتلىء فخراً واعتزازاً، وهو يرى ابن عمه يتفانى في الذود عن ملك بني حمدان، ويحمي ذمار ولايته ويصدّ الحملات البيزنطية بمهارة وشجاعة لا حدود لها. ولم يكتفِ أبو فراس بصدّ هجمات الروم فقط؛ بل وقف في وجه قوم على الحدود الجنوبية الشرقية من دولة سيف الدولة، يضمرون لهذا الأخير البغض والكراهية، ويتحيّنون الفرص ليثوروا عليه، وينتزعوا سلطته. وهؤلاء هم القرامطة، الذين بثوا دعوتهم في صفوف البدو، الضاربين ببادية الشام، وخصوصاً في قبيلتي كلب ونمير. وقد وقف أبو فراس يصدّهم، ويمنعهم من التقدم ناحية حدود الدولة الحمدانية، وسميّت في دحرهم مهزومين، يلقون الفروسية الواقفة سداً منيعاً في طريق تقدمهم[(٣)].

---

(١) أبو حاقة: أحمد: أبو فراس الحمداني ـ ص: ٣٢.
(٢) المرجع نفسه ـ ص: ٣٤.
(٣) نمر: حنّا ـ أبو فراس الحمداني ـ ص: ٣٥.

وليس بغريبٍ بعد هذا، أن نلمح في نشأة أبي فراس، داخل الأمارة الحمدانية، ألواناً من البطولة المبكرّة، تظلّلها شاعرية فتيّة، لن تلبث حتى تقصّد القصائد القويّة السبك، العميقة المعنى، وتشتهر في محيطها ذائعة الصّيت. وهكذا وجد نفسه جديراً بالمهمّة التي أُسندت إليه، ولم يتوانَ عمّا يعزّز مركزه، ويدفعه في طريق الكفاح الطويل النضال في عالم الفروسيّة.

ولا نغالي في قولنا، بأن نشأة أبي فراس علت، وطال باعها، ساحقة الشجاعة، لا تبالي بالمخاطر، بل تتوسل كل نضال بدعم أمارة بني حمدان، ويعزّز مكانتها العربيّة[1].

شخصيته:

لا نغالي في قولنا، بأنّ شخيصة أبي فراس، فريدةٌ مميّزةٌ بمظاهر جليّة الوضوح نابعةٌ من ذاتيةٍ تملك زمام المبادرة، في تسيير النوعية الإنسانية، ناحية المجد والعظمة. وبنظرةٍ سريعة، إلى ما امتاز به شاعرنا، نلمح أنه يوحي بالإحترام والتقدير. وإذا نطقنا بكلمة فارس، نجد مدلولها في شخصية هذا الرجل المقدام، وسط عصره المليء بمفهوم الشهامة والمروءَة، وطابع الوفاء والعفّة والشرف والذود عن العرض، والتحلّي بالحلم والكرم والشجاعة. وقد تمكن شاعرنا من احتواء هذه المزايا في أمارة شخصيته الفذّة، ويضيف إليها الترفّع عن الدنايا، واحتقار المال، وتقديم معونته لكل محتاج[2].

وشخصية أبي فراس، تتجلبب بشمائل الفرسان المثاليين، الحاملين في حرارة دمائهم الدافقة بالرجولة، أشرف النسب وأمجده. كيف لا وهو قائد من قوّاد سيف الدولة المملوء بالمروءَة، المغرم بكريم الصفات البعيد عن كل ما يعيبه، والساعي إلى تحقيق شيءٍ عظيم في حياته، حتّى لو كان هذا التحقيق، لا يُنال إلاّ بشجاعةٍ تصل إلى الشهوّد كما في قوله[3]:

وقال أُصيحابي: الفرارُ أو الرّدى	فقلتُ: هُمَا أَمْران، أَحلاهُما مُرُّ
ولكنني أَمْضي لِمَا لا يُعيبني	وَحَسْبُكَ مِنْ أَمْرَيْن خيرُهُما الأَسْرُ
يقولون لي: بِعْتُ السّلامةَ بالرّدى	فقلت: أمَا واللّهِ، ما نالني خُسْرُ

(١) نمر: حنا ـ أبو فراس الحمداني ـ ص: ٣٧.

(٢) الفاخوري: حنا ـ تاريخ الأدب العربي ـ ص: ٦٧٤.

(٣) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ من قصيدة: أراك عصي الدمع ـ ٧١.

وَهَلْ يَتَجَافَى عَنّي المَوْتُ سَاعةً ... إِذَا ما تجافى عنّيَ الأَسْرُ والضّرُّ
هُوَ الموتُ، فاختره ما علالكَ ذكرُهُ ... فلم يُمت الإنسانُ ماجيَ الذكرُ

وشخصيته الوفيّة لأصحابه، لا تغدر بأعدائه إذا قطع عهداً على نفسه. ومشهورٌ عنه أنه لا ينكث بعهدٍ ولا يغدر. والحفاظ على الأخوّة من صميم الاعتداد بالرجولة عنده، فكم من مرّةٍ راودته النفس أن ينصرف عن ردّ بعض الأصدقاء لإساءةٍ قد أتاها، ولكنه عاد عن ذلك لأنه ضنين بالإخاء الذي يتمثّل في قوله:

وإنّي لأَنوي هَجْرَهُ فَيَرُدُّني ... هَوَىً بَيْنَ أَثْنَاءِ الضُّلُوعِ دَفِيْنُ
فَيَغْلُظُ قَلْبِي ساعةً ثُمّ أَنْثَنِي ... وَأَقْسُو عَلَيْهِ تارَةً وَأَلِيْنُ
وَقَدْ كانَ لِيْ عن وُدّهِ كُلُّ مَذْهَبٍ ... وَلَكِنَّ مِثْلِيْ بالإخاءِ ضَنِيْنُ

وتمتعت شخصية أبي فراس بمظاهر الشمائل الإنسانية النادرة الصفات، المعبّرة عن قيم الأصالة العربية، المدافعة عن المقهور المسحوق تحت وطأة الظلم، أو الملهوف للذود عن الشرف، أو ردّ مسيءٍ يريد ثلمة لعرض. وتتمثل هذه القيم في قوله[1]:

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ سَرَواتِ قَوْمي ... وسَيْفَ الدَّوْلَةِ المَلِكَ الهُمَاما[2]
بأنّي لم أَدَعْ فَتَيَاتِ قَوْمي ... إذا حَدَّثْنَ جَمْجَمْنَ الكَلاما[3]
شَرِبْتُ ثَناءَهُنَّ بِبَذْلِ نَفْسِي ... وَنَارُ الحَرْبِ تَضْطَرِمُ اضْطِراما
وَلَمَّا لَمْ أَجِدْ إلاّ فِراراً ... أَشَدَّ مِنَ المَنِيَّةِ أَوْ حِمَاما[4]
حَمَلْتُ، على وُرُودِ المَوْتِ، نَفْسِي ... وَقُلْتُ لِعُصْبَتِي: مُوتُوا كِرَاما
وَعُذْتُ بِصارِمٍ، وَيَدٍ، وَقَلْبٍ ... حَمَانِي أَنْ أُلامَ، وَأَنْ أُضاما[5]
وَلَمْ أَبْذِل، لِخَوْفِهِمُ مِجَنّاً ... وَلَمْ أَلْبِسْ، حِذارَ المَوْتِ لأمَا[6]

ولا يغيب عن بالنا ما في هذه الأبيات، من ذاتيةٍ تعلو بالشمم والإباء، وتشرئب بعصامية الجذور المتكاملة العطاء، لتكون درع الذود عن كلّ مستغيث

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ من قصيدةٍ في مدح سيف الدولة ـ ص: ١٨٢.
(٢) سروات قومي: أعلاهم مقاماً ـ الهمام: الشجاع، صفة الأسد.
(٣) جمجمن: لم يفصحن في كلامهن.
(٤) الحمام: الموت.
(٥) الصارم: السيف ـ أضام: أذلّ وأقهر.
(٦) المجن: الترس ـ اللام: جمع لأمة، وهي الدرع.

وملهوف، يطلب المحامي المدافع عمّا يشينه ويلحق العار بنفسه وأهله. ومن تلك الأبيات التي رأيناها، نجد شاعرنا يستجيب لكلّ قاصد حماية، خاصةً المرأة، المسرعة لنجدته لها؟ فنظن أنه يضعف أمام جمالها، وننسى اعتزازه برجوليته المتغلبة على كل شهوةٍ جسدية في قوله(١).

وأَجْرِي ولا أُعْطِي الهَوَى فَضْلَ مِقْوَدي ... وأَهْفُو ولا يَخْفي عَليّ صَوَابُ(٢)
صَبُوْرٌ وَلَوْ لَمْ تَبْقَ مِنّي بَقِيّةٌ ... قَؤُولٌ وَلَوْ أَنَّ السُّيُوف جوابُ
أَنا الجارُ لا زَادِي بطيءٌ عَلَيْهِم ... وَلاَ دُونَ مَالِي في الحوادثِ بابُ(٣)
وَلاَ أَطْلُبُ العَوْراءَ فِيْهِمْ أُصِيْبُها ... وَلاَ عَوْرَتي للطّالبينَ تُصَابُ(٤)

إنه إنسانٌ يحسُّ بحرارة الحب تسري في جسده كسائر الناس، وللمرأة مشاعر في حناياه تحرّك العشق كما هو معروف عند الشعراء، ولكنه لا ينجرف في تيار العاطفة، ولا يترك للمرأة سبيلاً لأن تسيطر عليه، لقد نشأ مقداماً يحافظ على كرامته، ويأبى الذلّ في مختلف الأحوال، فلا يضعف أمام الحدثان ولا يلين أمام شهوات نفسه. وما ذلك إلاّ لأنه كرّس حياته لعظائم الأمور، وتحقيق مطامحه بسرعةٍ من عجلة الحياة، ترينا وكأنه عالمٌ بأن حياته لن تطول كما في إنشاده(٥):

أرى نَفْسِي تُطَالِبُنِي بَأَمْرٍ ... قَلِيْلٌ دُونَ غَايَتِهِ اقتصاري
وقيل لِيَ انْتَظِرْ فَرَجاً ومَنْ لي ... بِأَنَّ المَوْتَ يَنْتَظِرُ انتظاري

إن شخصية شاعرنا طموحة، تسعى لتأسيس مُلْكٍ على نحو ما فعل ابن عمه سيف الدولة، وأقاربه آل حمدان، فظروف الحياة آنذاك، كانت تغري كلّ شابٍ على شيءٍ من الطموح ومن المقدرة بالمغامرات السياسية.

إن شخصية أبي فراس، ترنو إلى البعيد من المرامي. فقد شغل المَجد همّه وهو لا يزال فتىً لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره. فقد نضج قبل أوانه، وسار

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ من قصيدةٍ «أما لجميلٍ» ص: ٢٢.

(٢) أسير من غير أن أنقاد لهواي. بل أنقاد لعقلي. وأطرب وأخف في اللهو، من غير أن أفقد صوابي.

(٣) أنا الجاري الذي يرعى ذمام جيرانه، فلا يطنُّ عليهم بما يطلبون من الزاد وغيره؛ ولا يقفل بابه دون حاجتهم عندما تنزل بهم حوادث الدهر.

(٤) العوراء: الردي من كل شيء. والعورة: كل شيءٍ يستره الإنسان من أعضائه أنفةً وحياءً.

(٥) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ من قصيدةٍ يفتخر فيها بالشيب والبطولة والفروسية والنجدة ـ ص: ٩٦.

سيرة الرجال الراشدين، وهو أقرب في سنّه إلى الفتيان. ومن مفارقات هذا النضج الذكائي المبكر، أن يغزو الشيب رأس شاعرنا، وهو لمّا يبلغ العشرين بعدُ، كما في قوله[1]:

وما زادت على العشرين سنّي ... فما عُذْرُ المشيبِ إلى عِذارِي[2]

ويتابع الشيب غزوه لفتانا سنةً بعد أُخرى، حتّى يحتلّ شعره كُلّه حين يأسره الروم فيقول[3]:

وها أنا قَدْ حَلّى الزّمانُ مَفَارِقي ... وَتَوَّجَني بالشَّيْبِ تاجاً مرصّعاً

وتستوقفنا في هذا البيتَ الأخير لفظة التاج المرصّع، التي تتفاعل مراميها في ضمير الشاعر المتوثّب إلى الملك منذ حداثته. فرجولته تأبى عليه التراجع عن الملك وهو من سلالته. كما تأبى عليه الغدر بابن عمّه، وقد أَكرمَهُ، وخصّه برعايته؟ لذا تشابكت في رأسه صراعات الأَحداث التي خاض غمارها، بين الولاء لسيف الدولة، والتوق إلى التاج الذي نشأت عليه قبيلته. وتبعاً لذلك. فشخصيته القوية الشكيمة لا تشوبها شائبة. ولا تنزلق إلى دنيّة. بل لا تخرج من فمه كلمة لا يملكها، ولا يقوى على امتلاك ناحيتها، وجعل الوقار يعلو بمنطقه عن الابتذال والحماقة. وبواعث هذا الاعتداد بشخصه، قوّى في عزيمته تأجّج نار الشجاعة، المتوهجّة بحرارة الإقدام في مواقفه العزيزة المنال، العالية الجانب.

في بلاط سيف الدولة:

لمّا كان أبو فراس، تلك الشخصيّة الوفيّة، الأَمينة على العهد ـ كما سبق وذكرنا ـ فقد أَعطى سيف الدولة الولاء الكامل، والإِخلاص الصافي من كل شائبة غدرٍ أو خيانة، من الوقت الذي دخل به إلى بلاط ابن عمه، حتى الساعة التي فارقَ فيها هذا الأخير الحياة.

وهذا الإِخلاص كان متبادلاً بين الأَميرين الحمدانيين. فالظروف التي أوقعت أبا فراس في اليتم، لم يتركها سيف الدولة تمرُّ دونما اهتمام منه. بل لقد تعهّد ابن سعيد بكلّ عنايةٍ وتدبير، وأحلّه المحل الأرفع، والإهتمام الأوفى.

وإذا رجعنا إلى الزمن الذي دخل فيه الشاعر البلاط، رأينا صبياً صبوح

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ من قصيدة الشيب والبطولة والفروسية ـ ص: ٩٥.

(٢) العذار: الشعر الذي يحاذي الأذن.

(٣) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان من قصيدة الشكوى والعتاب على سيف الدولة ـ ص: ١٢١.

المحيّا، يحظى باهتمام الكبير والصغير. فالخدم والموالي، ينحنون أمامه انحناءهم أمام سيّد القصر، ويولونه إصغاءَهم، ليصدعوا بكلّ ما يطلبه منهم، وكأنه من سيّد البلاط[1].

ويحدّثنا صاحب يتيمة الدهر عن طفولةٍ أغدق عليها سيف الدولة عنايته الشخصية، وانتباهه التام، كي لا يشعر الطفل الحمداني بنقصٍ من يتم أو حرمان. بل على العكس، فقد أحسَّ الفتى الحمداني، أن أمير الحكم، هوَ بمثابة والدٍ يغمره بأبوّه كاملة الحدب والحب والعناية الفائقة. وحين توسَّم في الطفل الشاعرية المبكِّرة، تعهّد بالرعاية التثقيفية، والعلم الموسوعي، على يديّ شعراء، وعلماء، وأدباء، يبثون في روحه ما ينمّي موهبته، ويُطلعه على آفاق نُظُم القصيدة العِربية وشروطها؛ فقويت في أعماق مشاعره، ملكة القصيد الملمّ بجمال النظم، وجلال المعنى، واتساع الأُفق بكلّ جذّابٍ أنيق[2].

وحين أَحسَّ الشاعر أَن البلاط يعجُّ بالشعراء الوافدين لنيل عطاء سيّد بني حمدان، وأَن من واجب الوفاء، أَن يخصَّ ابن عمه بما ينطق بالولاء لمن خصَّه بكلّ ما يُعلي قدره، ويرفع شأنه. وفي ذلك يقول[3]:

إذ أنــــتَ ســـيِّـــدي الّـــذي ... ربـــيـــتـــنـــي وأبـــي ســـعـــيـــدُ
فـــي كـــلّ يـــومٍ أَسْـــتَـــفِـــيـــ ... دُ مـــن الـــعَـــلاَءِ، وأَســـتـــزيـــدُ
ويـــزيـــدُ فـــيّ إذا رأَيـــ ... تُـــك فـــي الـــنّـــدى خُـــلُـــقٌ جَـــدِيْـــدُ

وهذه الأبيات كانت تُفصح للملأ، بأَنّ الشاعر ضرب صفحاً عمّا أَصاب أُسرته من نكبة مقتل والده. فلقد سعى سعياً دؤوباً، لنسيان المصيبة التي نزلت كالصاعقة عليه وعلى والدته. وإذا كان سيف الدولة فعل ما فعل مع شاعرنا لينسيه المصاب الذي نزل به، فإنّ هذه الأَبيات التي عرضنا لها تُنبِئُنا بأنه صفح عمن قتل والده، وهو ابن عمٍّ له أيضاً. والدليل على هذا الصفح قوله[4]:

وَقَـدْ أَصْـبَـحْـتُ مُـنْـتَـسِـبَـاً إِلَـيْـهِ ... وَحَـسْـبِـي أَنْ أَكُـوْنَ لَـهُ غُـلاَمَـا
أَرَانـي كَـيْـفَ أَكْـتَـسِـبُ الـمَـعَـالـي ... وَأَعْـطَـانـي، عَـلَـى الـدَّهْـرِ الـذِّمَـامـا

---

(١) نمر: حنّا: أبو فراس الحمداني ـ ص: ٣٧.
(٢) الثعالبي: عبد الملك بن محمد ـ يتيمة الدهر ـ ج ١ ـ ص: ٢٠.
(٣) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٥٤.
(٤) المصدر نفسه ـ الديوان ـ ص: ١٨٣.

وَرَبَّانِي فَفُقْتُ بِهِ البَرَايَا وَأَنْشَأَنِي فَسُدتُ بِهِ الأَنَامَا
فَعَمَّرَهُ الإِلَهُ لَنَا طَوِيلاً وَزَادَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ دَوامَا

ورغم ما نراه من صفحٍ ونسيانٍ للماضي الدامي الأليم؛ فهناك مَنْ يصرِّحُ بأنَّ هذه الملامح الصفحية البَارزة في أبيات أبي فراس، وإن كانت تنضح بالعفو والتناسي، إلاَّ أنها لم تمحُ أثر الجروح الماضية، التي عزّز ألمها، حكايات والدة الشاعر لوحيدها، عن الفجيعة التي نزلت بها وبولدها، إثر مقتل الوالد والزوج الامير. والدارسون لهذه الظاهرة يعللونها في خشية سيف الدولة، وناصر الدولة من بروز نجم أبي فراس في السياسة والأدب[1] وتلك الخشية الممعنة في الزيادة يوماً بعد يوم، جعلت ذنيك الأميران يعملان دون تمتع أبي فراس، بالشهرة التي هو أهلٌ لها. ولذا، فقد أحسَّ الشاعر بنقيضين يتنازعانه في بلاط سيف الدولة، ويعودان إلى أمرين يلحّان في خاطره. الأول محوره الرعاية والحدب اللذان لقيهما بشكل بارزٍ، ظاهرٍ في المعاملة العلنية، البادية بشكل جلّي، في كلام سيف الدولة وفعله. والثاني محوره ما خفي ظهوره على الناس في خشية صاحب البلاط، سيّد القصر، ومن يلوذ بسطوته، في أن يصبح الشاعر الأمير ذا شهرةٍ تجذب الناس إليها، وتأسرهم بساطع أمجادها، فتجعلهم يخبّئون للغد، ما يُعلي شأن أبي فراس على سائرِ أُمراء القصر[2] ولعلّ الشاعر كان يحسُّ بشيءٍ ممّا يخبّأ له، بعيداً عمّا يُري، فتكتنفه مرارةٌ مكدّرة، تنضح بها أبياتٌ يقول فيها[3].

تمنيتُمُ أَنْ تَفْقُدُونِي، وَإِنَّمَا تمنَّيْتُمُ أَنْ تَفْقُدُوا العِزَّ أَصْيَدا[4]
أَمَا أنا أَغْلَى مَنْ تَعدّون جِمَّةً؟ وَإِنْ كُنْتُ أَدْنى مَنْ تعدُّونَ مَوْلِدا
إِلى اللَّهِ أَشْكُو عُصْبَةً مِنْ عَشِيرَتي يُسِيئُون لي في القول غَيْبَاً وَمَشْهَدا[5]

إنَّ هذه الأبيات، تنطق بحالةٍ من الإضطراب الخفيّ يلفُّ حياة الشاعر في بلاط ابن عمه. فهو وفيٌّ لما أغدقه عليه الأمير الحمداني، وما أحاطه به ممّا يُنسيه ماضي والده الذي فجع به. ولكنه غير مرتاح لبراثين الحسد، التي تمدُّ إليه، أظافر الضغينة خوف التألّق والبروز حيناً بعد حين. وفي هذا المضمار يقول عمر

(١) االبستاني: فؤاد أفرام ـ أبو فراس الحمداني ـ الروائع (١٦) بيروت (١٩٢٨) ص: ٢٢.
(٢) البستاني: فؤاد أفرام ـ أبو فراس الحمداني ـ الروائع (١٦) ص: ٢٣.
(٣) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٦٤.
(٤) الأصيد: الرفيع.
(٥) العصبة: الجماعة.

فروخ: «مع ميل سيف الدولة عن أبي فراس تخوّفاً من طموحه إلى الاستبداد بالأمارة فإنه كان يبعثه بالغزوات المختلفة، أو يصحبه معه في غزواته، أو يستخلفه مكانه إذا أراد أن يغزو وحده. ويبدو لنا أن سيف الدولة كان يختار في مثل هذه الأحوال لأبي فراس، ما يأمن معه انتفاضه عليه. لقد كان سيف الدولة يظهر العطف والحبَّ لأبي فراس. وكان أبو فراس، يبدي لسيف الدولة احتراماً وحباً وعرفاناً للجميل، ولكن كلُّ واحدٍ منهما كان غير واثقٍ من صاحبه، وغير مطمئنٍ إلى وفائه[1].

ونحن إذا استعرضنا آراء الباحثين الدارسين لحياة أبي فراس في بلاط سيف الدولة، سنجد تناقصاً واضحاً في سردهم لعلاقة أحدهما بالآخر. وهذا ليس بغريب ولا بمستعبد. فهناك من يميل إلى الأول منهما فيعلي مكانته ويطعن بالثاني؛ وهناك من ينجذب بحبٍ إلى الثاني فيطعن بالأول. وهناك من يطعن بالأثنين معاً، ويشوّه صورتهما لغاية الإقلال من شأن العشيرة الحمدانية، وجعلها في صراع على السلطة، دونما نظر إلى حسبٍ أو نسبٍ أو شرف[2].

ويبقى أن نقول: ليس هناك من شائبةٍ ظاهرةٍ تشوّه حسن العلاقة بين الأميرين. في البلاط الحمداني؛ اللهم تلك التي يدّعيها بعض النقاد والمحللين لتصرف أحدهما إزاء الآخر في بعض الظروف الطارئة، التي قد تفسّر على أكثر من وجه، من حيث الزمان والمكان، واختلاف الأحوال[3] ولكن الذي نستطيع إثباته، من واقع ما يبدو جلياً للباحث المتجرّد، أنّ الظاهر من حياة أبي فراس في بلاط سيف الدولة، كان محاطاً بالكثير من الاحترام والتقدير والمحبة، رغم ما يشوبه من سوء تفاهمٍ ـ في بعض الأحيان ـ يعود تقديره للأمور التي تعلّل بأكثر من تفسير.

الفروسية وبطولات حروبه مع الروم:

لقد سرت البطولة في دم أبي فراس وهو يعد فتياً في عمر الورود، يتدفق شجاعةً، وينفخ فيه ابن عمه روح المغامرة التي ترفعه إلى مصاف الفرسان الأوائل، وتجعله رمز العنفوان الأبي في بلاط سيف الدولة الذي بالغ في إعداده

---

(١) فروخ: عمر ـ أبو فراس فارس بن حمدان وشاعرهم ـ بيروت (١٩٥٧) ص: ٣٢.
(٢) الأمين: محسن ـ أبو فراس الحمداني ـ الروائع (١٦) بيروت (١٩٢٨) ص: ٣١.
(٣) باجقني: عبد الغني ـ فخر أبي فراس وأبي الطيب ـ دمشق (١٩٣٢) ص: ٤٨.

لمهام الغد المنتظر مع الروم المكثرين الإغارة على الثغور العربية في بلاد الشام. ودفعاً له في هذا السباق المليء بالزخم والعنف، اقتطع له الأمير الحمداني ضيعةً تغلُّ ألفي دينار كل سنة، هي «منبج». وزيادة في تحمل المسؤولية، يضيف إلى «منبج» منطقة حرّان؛ بالإضافة إلى مناطق أُخرى مضطربة، تعبث فيها القبائل فساداً، وتآمراً على الولاة والحكام. كقبائل النزاريين الضاربين في بادية الشام وديار مضر[1] وقد وضع الأمير شاعرنا في مسلك صعبٍ للغاية؛ يواجه به المغيرين على الثغور، والمتوغلين أحياناً إلى عمق الولايات العربية وكان على الشاعر أن يدفع أذى الروم، وأذى القبائل، وأذى الطارئين بين أولئك وهؤلاء، بقوة شكيمةٍ لا ترفع الكلل أو الملل، وتزرع في ساحات المعارك، بطولاتٍ مميزة، يُشار بها، وتكلّل بأكاليل النصر والغار. وقد تمكن القائد الفتى إحراز الطليعة، باستبساله في كسر شوكة كل مغيرٍ أو معتدٍ أو مشاغب[2].

ومهما أُوتي المرء في قدرةٍ على الاطلاع، وجلدٍ في سبيل مراجعة ما خُطَّ أَو طبع، فلن يستطيع منْ سرد جميع ما حوته بطولاته المدونة في أخبار من عاصروه، ونقلوا عنه ما يشبه الأساطير. ذلك أن الرجل لم يكن كسائر الناس يرضى بالقليل؛ بل كانت لديه همّةٌ عليه لا ترضى بالزر القليل من المجد، تجعله شهرةً للعظمة؛ بل تطمح في خوض المغامرات القاتلة، الخطرة العواقب، دونما خوف أو فزع. وكثيرة هي القصص التي تروي انقضاضه على كتيبةٍ كبيرةٍ من عسكر الروم في ثغرٍ من الثغور، بأعدادٍ معدودةٍ من فرسانه المدرّبين على أحدث قتال، حيث يدحر المغيرين، ويعود منهم بالكثير من الأَسرى. وإلاَّ، كيف نفسّر تلك الحادثة التي روت مجيء أحد الفرسان المبثوثين على الثغور لمراقبة الروم، وهو خائفٌ من عاقبة تسلل فرقةٍ كبيرةٍ من عساكر الأعداء، لا بد من صدّها قبل أن تتوغل داخل الأَراضي الحمدانية. وحين سمع شاعرنا الخبر، جمع شتتات ما لديه من جنودٍ في استراحتهم، وأَغار على المغيرين الذين كادوا يقضون عليه وقد هلك الكثير من جنوده، لولا أنه أشعل النار في هشيم من زرعٍ محيطٍ بهم - فتراجعوا مذعورين خوف الاحتراق، فكسب المعركة بشجّاعته إلى جانب حذاقته المبتكرة لأجمل فنون الترهيب[3].

(١) الأمين: محسن: أبو فراس فارس الحمداني ـ ص: ٣٥.
(٢) فروخ: عمر: أبو فراس فارس بني حمدان ـ ص: ٢٨.
(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر ـ ج ١ ـ ص: ٢٢.

وهذا يقال أيضاً، في معركةٍ أُخرى بالغ فيها بشدّة استبساله، حتى قال عنه أعداؤه «أنه أقوى من الأفاعي وقعاً، وأشدُّ من العقارب لسعاً»[1].

ولذلك قصته تروى عن مدى تعلّقه باكتشاف الجديد في ابتكاراته الحربية، المخيفة للأَعداء، والمفزعة عن تحدثّه نفسه بغدره على حين غرّه. وممّا يروى عنه أنه علم بتوغّل كتائب من الروم في الأرض الحمدانية، بقصد الاعتداء والسلب والنهب. ولمّا كان الوقت لا يسمح له بأخذ الزمن اللازم لجميع ما يحتاج إليه في مواجهة تلك الكتيبة المغيرة، فقد عمد إلى ابتكار حيلةٍ تساعده مع قتاله المستبسل على دحر المعتدين، وردهم على أعقابهم صاغرين. وللحال أمر جنوده بالذهاب إلى مكان تكثر فيه الأفاعي والعقارب. حيث جمع له منها ـ بأساليب يعرفها أهل تلك المنطقة ـ ما وضع في أكياس خاصة. وعندما احتمدت المعركة بينه وبين المعتدين أمر جنوده بأن يلقوا الأكياس على المغيرين. فكان الروميّ يضطرب فزعاً وهو يرى الكيس يقع عليه بما فيه، فيسهل قتله. وهكذا دبّ الخوف في سائر أفراد الكتيبة، واستطاع شاعرنا، أَن يسجل انتصاراً فريداً في نوعه، رغم ما فيه من ندرةٍ لم يسبق إليها[2].

وهكذا نرى أَن النصر ا[illegible] كلل بالدهاء وحسن الابتكار، وشدة الشكيمة، كان يبتسم لشاعرنا، في كل مرّ[illegible] [illegible]ظن فيها، أن الهزيمة آتية لا محالة. وفي كتب المؤرخين أحاديث منقولة عن الروم، يشيدون فيها بعظمة ما كان عليه أبو فراس، الذي نزل في قلوبكم منزل التقدير والإِجلال لقدرته الحربية، رغم أنه عدوّهم اللدود، الذي لم يمل يوماً إلى مهادنتهم، أو الرفق بهم[3] وقد تصدى لهذه الأَخبار بعض الحاسدين لشاعرنا، أو الحاقدين المقللين لأهمية ما روي عنه، وقالوا إنه من خيال من غالوا في حب أبي فراس، وبنوا إليه بطولاتٍ غريبة، لا يقبلها العقل، ولا تدخل في حيّز المنطق. وإنها وضعت إلى جانب ما وضع من المهجن الفاسد، على ألسنةٌ المتسكعين المستفيدين ممّا يُروى من الغريب الشيّق؛ الجاذب للأَسماع، المفرج لمحبيّ الحكايات البطولية المشوّقة[4].

---

(١) أبو معجن: محمد بن خليل النقعي الحامدي ـ مخطوطة رقم (٦١) المكتبة الظاهرية ـ بطولات النبلاء، وشهامات الفداء ـ ص: ٨٥.

(٢) إبراهيم الحلبي: سليم ـ مخطوطة رقم (١١٢) ـ المكتبة الظاهرية ـ من بطولات أبي فراس الحمداني ـ ص: ٥١.

(٣) الباجقني: عبد الغني: فخر أبي فراس وأبي الطيب ـ ص: ٥٠.

(٤) نمر: حنا: أبو فراس الحمداني ـ ص: ٤٠.

ولكن هذا لا يمنعنا في القول، أن أبا فراس، أحرج موقف الروم في أكثر من مرّة، وكبر في أعينهم، حتى أن هذا الكبر كان يزداد، كلما جاءَهم بالجديد من مبتكراته الحربية، المستفادة من كثرة تجارية القتالية.

إنَّ الصراع الذي خاض أبو فراس غماره مع الروم، كان يلقى الإِعجاب الشديد لدى ابن عمه، ويرفع من قدره عنده. وكان من يفد إلى بلاط سيف الدولة، ينقل ما يردده الأَمير في مدح أَبي فراس، ويجعله مكان تقدير وتبجيل، بعد أن أشار به سيد البلاط، وجعله المفضل. والشاعر الذي يطربه المديح على لسان الأمير، يزداد اندفاعاً في حماسه العسكري، ويبحث عن كل جديد يُعجب، ويجعله المبادر إلى كل ما لم يبادر إليه سابق. من هنا كان تسابق الروم إلى مقارعة شاعرنا في حرب لا يهدأ أوارها، أملاً منهم بالانتصار عليه وكسر شوكته. وكان أبو فراس، لا يهدأ على فرسه خائضاً غمار حرب تصد، وموقعةٍ تكيل للمعتدين أصناف الهزائم والاندحارات المخزية المذلَّة[1] وفعله العجيب في ما تقدم، لا يتأتّى في احتلاله لقلب ابن عمه فحسب، فهو يعرف أن مثل هذا الاحتلال لا يكفي، إذا لم يعاجله بما هو اسمى وأعلى من انتصارات جانبية في الحروب المستمرة الدائمة؛ بل لأَن وجداناً مميزاً، وشخصية طاغية، وشجاعةٍ مبدعة، يحملها هذا القادم من نفس الأصل الذي ينبع منه نسب سيف الدولة، يملأ بها آفاق البلاط الحمداني، ويسدّ بها منافذ المتقولين والحاسدين، والغاضبين لسطوع نجمه في حلبات القتال المشعة بالمجد والفخار[2].

ولعلنا لا نبالغ في القول، بأن فروسية أبي فراس، وبطولات حروبه مع الرُّوم لا تنتهي بهذه الوريقات الموجزة التحليل، بل تحتاج إلى الكثير من الدراسة، والبحث الموسع، لتصل إلى الغاية الساعية إلى إظهار بطولة هذا العملاق، الذي أقلق الروم في حروبه معهم، وأقضّ مضجعهم وهو ينزل بهم الهزائم النكراء، ويذيقهم ألوان التقهقر والاندحار.

وقوعه في الأَسر وأَعجوبة فراره:

إنَّ أبا فراس الملازم لسيف الدولة، والمدافع عن حياض دولته، أثبت من الكفاءات السنية العالية، ما جعله موضع ثقة بأنه لا يقارع ولا ينازل، ويجد في

(١) البستاني: فؤاد أفرام: أبو فراس الحمداني ـ ص: ٢٥.

(٢) نمر: حنا: أبو فراس الحمداني ـ ص: ٤٢.

الكفاح لذةً ترقى به إلى الاستهزاء بما يخيف من الأهوال. بيد أن النجاح الذي لازمه في كل مواقعه الدامية، خانه في واحدةٍ منها، خرشنة، التي كانت محط نزاع دائم بين العرب والروم. وفيها يقول شاعرنا:

إن زرْتُ «خرشنةً» أسيرا ... فَلَكَمْ أَحَطْتُ بها مُغيرا[1]
وَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّارَ تَنْـ ... تَهِبُ المَنازِلَ والقصورا
وَلَقَدْ رَأَيْتُ السَّبْيَ يُجْـ ... ـلَبُ نَحْوَنَا حُوّاً وَحُورا[2]

وقد اختلف المؤرخون في حكاية أسره. فهناك رواية ترجع أسره إلى خروجه في شرذمةٍ من جنوده حين هاجم الروم أمارته، فوقع في كمينٍ نصب له على حين غرة. ورواية أُخرى تقول بأنه وقع في الأسر، وهو مع بعض جنوده، سائر إلى الصيد. أمّا الرواية الثالثة فتجعل أسره أبّان انهماكه البطوليّ في معركةٍ كبيرةٍ من معارك سيف الدولة. والرواية الأقرب إلى التصديق، تلك التي ذكرها ابن خلكان[3] بأنه وقع في الأسر حين كان في الصيد بصحبة سبعين رجلاً من جنوده. ويثبت هذا قوله:

وَلَوْ لَمْ تَنَلْ نفسي وَلاءَكَ لم أَكُنْ ... لأُرِدَها في نُصْرِهِ كُلَّ مَوْرِدِ[4]
وَلاَ كُنْتُ أَلْقَى الأَلْفَ زُرْقاً عُيُونها ... بِسَبْعِينَ فِيهِم كُلُّ أَشْأَمَ أَنْكِدَ

وهذه الرواية القريبة إلى المعقول، لا تنفي نفياً قاطعاً احتمال ذهابه في حركة استكشافية في زمرةٍ في جنوده حين وقع في الأسر. وتاريخ أسره لا يقل غموضاً عن كيفيته. فمنهم من جعل الأسر وقع مرتين في تاريخين مختلفين، ومنهم من جعله مرةً واحدة. ومن الروايات التي تقول بأسره مرتين، تلك التي أوردها ابن خلكان بقوله: «أسر أبو فراس مرتين. فالمرة الأولى بمغارة الكحل في سنة (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م) وما تعدّوا به خرشنة، وهي قلعة ببلاد الروم، والفرات يجري من تحتها، وفيها يقال: إنه ركب فرسه وركّضه برجله، فأهوى به من أعلى الحصن إلى الفرات، والله أعلم. والمرة الثانية، أسره الروم على مقربة من منبج في شوال سنة (٣٥١هـ/ ٩٦٢م) وحملوه إلى القسطنطينية، وأقام في الأسر أربع سنين»[5]

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٠٥.

(٢) الحوّ: السمرة في الشفاه ـ حوراً: فيهنّ حور. وهو شدة سواد حدقة العين وبياضها.

(٣) ابن خلكان: أحمد بن محمد ـ وفيات الأعيان ـ ج ١ ـ ص: ١٢٧.

(٤) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٥٨.

(٥) ابن خلكان: أحمد بن محمد: وفيات الأعيان ـ ج ١ ـ ص: ١٢٧.

وقد أورد رواية ثانيةً عن لسان أبي الحسن الديلمي تقول بأسره مرةً واحدة وهي: «وكانت الروم قد أسرته في بعض وقائعها، وهو جريح قد أصابه سهم بقي نصله في فخذه، ونقلته إلى خرشنة، ثم منها إلى القسطنطينية وذلك في سنة (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م) وفداه سيف الدولة في سنة خمس وخمسين. هكذا قال أبو الحسن علي بن الزرّاد الديلمي وقد نسبوه في ذلك إلى الغلط»[(١)]. ويقول الثعالبي في ذلك: «إن أبا فراس، لما أدركته حرقة الأدب، وأصابته عين الكمال، أسرته الروم في بعض وقائعها، وهو جريح وقد أصابه سهمٌ بقي نصله في فخذه، وحصل شخناً بخرشنة ثم بقسطنطينة. وتطاولت مدته بها لتعذر المفاداة»[(٢)].

وأمام هذه الأخبار المتضاربة نقف في حيرةٍ من الأَمر. فالثعالبي الذي يروي عن ابن خالويه، والقاضي التنوخي أيضاً حسب ما ورد في ترجمات الشاعر التي أثبتها الدكتوّر سامي الدهان في الجزء الثالث من ديوان أبي فراس[(٣)] لم يشيروا إلى أَنّ الأَسر وقع مرتين. ولو حدث ذلك لكان جديراً بأن يذكر. ثم أن هؤلاء الأشخاص هم أقرب المؤرخين من أبي فراس وعصره. وكلامهم في ذلك، ينبغي أن يتخذ حجة. وما بالك بالرواية التي أوردها ابن خلكان في خبر فراره من خرشنة، إذ أنه ركّض فرسه برجله فأهوى به من الحصن إلى الفرات، أليست خبراً أُسطورياً، ودليلاً متهافتاً لا طائل تحته[(٤)].

وهذا المروي المتناقل، بعيدٌ عن المنطق. إذ كيف يكون الروم متغافلين إلى هذا الحد، عن سرٍّ عظيم، وأمر خطير، يجعلهم يضعون أبا فراس في سجنه من غير قيد، وإلى جانبه حصانه ينتظره ليقفز به إلى الماء من عل. ثم إن أبا فراس أثبت وجود القيد حين قال:

يا مَنْ رَأَى لي بحصن خَرْشَنَةٍ ... أُسْدَ شَرَى في القُيودِ أَرْجُلُها؟
يا سيّداً لا تُعدُّ مَكْرُمَةً ... إلاَّ وفي رَاحَتَيْكَ أَكْمَلُها
لَيْسَتْ تَنَالُ القُيُودُ مِنْ قَدَمِي ... وفي اتّباعي رِضاكَ أَحْمِلُها[(٥)]

وإذا كان الأمر كذلك، فليس من المعقول أن يفرّ شاعرنا، والقيد الثقيل في

---

(١) ابن خلكان: أحمد بن محمد: وفيات الأعيان ـ ج ١ ـ ص: ١٢٨.
(٢) الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد ـ يتيمة الدهر ـ ج ١ ـ ص: ٣٧.
(٣) الدهان: سامي ـ ديوان أبي فراس ـ ج ٣ ـ ص: ١٦١.
(٤) أبو حاقة: أحمد ـ أبو فراس الحمداني ـ ص: ٣٩.
(٥) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٢٠٢.

قدميه. وإثبات وجود القيد؛ حرص أبي فراس على أن يجعل من شعره مذكراتٍ تروي شؤون حياته كلّها، بكل أحداثها ووقائعها.

ويبقى السنة التي حدث فيها الأسر، وهي متأرجحة بين (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م) و (٣٥١هـ/ ٩٦٢م).

والذي نرجحه، ألا يكون أبو فراس قد أُسر قبل السنة (٣٥٠هـ/ ٩٦١م) أو (٣٥١هـ/ ٩٦٢ م) على الأصح. لأن أبا العشائر الحمداني، قد وقع أسيراً في أيدي الروم سنة (٣٤٩هـ/ ٩٦٠م) وبقي في الأسر ما يزيد عن السنة؛ وقد أرسل إليه أبو فراس عدة رسائل شعرية، لا تشير إلى أن أبا فراس كان أسيراً، ولا تشير إلى أنه أُسر وهرب، كما لا تشير إلى أن سيف الدولة قد اقتداه. بل على العكس من ذلك، تشير إلى أن أبا فراس كان في تلك الحقبة حراً طليقاً[1] وإذا كان الخيال العربي قد غالى في حبك أُسطورة فرار أبي نواس من أسره الأول فلسببين. السبب الأول يعود إلى تصميم أبي فراس على الهرب من السجن؛ فرأى الخيال العربي أن الهرب لا يليق بالأبطال، فنُسج له ما يرفع من شأنه، ويجعل من الهرب هرباً فروسياً، ومن الهارب بطلاً أُسطورياً. والسبب الثاني، أن الأمير الفتى لا يليق به أن يبقى في الأَسر، أو ينتظر فداءَه من أحد، بل يجب أَن تتساوى طريقة كسر الطوق مع عظمه الكاسر، لتقام المعادلة من جديد، ويتم التوازن المختل: بين الذات المسحوقة، والمْساء إليها، وبين شمائلها المعروفة، فكانت الأَسطورة[2].

وإذا كنّا نقف عند هذا الحد الموجز، من الكلام الكثير الذي قيل عن أسره الأَول، فلكي ننتقل إلى الحديث عن أَسره الثاني ـ في رواية من قيل إنه أسر مرتين ـ وعن قصة الفداء وما اعتراها من زيادات، أضافها الخيال الذي نسج قصة هربه من السجن في أسره الأول.

العودة إلى الأسر وقصة الفداء:

في عودٍ على بدء، نجد من الأَفضل أَن نجعل ـ لمن قال أنه أُسر مرتين ـ أسره الأول كان سنة (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م) وأَسره الثاني حصل سنة (٣٥١هـ/ ٩٦٢م) ثم افتدي سنة (٣٥٥هـ/ ٩٦٨م).

---

(١) أبو حاقة: أحمد ـ أبو فراس الحمداني ص: ٤٠.

(٢) شرف الدين: خليل: أبو فراس الحمداني ـ ص: ٣١.

وحكاية الأسر الثاني تقول بأن أبا فراس هرب من أسره الأول ـ إن صح أنه هرب ـ وعاد أكثر حميّةً وشجاعةً في مصارعة الروم، ومدافعتهم عن الحدود والثغور العربية الشمالية. وكان الدمستق نقفور بن بروس قد تسلم القيادة فأعد العدّة للقيام بهجوم صاعق لا يبقى ولا يذد. ومن أجل ذلك أرسل ابن أخيه «تيودور» في قسم من الكشافة. وقد فوجىء أبو فراس بهذا الزحف غير المتوقع، فاستبسل في من كان معه في القتال والدفاع عن الثغر، حتى أثخن بالجراح، وأصيب بنصلٍ في سهمٍ بقي في بدنه سنتين ونصف السنة، وشق عليه ست مرّات حتى خرج[1] فحمل مع من بقي من حرسه إلى بيزنطة في شوال سنة (٣٥١هـ/ ٩٦٢م) وبقي طوال حياته يعاني من أثر الجرح البليغ الذي أصاب فخذه. والذي يدل على هذا الأسر قوله منشداً:

أُسِرْتُ، وَمَا صَحْبِي بِعَزْلٍ لَدَى الوَغَى ... وَلاَ فَرَسِي مُهْرٌ، وَلاَ رَبُّه غُمْرُ
وَلَكِنْ إِذَا حُمَّ القَضاءُ عَلَى امرىءٍ ... فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيْهِ، وَلاَ بَحْرُ
وَقَالَ أُصِيْحَابي: الفَرَارُ، أَو الرَّدَى ... فَقُلْتُ: هما أَمْرَانِ أحلاهما مُرُّ[2]

ويقال إن الشاعر قضى في السجنِ سبع سنواتٍ ثقيلة الوحدة والعذاب، وهو مقيّدٌ بالأغلال، مرهق بالشاق من الأشغال. وقد تحمل هذا كله معانداً الروم حين استمالوه لمحاربة ابن عمه سيف الدولة مقابل إطلاق سراحه. وكانوا يعمدون إلى مخاشنته، وشدّ الطوق الحديدي في رجليه كلما عاندهم، وامتنع عن مجاراتهم في نصب العداء لابن عمّه. وكانوا يبالغون في تعنيفه إلى درجة النيل من كرامته وكرامة قومه. وعلى سبيل المثال يُروى أن الدمستق قال مخاطباً أبا فراس: «إنما أُنتم كُتّاب، لا تعرفون الحرب» فرد عليه أبو فراس قائلاً: ويَحك نحن نطأ أرضكم منذ ستين عاماً، بالسيوف أو بالأقدام» ثم ارتجل شعراً يقول فيه[3]:

أَتَزْعُمُ يا ضَخْمَ اللَّغَادِيْدِ أَنَّنَا ... وَنَحْنُ أُسُوْدُ الحَرْبِ، لاَ نَعْرِفُ الحَرْبَا
فَوَيْلُكَ، مَنْ لِلْحَرْبِ، إِنْ لَمْ نَكُنْ لَهَا ... وَمَنْ ذَا الَّذي يُمْسِيَ وَيُضْحِي لَهَا تِرْبَا

وإذا كانت هذه حاله في عذابه مع الروم؛ فكيف كانت حاله النفسية في

---

(١) يدوي: أحمد أحمد ـ شاعر بني حمدان ـ صر (١٩٥٠) ص: ٥٩.
(٢) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٧٠.
(٣) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٣٦.

عذابه مع ابن عمه من أجل الفداء؟. الروايات تقول: إن الروم حاولوا عقد اتفاق مع سيف الدولة، تطلق بموجبه حرية أبي فراس، مقابل حرية قائد روميّ هو أخٌ للقائد الذي أسر أبا فراس واسمه: بودرس بن مرديس (بيدروس فوكاس). ومقابل ذلك جعلوا الأسير في حجرةٍ مفردةٍ له وأبقوا عليه ثيابه. لكن سيف الدولة أبى أن يفتدي ابن عمه، ويترك الآخرين يعانون ألوان العذاب. وكان يسعى إلى إبرام عقد يطلق بموجبه جميع العرب المحتجزون في بلاد الروم. وتستطرد الروايات في سرد الدسائس التي كان الروم إخضاع أبي فراس لها، وهم يعلمون خفايا الخلافات المتأصلة في دولة بني حمدان، منذ خلاف الحسين وأخيه عبد الله أبي الهيجاء في أيام المقتدر، والخلاف بين ناصر الدولة وعمه سعيد والد أبي فراس، حيث قتل ناصر الدولة عمه، الذي أدّى فيما بعد إلى نزاعٍ شديد بين أبي فراس وأبناء ناصر الدولة، وبينه وبين أبي المعالي ابن سيف الدولة. وهذا كله يوحي بأن الروم كانوا يحيكون الدسائس للإيقاع بين أبي فراس وابن عمه في قصة الفداء، خدمةً لمصالحهم، وتحقيقاً لاستيلائهم على إمارة حلب. وقد نجحوا كثيراً في الوصول إلى هذا، حينما أظهروا سيف الدولة بمظهر المبغض لأبي فراس، وقت أبدوا استعدادهم لإطلاق سراحه فور افتداء سيف الدولة له[1] يبدو أنهم نجحوا في ذلك، وأظهروا لأبي فراس زهد ابن عمه في افتدائه حتى جعلوه يقول[2]:

إِذَا خِفْتُ مِنْ إِخْوانِيَ الرُّوم مَرَّةً ... تخوَّفْتُ من أَعمامِيَ العُرْبِ أَرْبعَا

وإنْ أَوْجَعَتْنِي مِنْ أَعادِيَّ شِيْمَةٌ ... لَقِيْتُ مِنَ الأَحْبَابِ أَدْهَى وأَوْجَبَا

لكن أبا فراس لم يخضع لمشيئة الروم، وبقي وفياً لابن عمه رغم الظنون التي ساورته بتلكؤ ابن عمه له. وأرسل الرجاء تلو الرجاء ليُفتدى، لم يلبّ أمير بني حمدان طلبه. وهنا نتساءل، هل كان هناك بغض وكراهية بين الرجلين؟ هناك من يقول بأن سيف الدولة كان يخشى من انقلاب أبي فراس عليه، فآثر إبقاءه في السجن اتقاءً لشرّه[3] وهناك من يقول بأنّ أبا فراس يبدي احتراماً وعرفان جميل لسيف الدولة، وأن هذا الأخير كان يعطف على أبي فراس عطف الأب على ابنه. وإن مماطلته في افتداء أبي فراس يحسمها ابن خالويه بقوله: إن الروم كان في

---

(١) الجومرد: عبد الجبار: غرة العرب ـ دار الطليعة ـ بيروت (١٩٦١) ص: ١٣٢.

(٢) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٣٨.

(٣) الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد ـ ج ١ ـ ص: ٣٢.

أيديهم فضل ثلاثة آلاف أسير من العرب. ولم يكن سيف الدولة ليرضى بافتداء أبي فراس وذمرة قليلة معه، ليبقى بين أيدي الروم هذا العدد الضخم من رجاله. لهذا ظلّ ينتظر الظروف المؤاتية التي تسمح له بافتداء الجميع. ولكنه لم يوفق إلاّ بعد زمن. فلقد قوي البيزنطيون على سيف الدولة سنة (٣٥١هـ/ ٩٦٢م) فدخلوا حلب، وعاثوا فيها فساداً، وخرّبوا قصر سيف الدولة، ومني هذا الرجل بانكسارات عديدة؛ وأصابه فوق ذلك شلل نصفي ممّا أضعفه كثيراً، وأضعف إمارته، فلم يكن في مستطاعه بحالٍ من الأحوال، أن يحقق الفداء وأن يدفع للروم ما كانوا يطلبونه من مال، في سبيل الإفراج عن ثلاثة آلاف أسير. ولكن أبا فراس، لم يكن يقدّر ذلك كل التقدير، لأنه كان جاهلاً معظم ما حدث. وكان هناك وشاة على ما يبدو، يريدون أن يوقعوا بينه وبين ابن عمّه، فصوّروا للرجل أن سيف الدولة قد أهمله، وأنه يبغي به شراً. ولكن أمير حلب كان حريصاً كل الحرص على انتهاز آية فرصة سانحة؛ حتى إذا تيسرت له سنة (٣٥٥هـ/ ٩٦٧م) أرسل سيف الدولة إلى أبي فراس، فخرج في اليوم الأول من شهر رجب، بثلاثة آلاف أسير إلى خرشنة، ووصل إليها سيف الدولة بأسراه من الروم، فدفع ستمائة ألف دينار رومية. وتم الفداء[1] لذلك، وبعد كل ما تقدم، نرى أنه من الواجب دحض جميع الحجج والتعليلات التي تجعل من سيف الدولة مخادعاً مماطلاً، خائفاً من انقلاب ابن عمه عليه؛ وتلك التي تجعل من أبي فراس حاقداً ناقماً، ينتظر الفرص للإيقاع بمن غدر به، وتغاضى عن إنقاذه، وتخفيف ألم الأَسر عنه. كان سيف الدولة في وادٍ من هذه الناحية، وأبو فراس في وادٍ آخر. وإن ما قيل عن خوف أمير حلب من مزاحمة أبي فراس لوليّ عهده وابنه أبي المعالي على الملك بعد وفاته؟ أو عدم تمكن سيف الدولة من دفع الفدية، وكانت كبيرة ومذلّة للأمير الحمداني، خاصةً وأن أبا فراس كان يشترط ألاّ يخرج من الأَسر وحده، بل مع جميع الرفاق الذين أُسروا معه؛ أو أن الروم كانوا يريدون مبادلته بأخ الدمستق الأسير لدى سيف الدولة، وسيف الدولة يعز عليه ذلك؟ فمهما قيل، يدحضه الواقع التاريخي، الذي ينهض دليلاً كافياً على عدم قدرة الأمير الحمداني على افتداء ابن عمه الأَسير، وحين قدر لم يتأخر[2] ولعلنا بهذا التعليل، أرضينا

---

(١) الدهان: سامي: ديوان أبي فراس ـ ج ٣ ـ ص: ٣٠٣.

(٢) يقول: ابن خلكان في وفيات الأعيان ـ ج ١ ـ ص: ١٦١، إن سيف الدولة كان أحياناً يضطر إلى بيع جواهر نسائه، وحلاهنّ، وكل نفيس في قصره، ليستطيع تأمين السلاح والنفقات لجنوده. الأمر الذي يجعله عاجزاً عن دفع تلك الفدية الباهظة.

فضول الباحثين عن حقيقة واقع الفداء، بعد أن كثرت حوله الأقاويل وتعددت. ولا يخفى على القارىء التشويش والتضليل التي أُضيف إلى الروايات، من قبل بعض المعرضين، إمّا للدّس، وإما لتغيير الحقائق لغايةٍ في نفس يعقوب.

توليته لحمص وصراعه مع أبي المعالي:

لقد رأينا ممّا تقدم أن أبا فراس كان وفياً لابن عمه، يحجم عن الغدر به مهما حاصرته الإشاعات، أو جنت عليه الأقاويل. وإذا كنّا لمحنا حباً لدى الشاعر في تولي حكماً، أو اقتطاع منطقة له، فهذا حق من حقوقه التي أولاها إيّاها سيف الدولة في حياته. ولذا رأيناه بعد خروجه من أسره، وهو أكثر تقرباً من ابن عمه معترفاً بفضله، وبالظروف التي حاقته وأخرته في دفع الفدية. ولكن القدر الذي قسا عليه صغيراً، أبى إلاّ أن يؤلمه كبيراً. فما كاد يستقر في بلاط سيف الدولة معززاً مكرماً، حتى توفي هذا الأخير بعد أشهر قليلة. وآل الحكم من بعده إلى ابنه سعد الدولة أبو المعالي، ابن أخت أبي فراس ـ والتاريخ لم يذكر لنا وجود أيّة عداوةٍ بين الرجلين تدفع أبا فراس إلى مواجهة ابن من احتضنه، ووفر له كل عزٍّ وكرامة. بل على عكس ذلك؛ كان أبو فراس يعطف كثيراً على سعد الدولة، وعلى أخيه أبي المكارم، الذي توفي يوم كان خاله في الأسر، فأرسل الشاعر إلى سيف الدولة قصيدة تعزية رقيقة جداً، تنم عن عاطفة صادقة نحو الميت[١] والصراع الذي جعله البعض بين أبي فراس وأبي المعالي، لم يكن في الحقيقة صراعاً بين هذين؛ بل كان صراعاً بين أبي فراس وفرغويه التركي الذي نصبه سيد الدولة وصياً وولياً مساعداً لولده. فذلك الطامع في الملك، التركي الدخيل على العرب جهد أن يبعد شاعرنا عن أبي المعالي، ويقصيه عنه مخافة أن يقضي على طموحه وآماله البعيدة المرامي. ولذا، فإن استيلاء شاعرنا على حمص، جاء حباً منه للحفاظ على ملك أبي المعالي، وعدم السماح لفرغويه بالدخول بينه وبين الأمر الجديد[٢] وانطلاقاً من الحقيقة نقول، إن الصراع في الواقع كان بين أبي فراس وفرغويه، وليس بين الأول وأبي المعالي. واستيلاء أبي فراس على حمص كان من أجل إبعاد فرغويه عن الحكم. وعدم تمكينه من بذر الشقاق بين أبناء العم. وهناك من يجعل تولية أبي فراس على حمص، طمعاً في إرجاع الأمارة إلى بيت والده الذي قتل في هذا السبيل. ولكن الأدلّة الدامغة تثبت عكس ذلك،

---

(١) فروخ: عمر: أبو فراس فارس بن بني حمدان ـ ص: ٣٨.

(٢) بدوي: أحمد أحمد ـ شاعر بني حمدان ـ ص: ٦١.

وترينا أن شاعرنا لم يكن بعيداً عن أبي المعالي؛ ولا هذا الأخير عدّ استيلاء أبي فراس على حمص عداوةً له، بل تصوّر لديه أنه واقع طبيعي لمنزلة شاعرنا، ورفعة قدره في حياة سيف الدولة، الذي كان يلقي على مسامعه ألفاظ الإطراء والرضى على ابن عمه[1].

وهكذا نستطيع القول، أن هناك تشويهاً معتمداً في عنونة تلك الحقبة بأنها صراع بين الشاعر وبين ابن سيده وأميره الذي أحبّه وافتداه بكل غالٍ ونفيس. وهو التشويه نفسه الذي صور تربع الشاعر على حمص، ثأراً قديماً أعاد به السيف إلى غمده، وأرجع حقّ أبيه المسلوب الذي اغتصبه سيف الدولة.

وفاته:

إن وفاة أبي فراس تتصل اتصالاً مباشراً بما بينّاه في استيلائه على حمص وجعلها تابعة له تحت سلطته. وملابسات التاريخ وحدها، جعلت شاعرنا متهماً بالخيانة ضدّ ابن سيف الدولة القاصر آنذاك، وأنه نال جزاء غدره بابن سيّد بني حمدان، حين حاول الاستقلال بحمص بعد وفاة سيف الدولة. ولذا وجب علينا أن نكشف تلك الملابسة، ونُري القارىء أن وفاة الشاعر كانت دفاعاً عن ملك سيّده وابن عمه الحاضن له، في مماته، كما كان مدافعاً عنه في حياته.

لقد انتقل الحكم إلى أبي المعالي وهو في الخامسة عشرة من عمره ـ كما سبق وذكرنا ـ وفتح عينيه، ليري فوق رأسه ذاك الغلام التركي، الذي عهد إليه سيف الدولة قيادة الجيش، كما هي الحال عند كافور الإخشيدي الذي كان يتولى قيادة الجيش عند موت سيده. وهكذا مثل «فرغويه» دور كافور، وسعى إلى السيطرة على أبي المعالي، وتسييره ضمن الأهواء التي رسمها لنفسه ليصبح هو الحاكم الوحيد في أمارة حلب. وقد استطاع أن يجعل أبا المعالي يخضع لسلطته، ويصدّق ما يصوّره له، في وجوب إقصار أبي فراس عن حمص حفظاً لمُلكه، وصوناً لشرفه ومستقبل كرامته. وكان شاعرنا عكس ذلك تماماً. فهو يرىّ في نفسه معاوناً لأبي المعالي، وساعياً لحفظ أمارته، لا راغباً في سلبها منه[2]. وما توليته لحمص إلاّ من أجل أن تبقى مصانةً يتولاها سعد الدولة متى شاء، بعدُ أن يكون الشاعر قد أبعدها عن مطامع فرغويه، وجشعه المتطرف للاستيلاء على

---

(١) الدهان: سامي ـ ديوان أبي فراس ـ ج ٣ ـ ص: ١٦٣.

(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ـ ص: ٩١.

الملك. ثم يعيدها إلى أبي المعالي، بعد فضح مرامي فرغويه الغادرة، وكشف تطلعاته الخيانية[1] وقد أحسّ فرغويه بنوايا أبي فراس، وهو العليم بوفاته لسيف الدولة وابنه من بعده فسيطر على تحركات الصبيّ القاصر ومقاصده، ولم يُسمع صوته الحقيقي إلى الناس، بل جعله يخضع للأمر الذي يسير به. ولم يقف شاعرنا حائراً أمام هذا التجنّي الواضح، بل سارع للاستيلاء على حمص، فيجعلها قاعدةً، أو نواةً للوقوف بوجه فرغويه، لينزع إرادة التسلّط من يده، ويجنب آل حمدان سيطرته البغيظة. وقد أدرك أبو المعالي قصد خاله، فسارع للظهور معه، إعلاناً للناس إنه إلى جانبه. ولم تخف هذه النوايا على فرغويه، وخشي أن يتفق الخال وابن أخته عليه، فسارع فرغويه إلى الإعلان بأن سيف الدولة جعله وصياً على ولده القاصر، وأن عليه أن يحميه من أطماع أبي فراس، وشهوته الجامحة للسلطة، في سبيل الاستيلاء على ملك أبيه. ثم نادى بالمناداة لقتال ابن عم سيف الدولة في جيشٍ جرار، زحف وهو على رأسه؛ فالتقى به قرب «صدد». وجرت معركة غير متكافئة سقط فيها أبو فراس مضرّجاً بدمه في جمادى الأولى سنة (٣٥٧هـ) الموافق ٤ نيسان من سنة (٩٦٨م) عن عمرٍ لم يتجاوز السبع وثلاثين سنة. وبقي فرغويه يخادع أبا المعالي ويمالئه حتى سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) حيث طرده من الملك واستقل به، متشبهاً بنظيره كافور الإخشيدي. ويروي ابن الأثير نقلاً عن ابن خالويه[2]، أن أبا فراس أنشد عند موته مخاطباً ابنته امرأة أبي العشائر الحمداني:

أَبُنَيَّتي لا تجزعي ... كُلُّ الأنام إلى ذَهَابِ
نوحي عليَّ بِحَسْرَةٍ ... مِنْ خَلْفِ سِتْرِكَ والحِجابِ
قُولي إذا كَلَّمْتِني ... وَعَيِيْتُ عن رَدِّ الجَوابِ
زَيْنُ الشَّبَابِ أَبو فراسٍ ... لَمْ يُمَتَّعْ بالشَّبَابِ

آثاره:

تتجسّد آثاره في ديوان شعر مطبوعٍ بطابع الوجدانية الخالي من المدح التكسبي الذي شاهدناه عند سائر الشعراء. فهو شاعر أمير قمة في الأنفة والكبرياء، ولم يخضع شعره لتكسُّب أو إزلال، اللهم، ذلك الذي قاله في ابن

---

(١) الدهان: سامي ـ ديوان أبي فراس: ت: ١٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ـ ج ٨ ـ ص: ٢٣٦.

عمه، وهو مديح فخر لا مديح تكسب. وقصائد أبي فراس في هذا الديوان، من جيد الشعر وأحسنه عزّةً وفخراً. وقد نشرت دار صادر في بيروت هذا الديوان، نقلاً عن مخطوطة المكتبة العبدلية الصادقية التونسية عام (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) بيد أن هذا الديوان جاء مبتوراً، بعيداً عن التحقيق العلمي الواجب الوجود في مثل هذه الحال. بحيث غاب عنه التحقيق اللازم للكفاءة والشرح اللغوي الواجب للمعرفة. وهناك طبعات للديوان ذكرها بطرس البستاني في دائرة المعارف فقال[1]: لأبي فراس شعر سائر في متنوع الموضوعات جمعه بعد وفاته أستاذه وصديقه ابن خالويه، وشرحه، فجاء متوسط الحجم. وقد طبع ثلاث طبعات في بيروت خلال السنوات الميلادية: ١٨٨٣م، و ١٩٠٠م، و ١٩١٠م. وقد عُني بتحقيقه، الأديب السوري، والمحقق المعروف، الأستاذ سامي الدهان، فأخرجه إخراجاً لائقاً في ثلاثة مجلدات، حوت وصفاً للمخطوطات التي استند إليها. ونشر الشعر المحقق مع التعاليق والحواشي والفهارس، في منشورات المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٤٤م.

(١) البستاني: بطرس: دائرة المعارف ـ ج ٥ ـ ص: ٣١.

الفصل الثالث

أغراضــه الشعريــة

- غزله
- مدائحه
- إخوانياته
- مفاخره
- رومياته
- أغراض أخرى

أغراض شعره

اتفق الدارسون لشعر أبي فراس، وتحليل قصائده أن هذا الشاعر كان بعيداً عن الصناعة، وما شابهها في إفساد سليقته النقية من كل تكلّف. فهو أمير وجداني، يرسم شعره بضمير البعيد عن تكسب الشهرة، والميل إلى جمع الناس حوله. وهمه يأتي في الدرجة الأولى، إعلاء شأن منزلة التقصد، لتكون في مستوى الأمارة الحمدانية، وبلاط سيدها سيف الدولة. وأشعاره تنبئنا بفحوى هذه الميزة، التي تعرض أغراض نفسه، وشؤون حياته، المبسوطة أمام كل باحث عن طبيعة قصائده الملوّحة بنور الشمس، والمضوّعة بعطر الزهر، والمتفتحة في ربيع الصفاء، المبلل بقطرات ندى شفافية نفسه النقية الطاهرة[1].

ولعل التوغل فيي قراءة قصائده، تنبينا عن توالد أغراضٍ تزخر بفيض من مكامن نفسه، الدائمة الخيال في عالم التفكر الثاقب، تستخرج منه حقيقة الواقع المبتدع من روحانية ذلك الخيال، كيما يصبح حقيقةً يبتكرها من كان في مثل ابن حمدان، المجلّي في قريحةٍ تهيم به مجنّحة محلّقة، ليلونها بتغيير فطري، ينمُّ عمّا يختلج في نفسه البعيدة عن التصنّع والتكلّف، والأهواء الدافعة إلى التقليد المستجدي من المتقدم، ما يساعد المتأخر على النجاح المتكسب. فأغراض شاعرنا لم تعرف التكسّب حتى من رسم الأحرف، وصياغة قواعد سبكها، وضبط أصول لغتها؛ بل إنه وضع ما كان يملكه من سعة المعرفة، في إطار خلقه الشخصي، ليعطي الناس من فنٍّ ذاته، ما ينبىء عن شاعرية رجل بلاط وجيش، في حكم وصراع دولٍ، تجعله يبدع ما يعبر عن سياسة ذلك الحكم، وصراعه مع سائر الدول، في ابتكار ذاتيٍ رصينٍ متّزن. ويكفينا توافقاً مع هذا القول، ما أوضحه الشاعر مقّصداً[2]

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ـ ص: ٨٧.

(٢) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٤.

الــشُّــعــرُ ديــوانُ الــعَــرَبْ ـ أيــضــاً ـ وعُــنــوانُ الأَدَبْ
لَــمْ أَغــدُ فِــيــهِ مَــفَــاخِــرِي وَمَــدِيــحَ آبــائــي الــنُّــجُــبْ
وَمــقــاطَــعَــاتٍ رُبَّــمَــا حَــلَّــيْــتُ مُــنْــهُــنَّ الــكُــتُــبْ
لا فــي الــمَــدِيــحِ وَلاَ الــهِــجَــاءِ وَلاَ الــمُــجُــونِ وَلاَ الــلُّــعَــبْ

ولم يكتفِ أبو فراس بنفحنا ما يعجُ في مجتمع العصر، من عاداتٍ وتقاليدِ، تنبىء عن صيغة ما تعارف عليه أبناء تلك الحقبة الزمنية، بل نراه يفجّر في قصائده ينابيع صافية، تجري بزلال صفاء الأصالة العربية، الغارسة في صفحة النفس الإنسانية، إصراراً حميمياً، تزكيه الذات الأبيّة، البعيدة عن المعميمات والتعقيد، والإغراق في مجاهل اللبس البعيد عن الكشف، والوضوح الجليّ[١].

وغرض الشعر عند الحمداني، مساوقٌ للذوق العربي الرهيف الحساسية، لاستجلاء مكامن الظرف والكياسة والذكاء؛ وإظهار رقة الطبع وحسن الشمائل؛ وإبراز المعرفة الواسعة، بشؤون اللغة، حيث الفصاحة والبلاغة والبيان، وامتلاك التراث الأدبي الموشح بالفكر والتاريخ. ولكن الشاعر، لم يسر على نهج هذا القياس، دون ابتكارٍ في التحديد الذي رآه واجباً في مكنونات شعره. فقد جعل للمديح حدوداً لا تتجاوز آباءه وأقاربه. أمّا الهجاء فقد ترفّع عنه وأهمله، ورأى فيه انحداراً لذاته، وهو الأمير الذي لا يليق به أن ينزل إلى مستوى السباب؛ ثم ليس هناك من يساويه كفاءةً لينحدر إلى إقذاعه بما هو أرفع منه. وكذلك ترفع عن المجون، والتخلق بأخلاق المتهتكين، المغرقين في الابتذال، ومفاسد الآثام والعيوب[٢] فشعره في جميع أغراضه، خالٍ مما يشوبه، ويلحق به الدهشة والإستغراب للفحش والإقذاع. بل على العكس من ذلك فهو نقيٌ زلالٌ صافٍ، ينم عن مظاهر الأصالة، والأمارة العربية الجديرة بالإعزاز والتكريم.

غزله:

إن الشفافية التي غلّفت قلب أبي فراس، جعلته خافقاً بحب المرأة القريبة من شهامة كل فارسٍ لعب بالسيف، فألعب الزمان بقصص بطولاته الدائرة في محافل الرجال، حيث تتجاوب أصداؤها في حلقات النساء الممجدة لبطولات الفرسان، والساعية لكسب ودّهم، فتكون فتاة أحلامهم، المتغنّين بحسنها وجمالها.

---

(١) فروخ عمر: أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم ـ ص: ٤٢.

(٢) الدهان: سامي ـ ديوان أبي فراس ـ ت: ١٥.

وشاعرنا المرهف الحساسية، عرف الحبّ قلبه التقيّ الصافي، وأفسح للمرأة مكاناً سامياً، أراده رفيعاً ساحقاً بالأنفة والشمم، وأرادته الأحداث الدائرة بأمارة بني حمدان، نائياً عن التمتع بحلاوة الأنس والصفاء، لدوام المعارك الصارمة المفجعة بين العرب والروم. ولم تكتفِ الأقدار بوضع شاعرنا الفارس في مواجهة الروم، بل دفعته لقتال الإخشيديين والقبائل الثائرة؛ والقرامطة والأحزاب المنضوية تحت لوائها. وفي هذا الوضع الدائم الحرب والصراع، لم يجد شاعرنا الوقت المتسع المريح لتعاطي الحب، والغرف من معينه الزلال[١].

بيدأن هذا، لا ينفي ما اختلج به فؤاده، من عشق حار الانجذاب، جيّاش العاطفة، يسيل على لسان المحبّين، كأنه العسل الجاري بشهده، لينشر الحلاوة بطيب مذاقٍ عذب. وإذا أردنا مشاهدة الحبّ الذي نازعه الحنين إلى من يهوى، فيكفينا أن نقرأ أبياته التي ذاعت بين المحبين، وصارت نشيدهم في تفريج جذوة عشقهم الملتهبة، والتي يقول في بعضها[٢].

أَرَاكَ عَصِيّ الدَّمْعِ شَيمتُكَ الصَّبْرُ	أَمَا لِلْهَوى نَهْيٌ عَلَيْكَ ولا أَمْرُ
نَعَمْ أَنَا مُشْتَاقٌ وَعِنْدِيَ لَوْعَةٌ	ولكِنَّ مِثْلِي لاَ يُذَاعُ لَهُ سِرُّ
إِذَا اللّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطْتُ يَدَ الهَوَى	وَأَذْلَلْتُ دَمْعاً مِنْ خلائقِهِ الكِبْرُ
تَكَادُ تُضِيءُ النّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي	إِذَا هِيَ أَذْكَتْهَا الصَّبَابَةُ والفِكْرُ

فأيّة شاعرية هذه التي تُرسل الغزل من روح معذّبةٍ بالألم الجلود، والدمع الكاوي لمحاجر العين، دون أن تفضح عشقها، أو تري مكامن شوقها للحبيب. إنه العشق النبيل، النابع من شوامخ القصر الحمداني، المترف بجميل ما يُري، والمعذّب بشقي ما يُخفي. إن غزل الحمداني يُذيع على الملأ عنوان عظمة الأمارة في قانون الحب فيقول: للقلب كل الحق أن يحب من يشاء؛ ولكن، ليس له حق بأن يُذل النفس، أو يُشقي الروح أمام الناس، إذا آلمه الحبّ. بل عليه أن يخفي لوعته ويظهر صبر الرجولة الحقّة[٣].

وأنت إذا تمعنت بمعاني هذا الغزل الملوّن بجمرة الدم الجاري في العروق، وظلال الحبّ المتماوج بحرقة نفسٍ مكبوتة، لرأيت عبراتٍ تذرفها محاجر

(١) الحوفي: محمد محمد: الخلان والزمان بين أبي فراس والبارودي (١٩٤٧) ص: ٨١٥.
(٢) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٦٨.
(٣) شرارة: عبد اللطيف: أبو فراس الشاعر المعذّب ـ بيروت (١٩٦٣) ص: ٦٢.

ملتهبة، وزفراتٍ تخرج بين الضلوع، مكتويةٍ ببعادٍ طال أمد عذابه. إننا نقف أمام غزل جديدٍ لم نعهده عند سائر الشعراء الذين عالجنا قصائدهم في هذا المضمار. هو غزل رجولة تتعذب كالأطفال، وتكتم العذاب بإرادة الصناديد الكبار. وتطربنا تلك النداءات الممزوجة بآهاتٍ، يُجاب عليها بقوله: «نعم أنا مشتاق وعندي لوعة». لكن هذه الإجابة بنظر المحللين ليست «نعم» المجيبة بمعنى الملبيّة؛ بل هي تعبيرٌ عن كبت داخلي يُسمع أنينه وانسحاقه. ولو كان كما يُظن لأول وهلة، لكان الجواب «بلى» وليس قولة «نعم» وهذا دليلٌ على إخفاء الشاعر لحبّه المكبوت، وجراح الفراق العامل في النفس ما يعمله ألم الصخر الجاثم فوق الصدر، المليء بالشكوى المبثوثة في كل لفظةٍ تترقرق من تلك القصيدة الرائية[1].

أن أبا فراس، شاعر مطبوع على الرصانة والرزانة، ولا يريد للناس أن يعلموا أسرار رجولته العارمة بالحنان والتحنان، والتي تتراءى لكل ناظرٍ صلبةً قاسية، وهي في واقعها رقيقة شفّافة. لذا رأيناه في رائيته هذه يخفي لهيب عشقه داخل صدره، ويمنع عذاب الفراق من أن يظهر ويُرى. وإذا كنا نسمع الشعراء يذكرون الليل في قصائدهم، فلأنه صديقهم الوفي لهم، في كتمان أسرارهم. ولمّا كان أبو فراس من أقرب المقرّبين إليه، فقد سعى إلى بث أشجانه، وعصر دموعه على صدره. وسارع الليل يكفكف حبات اللؤلؤ المنسابة على خدّه، ويواسيه بمعانقةٍ حارة بين ذراعيه، جعلته يبوح له بما يعتمل في أحشائه، ويسرد قصة غرامه العفيف. وبدا من بوحه، أنه ملتاع من صدّ الحبيب وبعده عنه. وقلبه مضنًى من وعوده الكثيرة التي لا تصدق. وإذا عاتبه يبدي أعذاراً واهيةً، لا تقرب من تصديق.

ولمّا كان حبه لا يقوى على الهجران، فإنه يقبل العذر. والغريب العجيب أن حبيبه يفتح أذنيه لمكر الحاسدين، وكذب الواشين، ويصدق ما يقولون؛ بينما هو يقفل أُذنيه عن كل واشية أو نميمة، ولا يسمح للئيم حاقد، أن يبثه نميمةً تفرق بينه وبين من يحبّ. ومما يجب لفت النظر إليه، أنّ الشاعر وإن تراءى لنا

---

(١) المحمد: محيي الدين: الشاعر الأمير وأمير الشعراء ـ مخطوطة رقم (١٥) ص: ٢٧. كانت هذه المخطوطة قد أعدت للطبع في أواخر سنة (١٩٥٧) بيد أن الأحداث التي وقعت سنة (١٩٥٨) أخرت صدور إخراجها من المطبعة، ولم يُعلم بعد ذلك ما الذي حلّ بالأعداد؟ هل أبصرت النور أم لا. فالمؤلف لم يصله منها شيء.

متقلباً حيال من يحب بين الضعف والكبرياء، بحيث يبدو لنا في بعض قصائده منصاعاً للحبيب، منجذباً لإغرائه، خاضعاً لإرادته، كمثل قوله:[١]

وَسَائِلَةٍ عَنّي فَقُلْتُ، تَعَجُباً: كَأَنَّكِ لاَ تَدْرِينَ كَيْفَ المُتَيَّمُ
أَعِزِنِي، أقيكَ السُّوءَ نَظْرَةَ وَامِقٍ لَعَلَّكَ تَرْثِي، أَوْ لَعَلَّكَ تَرْحَمُ[٢]
فَمَا أَنا إلاَّ عَبْدُكَ القِنُّ في الهوى وَمَا أَنْتَ إلاَّ المَالِكُ، المُتَحكمُ[٣]
وأرْضَى بِمَا تَرْضَى عَلَى السّخطِ والرِّضا وَمَنْ لِيَ بالإِنْصَافِ والخَصْمُ يَحْكُمُ

فهذه الذاتية المنسحقة بحبٍّ قاتلٍ ذابح، لا يتلاءم والمشهور عن كبرياء شاعرنا، في مجال التماسك، والرصانة والتوازن. وهو الذي يقف البعيد عن معرفة أبي فراس معرفةً شاملة، مشدوهاً، فاغراً فاه، متعجباً كيف يسمع للحمداني مثل هذه المزلّة. ولكنه سرعان ما تعود إليه نظرة الإعجاب والتقدير المعروف للشاعر، حين يسمع قوله[٤]:

أَمَا لِجَمِيلٍ عِنْدَكُنَّ ثَوَابُ وَلاَ لِمُسِيءٍ عِنْدَكُنَّ مَتَابُ؟[٥]
لَقَدْ ضَلَّ مَنْ تَحْوِي هَواهُ خَرِيدةٌ وَقَدْ ذَلَّ مَنْ تقضي عَلَيْهِ كَعَابُ[٦]
ولكِنَّنِي، والحمدُ لِلّهِ، حَازِمٌ أعِزُّ إذَا ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقَابُ
وَلاَ تَمْلِكُ الحَسْنَاءُ قَلْبِيَ كُلَّهُ وَإِنْ شَمَلَتْهَا رِقَّةٌ وَشَبَابُ
وأَجْرِي فَلا أُعْطِي الهوى فضل مِقْوَدِي وَأَهْفُو وَلاَ يَخْفَى عَلَيَّ صَوَابُ[٧]

وفي هذا القول، يبدو شاعرنا على حقيقة واقعه الكبريائي العفيف، المترفع عن الصغائر، والبعيد عن الإذلال مهما قست الظروف، وتنوّعت الأحوال. وهناك من حاول التجنّي على الشاعر، وجعله في هذه الفوارق المتناقضة، بعيداً عن الصدق، والانسجام مع الذات. ويغالي ذلك البعض، حين يجعله غير صادق في عاطفته، ومنسجم مع نفسه. وبذلك يتجنّى عليه، ويقسو في حكمه على رجلٍ هو

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٧٠.
(٢) وامق: محبّ.
(٣) القِنّ: العبد المملوك.
(٤) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٢١.
(٥) متاب: مصدر ميمي من تاب، وهو التوبة.
(٦) الخريدة: جمع خرائد وخُرّد. وخُرّد: الخرود: اللؤلؤة لم تُثقَب.
(٧) المقود: الزمام ـ أهفو: أزلّ وأُخطيء.

إنسانٌ كسائر الناس، قبل أن يكون شاعراً. وهو كإنسان يمر في متقلّباتٍ من الظروف المتباينة الحالات. فقد يكون في موقع يشعره بالصلابة والجلد، فيبدو قوياً متماسكاً، وقد تأتيه حالات تضغط عليه فتحيطه بواقع ضعيف. وهذا المتجني على الشاعر في غزله المتفاوت بين الضعف والقوّة؛ ألم يخطر بباله أن شاعرنا كسائر الشعراء حين يحفُ به الشوق، فيملك الحبيب ناصيته ويزعزع تماسكه فيضعف. ونراه هو هو، المترفّع الأبيّ العنفوان، تشدُّ به أمارته، إلى علٍ، وتمنعه من الانحناء أمام أيّ حبٍّ مهما ملك عليه شغاف نفسه. وما ذلك، إلاّ أنه في موقف يشدّه إلى رجولته ويمنعه من الانكفاء عن الذات الأصيلة الجذور.

وبما أننا نتناول غزل أبي فراس بالمطلق؛ فهذا لا يمنعنا من تناوله بحالاتٍ خاصة، كهذه التي نحن بصددها، والتي تختلف فيها عاطفته باختلاف الظروف المحيطة به. فإذا كان الظرف، يتطلب اللذاذة، والاستمراء العاطفي، وليس في جوانبه ما يشيب وينقص، من المواقف القتالية العسكرية، أو ما يماثلها، بدا لنا شاعرنا، في شفافية تنبسط وترق لسيطرة الحب وسطوته، تترقق من مشاعره، حتى تبلغ موطن العاطفة الشاعرية المنسابة في لين محموم مؤثر، فيصدر من ملكة قصائده، شعر يبدو لك في نظمه، وكأنه أصبح ملكاً للمرأة، تجرّه بعشقٍ ووله، كما يجر المالك مملوكه. وهذا الأمر يصبح على طرفي نقيض، حين تملك عليه رجولته كل حواسه؟ عندئذٍ يظهر لنا بعنفوانه الحمداني، الذي يأبى عليه الضعف أو التخاذل، مهما غلا به العشق، أو شدّه الحب بجاذبية العاطفة[1].

وغزل أبي الفارس يتفاوت بين التقليد والتجديد. فمرّةً تلمح أبياتاً غزلية كمطلع لقصيدة، كما هي الحال في قصائد العصر الجاهلي، وهيكليته الموروثة. ومرّةً أخرى نراه في قصائد غزليّة مستقلّة، مأخوذة من واقع التجديد الحاصل في العصر العباسي. وغرض أبي فراس في الغزل، يتبع التوسط الكامن في قول الحسن المحبوب. فلا هو إبداعٌ يرقى إلى القمة، ولا هو إسغاف يهوي إلى مداوك الانحطاط. أمّا معانيه، فنضعها في موضع المتعارف عليه عند سائر الشعراء. أخذ عنهم وقلدهم في كل ما تناولوه من وصف للعيون والخدود والقدود والأرداف؛ كما قلدهم في وضع الغزل المسبوك على شكل قصة مشوّقة،

(١) المارديني: زهير ـ شاعر أمارة بني حمدان (١٩٧٥) ص: ٣٥.

يدور فيها الأحاديث الجذابة بين المحبين. وهذا ما نطلق عليه اسم الغزل الحضريّ، الذي أنبتته بيئات الحضر الآخذة بمقاليد الشعر في عصور البحبوحة والرخاء[1] ومن عيّنات شعره القصصي المعنون بحكايات وصفٍ لخلوات المحبين نأخذ قوله[2]:

أَقْبَلَتْ كالبَدْرِ تَسْعَى غلساً نحوي، براحِ[3]
قلتُ أهلاً بفتاةٍ حَمَلَتْ نورَ الصباح
عُلَّلي بالكأسِ مَنْ أصْـ ـبَحَ مِنْها غَيْرَ صاحِ[4]

إنه شعر عذب الألفاظ، مستحسن الوقع، يتناول المحبوب في وصف رقيق مستساغ، ولكنه يسير على قاعدة التقليد البعيد عن الإبداع المبتكر، والمعاني المولّدة بالعميق من الجدّة. فالشاعر يظهر داخل نفسه بسطحية عفوية، لا تلامس مكامن المشاعر النفسية، بوصفٍ يسبر غورها بوضوح رؤية، وعميق إحساس.

وفي جهة أخرى، نرى الشاعر يقف على الديار، كما كان الشاعر والجاهليون يسائلون الأطلال، ويناجون الأحبة المهاجرين عنها. فشعره في هذا المضمار تقليدي، ولكنه مرمّق الألفاظ، حضريّ السبك، بعيد عن التعقيد والتقعير، ويتوافق مع أمراء القرن الرابع الهجري، السادس عشر الميلادي، في إطلالته التي يقول فيها[5]:

أَبَتْ عَبَراتُهُ ألاّ انسكابا وَنَارُ غَرَامِهِ إلاّ التهابا
وَمِنْ حَقِّ الطُّلولِ عليَّ ألاّ أُغِبَّ مِنَ الدُّمُوعِ لَهَا سَحَابا
وَمَا قَصَّرْتُ في تَسْآلِ رَبْعٍ ولكنّي سَأَلْتُ فَما أَجَابا[6]
رَأَيْتُ الشَّيْبَ لاحَ فَقُلْتُ أَهْلاً وودَّعْتُ الغِوايةَ والشَّبَابا[7]
وما أنْ شِبْتُ من كِبَرٍ وَلَكِنْ رَأَيْتُ من الأَحِبَّةِ مَا أَشَابا

---

(١) صدقي: محمد ـ شعر أبي فراس بين التفريط والغلوّ ـ القاهرة (١٩٦٣) ص: ٢٢.
(٢) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٥٠.
(٣) الغلس: الليل. وهي الظلمة في آخر الليل وأوله.
(٤) عللي: أسقي عللاً: مرة بعد مرة.
(٥) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٣٢.
(٦) الربع: مكان الارتباع للقوم والإقامة في الربع.
(٧) الغواية: الجهالة.

بَـعَـثْـنَ مـن الـهُـمُـومِ إلـيّ رَكْـبـاً وَصَـيَّـرْنَ الـصُّـدُودَ لَـهَـا رِكَـابـا[١]

وهذه أبيات مستملحة، يطيب فيها المطلع الغزلي السائر بين العرب بالتقليد المتبع. وأطيب ما فيه من عذرية، تلك الاستعارة الجميلة في قوله «إلى أن رقّ ثوب الليل عنّا».

ومن وُفِّق في التبحر بقصائد الأمير الحمداني، يتراءى له اختلاف الحالات التي نظم فيها تلك القصائد. فهناك حالات الحبّ الطاهر النقيّ، وما ينضح من نفثات التألم، والعذاب بنار البعاد، والاكتواء بحرمان صدّ الحبيب، وشدّة تضييقه على محبّه الخاضع لمشيئته. وهو حب صادق نابعٌ من عشق يهيم بالروح لا بالجسد. وهناك حالات الحب النابع من الميول الجنسية، المنصرفة للتمتع بجسد المرأة. وهي حالات اللهو التي انصرف فيها شاعرنا إلى العبث المادي في أيام شبابه؛ حيث المتعة بجسد المرأة الملتهب، حتى إطلالة الفجر، شأنه في ذلك، شأن سائر الشعراء. وهذا النوع من الغزل نجده في قوله[٢]:

لَبِسْنَا رِدَاءَ الـلَّـيْـلِ والـلَّـيْـلُ وَاضِـعٌ إلـى أنْ تَـرَدّى رَأْسُـهُ بِـمَـشِـيـبِ[٣]

وَبِـتْـنَـا كَـغُـصْـنَـيْ بَـانَـةٍ عَـابَـثَـتْـهُـمَـا إلَى الصُّبْحِ رِيحَا شَمْأَلٍ وَجَنُوبِ[٤]

بِـحَـالٍ تَـرُدُّ الـحَـاسِـدِينَ بِـغَـيْـظِـهِـمْ وَتَـطْـرُفُ عَـنَّـا عَـيْـنَ كُـلِّ رَقِـيـبِ[٥]

وكذلك يتجدد هذا النوع من الغزل الصارخ بالمتعة في أبيات أخرى، نلمحها في كثيرٍ من القصائد العارمة بمثل ما حواه غزل امرىء القيس الفاحش، وذلك الذي أورده عمر بن أبي ربيعة. ومن مثل ذلك قوله[٦]:

بِـأبـي وأُمِّـي شَـادِنٌ قُـلْـنَـا لَـهُ: نَـفْـدِيـكَ بِـالأُمَّـاتِ والآبَـاءِ[٧]

رَشَـأٌ إذَا لَـحِـظَ الـعَـفِـيـفَ بِـنـظـرةٍ كَـانَـتْ لَـهُ سـبـبـاً إلـى الـفَـحْـشَـاءِ[٨]

وَجَـنَـاتُـهُ تَـجْـنِـي عَـلَـى عُـشَّـاقِـهِ بِـبَـدِيـعِ مَـا فِـيـهَـا مِـنَ الـلألاَءِ[٩]

---

(١) الركاب: جمع ركوبة. وهي ما يركب من الدواب. والركاب: موضع القدم للفارس من الدابة.
(٢) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٢٨.
(٣) راضع: مقيم، وشديد الملكة ـ تردّى: لبس رداءً.
(٤) البانة: واحدة البان، الشجر الطويل الساق ـ عابثهما: حركتْهُما ولعبت بهما.
(٥) الغيظ: الحنق والغضب ـ تطرف: تصاب بالطرف، أي تدمع من القذى.
(٦) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٨.
(٧) الشادن: ولد الظبية.
(٨) الرشأ: الظبي الغرير ـ الفحشاء: الزنا وعمل القبيح.
(٩) اللألاء: الضياء.

والجديد في إباحية أبي فراس، تلك الكناية في «الرشأ» التي تتحول إلى استعارةٍ، تجعله من لحظه، يجعل العفيف الطاهر، منجذباً إلى الجنس المليء بأنواع الفسق والفحشاء.

وإذا سألنا عن المرأة التي تولّه بها عشق أبي فراس، وتذللها كامل عفته، لوجدناها قريبةً له من لحمه ودمه؛ وهي جميلة بنت ناصر الدولة[١] ولغزله بابنة عمه قصة تتلخص في أنها حجّت مع جماعة من بني حمدان في إحدى السنوات، وعند ذهابها مع تلك الجماعة، وقف شاعرنا مودعاً لها بعينٍ تفيض بالدمع، ونفسٍ شاخصةٍ إلى المكان الزاهية إليه، وروحٍ تهيم عفةً وطهارةً بمن ملكت عليه ليله ونهاره فقال فيها[٢]

وقــائــلــةٍ مَــاذَا دَهَــاك تَــعَــجُــبــاً ... فَقُلْتُ لَهَا: يَا هَذِهِ أَنْتِ والدَّهْرُ
أبالبَيْنِ؟ أمْ بالهَجْرِ؟ أم بِكِلَيْهِمَا ... تَشَارَكَ فِيمَا سَاءَني البَيْنُ والهَجْرُ؟
يُذَكِّرُني نَجداً حبيبٌ بِأَرْضِها ... أَيَا صَاحِبَيّ نَجْوَايَ هَلْ يَنْفَعُ الذكرُ
. . .أُشيّعُهُ والدّمعُ مِنْ شِدّة الأسى ... عَلَى خدِّهِ نَظْمٌ، وفي نَحْرُهُ نَثْرُ
وَعُدْتُ وقلبي في سِجَافِ غَبِيطِهِ ... وَلِي لَفَتَاتٌ نَحْوَ هَوْدَجِه كُثْرُ[٣]
وَفِيمَنْ حَوَى ذَاكَ الحَجِيجُ خَرِيدةٌ ... لَهَا دُونَ عَطْفِ السّتر من صوفها سِتْرُ[٤]
وفي الكُمّ كفٌّ لا يَراهُ عَدِيلُهَا ... وفي الخِدْرُ وَجْهٌ ليس يعرفه الخِدْرُ

والبيتان الأخيران من بعض تلك القصيدة، ينبئان عن حالة تلك المرأة المصونة، ليس بالعفاف والشرف فحسب، بل بالحجاب الذي يصون رأسها وكفيها شأن المخدرات من بنات الأشراف، ذوات الحسب والنسب.

وإذا كان غزل أبي فراس، قد أتى على كل ما هو شائع في عصره، فكان لا بُدّ من ذكر الغزل المذكر، الذي أدخله الشعراء في شعرهم، وسموا الحبيبة حبيباً، ووصفوها بنعوت التذكير. وفي مثل هذا الغزل يقول[٥]:

غُــلامٌ فَــوْقَ مَــا أَصِــفُ ... كَــأَنَّ قَــوامَــهُ أَلِــفُ

(١) الدهان: سامي: ديوان أبي فراس ـ ج ٢ ـ ص: ١٨٥.
(٢) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٨٩.
(٣) سجاف: ستور. جمع سجف. غبيطة: الرّحل يُشد عليه الهودج ـ الهودج: مركب النساء فوق الجمال.
(٤) الخريدة: الفتاة البكر لم تمس. والطويلة والحيية.
(٥) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٢٥.

إذَا مَـا مَـالَ يُـزعِـبُـنِـي أَخَـافُ عَـلَـيْـهِ يَـنْـقَـصِـفُ
وَأشْـفِـقُ مِـنْ تَـأوُّدِهِ أَخَـافُ يُـذِيـبُـهُ الـتَّـرَفُ[1]
سُـرُورِي عِـنْـدَهُ لُـمَـعٌ ودَهْـرِي كُـلُّـهُ أَسَـفُ
وأَمْـرِي كُـلُّـهُ أَمَـمٌ وَحُـبِّـي وَحْـدَهُ سَـرَفُ[2]

وممّا قيل عن غزل التذكير عند أبي فراس، إنه عشق غلاماً اسمه «منصور» كان إلى جانب «فاتك» «وصافٍ» من الغلمان الذين يقومون بخدمته، ويساعدونه في الحرب. ومما قاله في منصور[3].

سَبَقَ الـنـاسَ فـي الـهَـوَى مَـنْـصُـورُ فَـسِـواهُ مُـكَـلَّـفٌ مَـغْـرُوْرُ
لَـحِـقَ الـعُـودَ نَـاعِـمـاً فَـثَـنَـاهُ وَهْـوُ صَـعْـبٌ عـلـى سـواهُ عَـسِـيْـرُ
إنَّ حُـبَّ الـصِّـبَـا وَإِنْ طَـالَ لاَ يـقْـدَحُ فِـيْـهِ عَـلَـى الـدُّهُـوْرِ دُثُـوْرُ[4]
فَـهْـوَ فـي أَضْـلُـعِ الـصَّـغِـيـرِ صَـغِـيْـرُ وَهْـو فـي أَضْـلُـعِ الـكَـبـيـرِ كـبـيـرُ

وفي نهاية مطاف غزل شاعرنا الحمداني، لا بد من تعليل ذكر الأبيات الأخيرة في ديوانه، والتي تنسب إليه عشق الغلمان، إستناداً إلى ما أورده في غزله. فهناك من أكد شذوذ الشاعر، بعد وقوفه على معاني أبياته المتغزلة بذكرِ أحبّه وعشقه[5] وهناك من ينفي عنه هذه التهمة، أو يقلل من قيمتها، فلا يجعلها كما هي الحال عند أبي نؤاس، ووالبة بن الحباب، وأمثالها. بل يقول بقلّتها وندرتها[6] والسواد الأكبر من الدارسين، لا يقول بشيء من الشذوذ عند أبي فراس، ويعلل ما نسب إليه، حباً في تقليد شعر العصر الذي أتى على وصف الغلمان؛ فكان لا بد لشاعرنا من أن يحذو حذوهم، وأتانا بشيءٍ من ذلك الغزل البعيد عن الفنية والإبداع المشهور عند أهل الشذوذ، ممن عرفناهم وذكرنا بعضهم.

مدائحه:

المدح عند أبي فراس يختلف عن المديح الذي نعرفه عند سائر الشعراء.

---

(١) تأوده: تمايله وتثنيه ـ الترف: الغنج والدلال.

(٢) الأمم: القريب ـ القليل المسافة.

(٣) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٧٣.

(٤) يقدح: يصيب وينقص ـ دثور: إنمحاء وزوال.

(٥) الدهان: سامي ـ ديوان أبي فراس ـ ج ٢ ـ ص: ١٨٣.

(٦) المرجع نفسه ـ ص: ١٨٤.

كما أن الهدف الساعي إليه عكس ما يسعون هم، وما يبتغون من ورائه. فقصيدة المديح، تعني التكسب، والتملق لدى الممدوح في سبيل الحصول على حفنة من الهبات المالية. أما شاعرنا، فقصائده تنفي هذا الشيء لأنها تتغنى بصفات سيف الدولة، المكتنزة رفعة وجلال قدر، وعلو عائلة عربية المجد. أو تتغنى بمدح النبي وآل بيته الأطهار. والذي يثبت هذا المنحى الشريف البعيد عن الإبتذال ودناءة التكسب قوله[1]:

نَطَقْتُ بِفَضْلِي وَامْتَدَحْتُ عَشِيْرَتي   فَـمَـا أَنَـا مـدَّاحٌ ومـا أَنَـا شَـاعِـرُ

فهذا البيت المسبوك في قصيدةٍ طويلةٍ تقارب المائتين والخمسة وعشرين بيتاً من وصف الذات، وتحديد المزايا، والتعريف بالنفس الأبيّة، الساعية إلى بلوغ قلوب الناس، بخلق السجايا، وعطاء النفس الحرّة، البريئة من كل وصولية ومأرب ماديّ. وتأكيداً لمعنى البيت الأول، يورد في البيت الذي يليه قوله[2]:

وَهَلْ تَجحَدُ الشَّمْسُ المُنِيْرَةُ ضَوْءَها   وَيَسْتُرُ نُوْرُ البَدْرِ، والبدرُ زاهرُ؟

فالشاعر يذكّر الناس، بما عرفوه عنه من المستور من الصفات، والظاهر منها. وليس بحاجةٍ لإعطاء دليل، ما دام سلوكه المعروف من الجميع هو الدليل الأقوى والمقنع. لعلنا في هذين البيتين الناطقين بمنطق الشاعر الصريح المؤكد لهدفه البريء من كل تكسّب، نضع الشاهد المختلج بمشاعر أبي فراس، وأحاسيسه النابعة من إبائه، وترفّعه عن الوصولية المادية.

ولكلمة حق تقال فى هذا المضمار، إنّ المديح لم يكن غرض تكسب، كما هو معروف لدى الشعراء، ولم يكن مألوفاً لديهم في دنيا العرب. والأصل في هذا الفن، أنّه استملح ورُغب إعجاباً بالفضائل، وإكباراً لمن يحميك، وإجلالاً لناشر الأعمال الإنسانية المشرّفة. وشاعرنا العليم بتلك الغاية المستطابة عند الشرفاء، أبى إلاّ أن يعزّزها في قصائد المديح، ويقّوي عنصر الإباء في ذكر صفاتها[3].

ومن الممدوحين الذين خصّهم بهذا الغرض، أبو المكارم، وأبو المعالي، وابن عمه، أبو زهير، المهلهل بن نصر الحمداني. ولكن المقدم على من ذكرنا،

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٨٦.
(٢) المصدر نفسه ـ ص: ٨٦.
(٣) صدقي: محمد ـ شعر أبي فراس في التفريط والغلوّ ـ ص: ٢٥.

سيف الدولة الحمداني، المشمول بأكثر قصائد المديح. ويعود السبب إلى الإعجاب الشديد بأمير بني حمدان، الحكيم، والشجاع، الكريم، المملوء بسجايا المروءة ـ والمكتنزة شخصيته بإباء الضيم ـ وقد زادته انتصارات سيف الدولة في حروبه الطويلة، ومعاركه البطولية مع الروم، اندفاعاً ملحاحاً، لتسجيل تلك المعارك وأهوالها في قصائد تنضح برقعة القدر، والتعظيم. وثمة دافع أقوى، وهو حفظ الجميل الذي غمره به في تربيته له بعد موت والده، حتى استطاع أن ينشئه فارساً يعتد له بالقدرة الخارقة في مواجهة العدو. لذا، فقد اتخذ ابن عمه مثلاً أعلى في الحياة؛ ينهج نهجه خطوةً خطوة، ويقتبس أصالة سجاياه، صفة إثر صفة، ويتخلق بعادته، كما يصل إلى بعض ما ناله كأمير يخفض له جناح الإحترام ويفيه حقه بالتربية والرعاية[1] ومدائحه في ابن عمه تنقسم إلى قسمين القسم الأول ما قاله قبل الأسر، والآخر ما نظمه بعد الأسر. فمن مدائحه له قبل أن يأسره الروم قوله[2]:

قَدْ ضَجَّ جَيْشُكَ مِنْ طُولِ القِتالِ بِهِ ... وَقَدْ شَكَتْكَ إِلَيْهِ الخَيْلُ وَالإِبِلُ
وَقَدْ دَرَى الرُّوْمُ مُذْ جَاوَزْتَ أَرْضَهُمُ ... أَنْ لَيْسَ يَعْصِمُهُمْ سَهْلٌ وَلاَ جَبَلُ
في كُلِّ يَوْمٍ تَزُورُ الثَّغْرَ لاَ ضَجَرٌ ... يَثْنِيكَ عَنْهُ وَلاَ شُغْلٌ وَلاَ مَلَلُ
فَالنَّفْسُ جَاهِدَةٌ وَالعَيْنُ سَاهِرَةٌ ... وَالجَيْشُ مُنْهَمِكٌ وَالمَالُ مُبْتَذَلُ
فَكُنْتَ أَكْرَمَ مَسْؤُولٍ وَأَفْضَلَهُ ... إِذَا وَهَبْتَ فَلاَ مَنٌّ وَلاَ بُخُلُ[3]

إنها نفخة صدق عابقة بمديح السمات الوجدانية، النابعة من نفس تتعلق حقاً بالممدوح، وتسعى للوصول له إلى أسمى درجات الرفعة والعلو. فشاعرنا يرفع من قدر سيف الدولة الموسوم بسمات الشجاعة، والتهافت على القتال الدافع بالجيش الحمداني، لدحر كل معتدٍ أثيم. وكانت الخيل والإبل، في عداد الموصوفين برغبة قتال الغازي، ولكنها لكثرة ما أثقل عليها سيف الدولة، في معاركه العظيمة، توجهت إليه بالشكوى من شدة العياء الذي لحق بها. وعمق الوجدانية يتضح في وصف جيش الروم المنهزم جرياً وركضاً، والضياع يلحق به، بعد فقد الأمل بوجود ما يحتمي به. فلا جبل يظلّه، ويواري انهزامه، ولا منعطف يغطي انكساره. فهو مكشوف أمام ضربات الأمير القاتلة، ولا ينجيه منها منجٍ.

---

(١) صدقي: محمد ـ شعر أبي فراس في التفريط والغلوّ ـ ص: ٢٦.
(٢) الحمداني: سيف الدولة ـ الديوان ـ ص: ١٣٩.
(٣) المن: التنويه بالفعل الجميل من قبل التعبير والافتخار.

ولذا فهو يتوجه إلى الأمير يطلب العفو والحماية، فيجيب الأمير الطلب، ويأوي الجيش المكسور أسيراً في حماه ويصبح مضرب المثل في الناس، وفي العفو عند المقدرة

ولا يكتفي شاعرنا بذكر فضائل سيف الدولة على أعدائه، بل يعرّج في مديحه له، لا على ذكر فضائله عليه، وهو يغمره بعطف الأبوة الصادقة، المعوضة عنه فقد أبيه، حيث جعله ينسى اليتم، ويحس بواجب العرفان بالجميل، لمن أغدق عليه المعروف، وغمره بعاطفة الإنسانية الصادقة. ومن المدائح التي أوردها في هذا المضمار قوله[1]:

هَـلْ أَنْـتَ مُـبْـلِـغُـهُ عَـنِّـي بـأَنَّ لَـهُ ... وُدّاً تَـمَـكَّـنَ فـي قَـلْـبِـي يُـجَـاوِرُهُ؟
وأَنَّـنـي مَـنْ صَـفَـتْ مِـنْـهُ سَـرَائِـرُهُ ... وَصَـحَّ بَـاطِـنُـهُ مِـنْـهُ وظَـاهِـرُهُ

وبعد أن يضع نفسه موضع المتقّد حرقةً وألماً، لعدم تمكنه من إيفاء سيف الدولة بعض نِعَمه عليه؛ والمتألم وحدةً وانكساراً كما رأى نفسه بعيداً عن سيده، وولي نعمته، يعرّج على وصف ابن عمه بما هو أهل له فيقول شامخاً معتزاً:

وَكَيْفَ يَنْتَصِفُ الأَعْدَاءُ مِنْ رَجُلٍ ... الـعَـزُّ أَوَّلُـهُ وَالْـمَـجْـدُ آخِـرُهُ
فَـمِـنْ سَـعِـيْـد بـنِ حَـمْـدانٍ وِلاَدَتُـهُ ... وَمِنْ عَـلـيِّ بـن عَـبْـدِ الـلّٰـهِ سَـائـرُهُ
القَـائِـلُ، الفاعِلُ. الـمَـأْمُوْنُ نَبْوَتُهُ ... والـسَّـيِّـدُ الأَيِّـدُ الـمـيـمـونُ طـائـرُهُ[2]
بَـنَـى لَـنَـا الـعَـزَّ، مَرْفُـوْعـاً دَعَـائِـمُـهُ ... وَشَـيَّـدَ الـمَـجْـدَ مُـشْـتَـداً مَـرَائِـرُهُ
فَـمَـا فَـضَـائِـلُـنَـا إلاَّ فَـضَـائِـلُـهُ ... وَلاَ مَـفَـاخِـرُنَـا إِلاَّ مَـفَـاخِـرُهُ
فَـهُـوَ ابـنُ عَـمِّـيَ دُنْـياً حِيْـنَ أَنْـسُـبُـهُ ... لـكـنَّـهُ لِـيَ مَـوْلَـى لا أُنَـاكِـرُهُ[3]
مـا زالَ لـي نـجـوةً مِـمَّـا أُحَـاذِرُهُ ... لا تَـزالَ فـي نـجـوَةٍ مـمَّـا يُـجَـاوِرُهُ
وَإِنَّـمـا وَقَّـتَ الـدُّنْـيَـا مُـوَقِّـتَـهَـا ... مِـنْـهُ، وَعُـمِّـرَ لِـلإِسْـلاَمِ عَـامِـرُهُ

وضمن ذلك الإعتزاز، يبدو إجلاله المفاخر بفضائل ابن عمّه، الرفيع الجانب، السامق الرجولة. ولذا، فهو يحذر الأعداء من الإقتراب منه، لأنهم لن يتمكنوا من عظيم أصلٍ، ورفيع محتد؛ يبدأ العزّ من تاريخ ولادته، وينتهي المجد

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٠٧.

(٢) الميمون: ذو اليمن. جمع ميامن ـ وهو ميمون الطائر: أي مبارك الطلعة. وسر على الطائر الميمون: دعاء للمسافر ـ نبوته: عثرته.

(٣) هو ابن عمي دنياً: هو ابن عمي لحاً، لاصق النسب، وأقرب أبناء العشيرة إليّ.

إذا فارق دنياه. ولعلّ هذا المديح سابق عند أبي فراس في نوعية معناه المتألق بأول العز آخر المجد. وإذا كنا نرى عند المتنبي قوّة المديح لسيف الدولة، لأنه العربي الأصيل الذي يرى فيه نفسه؛ فهذا ما تراه أيضاً عند أبي فراس المعاصر للمتنبي، والمنافس له في حضرة ابن عمه، طامعاً في إزاحته، وقد غلبه وهجه الشعري، حتى كاد يحل محلّه. وفي مدائح شاعرنا نشاهد قبسات من مدح ذاته، وهو يتوجه إلى سيف الدولة بقوله[(١)]:

وَلكِنَّ قَوْلِيْ لَيْسَ يَفْضُلُ عَنْ فتىً   عَلَى كُلِّ شَيءٍ غَيْرَ وَصْفِكَ قادِرُ
فَلاَ تُلزِمَنِّي خُطَّةً لاَ أَطِيقُها   فَمَجْدُكَ غَلاَّبٌ وَفَضْلُكَ بَاهِرُ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فَخْرِي وَفَخْرُكَ واحِداً   لَمَا سَارَ عنِّي بالمدائحِ وسَائِرُ
وَلكنّني لا أُغْفِلُ القَوْلَ عَنْ فَتَىً   أُسَاهِمُ في عَلْيَائِهِ وَأُشَاطِرُ
وَعَنْ ذِكْرِ أَيّام مَضَتْ، وَمَوَاقِفٍ   مَكاني مِنْهَا بَيِّنُ الفضل ظاهِرُ
مَسَاعٍ يَضِلُّ القَوْلُ فيهنَّ جَهْدَهُ   وَتَهْلِكُ في أَوْصَافِهِنَّ الخَوَاطِرُ
بَنَاهُنَّ باني الثغرِ، والثَّغْرُ وارِسٌ   وَعَامِرُ دينِ اللّه، والدِّينَ داثرُ[(٢)]

فالشاعر يرتفع بذاته مفاخراً؛ ويُعليها إلى مصاف المعجزات؛ ولكنه استدرك تلك المفاخرة، بإخفاض تسارع إعلاء الذات، عند وصولها إلى سدة أمارة سيف الدولة. فهنا يلتف على كرسي ابن عمه، بأنواع الإطراء، والإشادة بالفضل. ومن تلك الإشادة الجاذبة للانتباه قوله:

أَلا قُلْ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ القَرْمِ إِنَّني   على كُلِّ شيءٍ غَيْرِ وَصْفِكَ قادِرُ[(٣)]

حيث يعلي سيد القصر وأميره إلى أعلى مراتب العظمة ومراقيها، ليجعله الأوحد في صفات أعزّه الله بها، واختاره دون سائر الناس لتوليها. وهي مناقبيّةٌ قلّ نظيرها عند الموصوفين، وأبى أبو فراس إلاّ أن يجعلها لمن يمدح. وهذه القصيدة الرائية الموغلة في إغداق صفات المديح الرّاقي، على سيّد بني حمدان في حلب، لا تكتفي بتزيين جوانب الأمارة بالبديع الثمين من المعاني؛ بل تشمل المعارك التي خاضها سيّد القصر، والإنتصارات التي أحرزها، لتجعلها أوسمة عزٍّ في جبين الدهر. فهو يذكر الثغر الذي خاض حدوده، والجيش المندفع بهمة

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٨١.
(٢) الدراس: المتهدم العافي ـ والداثر: البالي أو الزائل.
(٣) القرم: السيّد العظيم.

قائده الحمداني، لدهر الدمستق والقضاء عليه، وما إلى ذلك من صور تشبه إلى حدٍ بعيد، تلك التي لمحناها في مدائح المتنبي. وهي إن دلّت على شيء، فتدل على رغبة أبي فراس، في منافسة غريمه المتنبي، وبزّه في التقرب إلى سيّد بني حمدان. وإذا تتبعنا قوله في ممدوحته التي تتضمن:

وَبَاتَ يُديرُ الرَّأيَ مِنْ كُلِّ وُجْهَةٍ   وَذُو الحَزْمِ ناهِيْه وَذُو العزمِ آمِرُ

فَلاَ هُوَ فيما سَرَّهُ مُتَطَاوِلٌ   وَلاَ هُوَ فيما سَاءَهُ مُتَقَاصِرُ[1]

نلمح رجلاً شامخاً، سامق الصفات، تعجز الكلمات عن الوصول إلى أعتاب فضائله، وطيب شمائله. ونلمح معاني أبيات أبي فراس التي تنبئنا فيما يتنبىء، أن هذا اللفظ في شعره، لا يقصد به المدح، من حيث إغداق الصفات والسجايا بل يأخذ من سلوك الأمير، وحسن تصرفه السامي مع الناس، انطباعاً راسخاً في الضمير، بالتقصير كل التقصير، عن بلوغ الغاية، لإبقاء سيف الدولة حقه، وتعداد واقع مزاياه[2].

صفات بالغة الأثر، يصل الفكر إلى بعض مداركها، ويعجز عن بلوغ المدارك الأُخر وأبو فراس لا يفتأ يذكر ابن عمه وقد بنى دولته، على عظيم من سجايا النفس الحمدانية، العميقة الجزور في مفاخر العرب. ومن هنا، كانت مديحته هذه ممزوجة بمعاني الفخر التي لا يغيب عنها ظلال الفروسية في الأعمال البطولية وألوان الإشعاع الزاهي، بفنية إغداق الصفات على الممدوح. وهناك كما ذكرنا آنفاً، مدائح رفعها شاعرنا لمقام سيف الدولة بعد وقوعه في الأسر عند الروم. وهي ولا شك تختلف عمّا لمحناه في ما قبل الأسر لسببين رئسيين.
الأول: يتعلق بأمّه البعيدة عنه، والمتلوعة لرؤيته، والمتألمة لفراقه. والشاعر يخشى أن يصيبها سوء من ذلك، فيجعل مديحه لإبن عمه ممزوجاً بقلقه على إمه لا متفرّغاً لذكر صفاته. والثاني: يتعلق بقلقه من طيلة أيام أسره، وخوفه من تلكوء سيف الدولة عن الإسراع بدافع الفدية لإطلاق سراحه. لذلك، سنلمح في هذه المدائح ذكراً لأمّه ولنفسه ممزوجاً بوصفٍ لحالة المعاناة في نفسه. ولعلّ هذا المقطع الذين سنورده، يعبّر صادق التعبير عن هذا النوع من المديح، ويغنينا عن ذكر مقاطع أخرى، ستكون ـ إذا أوردناهاـ شبيهةً بما نذكره، تحوي المعاني نفسها

---

(١) متطاول: متعال؛ متكبر ـ متقاصر: متصاغر، مذلول.

(٢) صدقي: محمد ـ شعر أبي فراس في التفريط والغلوّ ـ ص: ٣٢.

أو القريبة منها إلى حدّ كبير. ومن ذلك قوله(١):

يـا سـيّـداً، مـا تُـعـدُّ مَـكْـرُمَـةً | إلاّ وفـي رَاحَـتَـيْـهِ أَكْـمَـلَـهـا(٢)
لا تـتـيـمَّـمْ والـمـاءُ تُـدْرِكُـهُ | غَيْرُك يَرْضى الصُّغْرَى وَيَقْبَلُها(٣)
إنَّ بـنـي الـعـمّ لَـسْـتَ تَـخْـلُـفُـهـمْ | إنْ عَـادَتْ الأُسْـدُ عَـادَ أَشْـبُـلُـهـا(٤)
أَنْـتَ سـمـاءٌ وَنَـحْـنُ أَنْـجُـمُـهَـا | أَنْـتَ بِـلادٌ، وَنَـحْـنُ أَجْـبُـلُـهَـا
أَنْـتَ سـحـابٌ، ونـحـن وابـلـه | أَنـت يـمـيـنٌ، ونـحـن أَنْـمُـلُـهَـا

إنها صفات تعظيم وتبجيل، تعلي من شأن الأمير، وترفعه إلى مصاف الواهب، المعطي ما لا يصل إليه المال، والكنوز الثمينة. إنه يصل بابن عمه إلى حدود الواحد، الذي يعادله في وحدانيته الإنسانية، أحدٌ من بني البشر. فإنسانيته خاصة به؛ وقد ابتدع بها ما لا يقوى عليه غيره. وفاض من إبداعه على الناس، ما حاولوا التشبه به، دون أن يدركوه. ويستمر الشاعر في مدحه لابن عمّه، والأسر يضغط على أعصابه، فتخرج الكلمات ممزوجة بصنفين من الوصف، وصف القدرة السامقة بمركز الأمير العالي المقام، ووصف الهمة العالية التي اتصف بها على مرّ الزمان. ومن ثم إدخال حالة الشاعر القلقة المعذّبة، ضمن تلك الأوصاف. وهذه الأبيات التي سنوردها، تعبّر أوضح تعبير عن تلك المداخلة في الصفات بين المادح وممدوحه، والتي تقول(٥):

يـا وَاسِـعَ الـدَّارِ؛ كـيـف تُـوْسِـعُـهَـا | وَنَـحْـنُ فـي صَـخْـرَةٍ نُـزَلْـزِلُـهَـا
يَـا نَـاعِـمَ الـثَّـوْبِ! كـيـف تُـبْـدِلُـهُ! | ثِـيَـابُـنَـا الـصُّـوفُ مَـا نُـبَـدِّلُـهَـا!
يَـا رَاكِـبَ الـخَـيْـلِ! لَـوْ بَـصُـرَت بِـنَـا | نَـحْـمِـلُ أقـيـادَنَـا، وَنَـنْـقُـلُـهَـا!
رَأَيْـتَ فـي الـضُّـرِّ أَوْجُـهـاً كَـرُمَـتْ | فَـارَقَ فَـيْـكَ الـجَـمَـالَ أَجْـمَـلُـهَـا!

إن الشاعر يحاول اجتذاب مشاعر سيف الدولة نحوه، واستعطاف أحاسيسه ليضمر بها ما يقاسيه في أسره، فيفرّج عنه كربه، ويخرجه من سجن يضغط على أعصابه فيحطمها ويسحقها، من شدة الضيق الذي يلف روحه، التي لم تعتد سوى تنشّق نسيم الحريّة. وجميع قصائد المدح المشابهة، والتي نظمت بعد أسر

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٦١.
(٢) راحتيك: مثنى راحة والكاف للخطاب: والرحة هي باطن اليد.
(٣) التيمم: هو الوضوء بالتراب، إذا كان الماء مفقوداً.
(٤) أشبلها: أولادها. جمع شبل: وهو ابن الأسد.
(٥) [illegible] ـ الديوان ـ ص: ١٦٢.

الشاعر، تأتي على هذا المنوال، حيث تصف عظمة الأمير الحمداني، وفيض جوده، وصعود نجمه نحو السماك الأعلى من الشموخ، بحيث يصعب أن تجد بين الأمراء، من يداني ما هو عليه من رفعة وعلوّ. وغني عن القول، بأن شاعرنا الوجداني، الرقيق العاطفة، الصادق اللفظة يسمو بنفسه إلى قمم الوفاء والإخلاص، التزاماً ببرّه لمن هو في مكانة والده، وإعطائه حق التفخيم والتعظيم في شعره. وهناك نوع من المديح أدخله الشاعر في قصائده ألا هو مدح الرسول الأعظم محمد ﷺ. وأشهر قصائد هذا النوع المدحي القصيدة الميمية التي يعارض بها محمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمي. وتسمى القصيدة الشاميّة. ويبدأ مطلع القصيدة بقوله[1]:

الدِّيْنُ مُخْتَرَمُ، والحَقُّ مُهْتَضَمُ! ... وَفيءُ آل رسولِ اللّهِ مُقْتَسَمُ[2]
والنَّاسُ عِنْدَكَ لا نَاسٌ، فيحفظهم ... سَوْم الرّعاة، ولا شاءٌ، ولا نعمُ[3]
إنّي أبيتُ قليلَ النَّوْم، أَرّقني ... قَلْبٌ، تصارعَ فيهِ الهمُّ والهِمَمُ
وَعَزْمَةٌ، لا ينامُ الليلَ صاحبُهَا ... إلاّ على ظَفَرٍ، في طيِّهِ كَرَمُ
يُصَانُ مهري لأمرٍ لا أَبُوحُ بِهِ ... والدِّرْعُ، والرُّمْحُ، والصَّمْصَامةُ الخَذِمُ[4]
وَكُلُّ مائِرةِ الضبعينِ مَسْرَحُها ... رَمْثُ الجزيرةِ، والخِذْرافِ والعنمِ

وبعد هذا المطلع المليء بالتحذير ممّا وصل الله الدين، بعد طغيان ملك بني العباس بالظلم على آل بيت رسول الله؛ ينتقل الشاعر إلى وصف الحالة السائدة في آل بيت علي، زوج فاطمة الزهراء، وصهر النبيّ، في مثل قوله:

يا للرجالِ أما لله منتصفٌ ... مِنَ الطُّغَاةِ؟ أَمَا للدِّين مُنْتَقِمُ؟!
بنو عليٍّ رَعَايا في ديارِهِمُ ... وَالأَمْرُ تَمْلُكُه النُّسوانُ والخِدَمُ[5]

وبعد أن يغرق في تبيان الثلمة التي أحدثها بنو العباس، في ظلم آل بيت الرسول، وجعل أبناء علي، وهم المطهرون من الرجس، تحت أمرة الخدم والنسوان. يتوجه باللوم، على الحاكمين المتسلطين بالجور والظلم، على أشرف الناس نبلاً ومحتداً فيقول:

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٦٦.

(٢) مخترم: مشقوق ـ مهتضم: غير محترم، فيه ظلم ـ الفيء: الغم، والحق المكرّس شرعاً.

(٣) النعم: الإبل.

(٤) مائرة الضبعين: كناية عن الناقة ـ الرمث والخذراف والعشم: من نباتات البادية.

(٥) إشارة إلى بني العباس، وحكم الموالي والجواري.

أَتَفْخَرُونَ عليهم؟ لاَ أَبَا لَكُمُ ... حَتَّى كأنَّ رَسُولَ اللَّهِ جَدُّكُمُ
وَمَا توازَنَ يوماً بينكم شرفٌ ... وَلاَ تَسَاوَتْ بِكُمْ في مَوْطِنٍ، قَدَمُ
وَلاَ لَكُمْ مِثْلُهُمْ، في المَجْدِ مُتَّصِلٌ ... وَلاَ لَجدِّكُمُ مسعاةُ جَدِّهِمُ

وبعد أن يصف منزلة آل بيت رسول الله، عند خالق الكون، وعند جميع المؤمنون، المصدّقين بالله ورسوله، يتوجه باللوم على بني العباس، على كل ما يسومون به آل البيت ويقول:

هلاّ صَفَحْتُمْ عَنِ الأسْرَى بِلا سَبَبِ ... للصّافحينَ بِبَدْرٍ عَنْ أَسِيرِكُمُ
هَلاّ كَفَفْتُمْ عَنِ الدِّيباجِ أَلْسِنَكُمْ ... وَعَنْ بَنَاتِ رَسُوْلِ اللَّهِ شَتْمَكُمُ
مَا نُزِّهَتْ برسُولِ اللَّهِ مُهجَتَهُ ... عَنِ السِّيَاطِ! فهلاّ نُزِّهَ الحَرَمُ
ما نال مِنهُمْ بنو حربٍ، وإن عظُمتْ ... تلكَ الجرائرُ إلاّ دُوْنَ نيلكُمُ[1]
كَمْ غَدْرَةٍ لكُمُ في الدِّيْنِ وَاضِحَةٍ ... وَكَمْ دَمٍ لِرَسُوْلِ اللَّهِ عَنْدَكُمُ

وتتالى أبياته في وصف المظالم التي نزلت على آل البيت، في العباسيين وقبلهم من الأمويّين؛ وفي وصف ما آلت إليه حال المسلمين من البعد عن جادة الدين الصحيح، حتى ينتهي إلى ذكرهم بما هم عليه من رفعة القدر وعظم المنزلة، فيقول:

الرُّكْنُ والبيتُ والأَستارُ مَنْزِلُهُمْ ... وَزَمْزَمٌ، والصفا، والحِجْرُ والحَرَمُ[2]
صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْهِمْ أَيْنَمَا ذُكِرُوا ... لأَنَّهُمْ لِلْوَرَى كَهْفٌ، وَمُعْتَصَمُ

هذا بعضٌ من مدائحه النبوية، المتصفة بتوثيقٍ تاريخي، يبيّن فيه الشاعر حقبةً سادت فيها فوضى التمرّس بالحكم، الخارج عن شريعة الدين الحنيف، والمتواري تحت راية الإسلام، بكل انحرافاته، وخروجه عن جادّة الصواب. ويبقى المديح، غرض التعفف الأصيل عند أبي فراس، لأنه لم ينحدر به إلى أي تكسب، أو وصولية ـ بل يتصف بوجدانية تنم عن العفّة والترفع عن الدنايا، في زمنٍ جعله الشعراء وسيلةً للتكسب وجمع المال.

---

(١) بنو حرب: هم بنو سفيان، والأمويون.

(٢) هو الركن اليماني في الكعبة. والركن الذي فيه الحجر الأسود ـ البيت: الكعبة المشرفة. الأستار: جمع ستر وهو الذي تلف به الكعبة. زمزم: بئر زمزم ـ الصفا: اسم صخرة بإزار الكعبة، يبدأ السعي بها. الحجر: هو حجر إسماعيل المحاذي للكعبة.

إخوانياته:

هي منظومات نتفٍ ومقاطع، بعث بها الشاعر إلى إخوان غلت مكانتهم في نفسه وعلت. وهم الذين شدّته إليهم روابط عميقة المحبة والتوادد، وقرب العاطفة. وفيها بث الشاعر حنينه، وتلهفّه لمشاهدتهم، ومعاودة استعادة الأزمنة والأمكنة التي كانت لهم مرتعاً وملعباً. هي في مجملها مجمّع صور لملاعب رسموا عليها أحلى ألعاب الصبى، وأجمل ساعات اللعب الصبياني البريء. وفيها يظهر تلك الرسوم بكلماتٍ صافيةٍ معبرّة جامعة. وموضوعات هذه الإخوانيات، تجمع الشكوى والعتاب، والإطراء والثناء، والتهنئة والمباركة، والتعزية والمؤاساة، المسرّة بالشفاء من مرض. وتحوى تلك الإخوانيات بعضاً من مشاركةٍ في حوارٍ حول تبادل رأي أو مناظرةٍ تدور حول أَحسن الطرق وأفضلها لصون الصداقة من أي خللٍ أو انفراط[1].

ومما يلفت النظر إِليه، هذا النوع من الشعر، ابتعدت مراميه في حقل التراسل الشعري، حتى ملأت أوراق ديوان كامل بحجمه، وشكل علاقاته المتصفة بعمق الإِخوانية وصفاتها. والجدير بالذكر، أَن نوع الإخوانيات لدى شاعرنا، لم يصل إلى معرفتها سائر الشعراء؛ وقد بلغ عدد قصائدها ما يقارب الخمسين قبل الأسر، والعشرين بعده، وهو عدد لا يستهان به، وجدير بالتقدير والإعجاب[2].

ونحن لا ننكر أن هذا النوع من الشعر، عرفه شعراء كثيرون قبل شاعرنا، ولكنهم لم يصلوا إِلى العدد الذي وصل إِليه الشاعر من حيث الكم والنوع؛ وتعدد الصيغة في العلاقة بالأُخوة النقيّة الصافيّة. كما لا ننكر أن نكهة الإخوانية في شعر أبي فراس. لها طعم خاص، لا يتذوقه إلاّ من قرأ شعر هذا الشاعر المتميّز.

وإزاء هذه الحقيقة الملموسة في شعر الحمداني، نتساءل ما إذا كان السعي وراء المال لدى الشعراء أَخلى وجدانيتهم من علاقات أُخوية، لم يحاولوا تعزيزها، أَو المحافظة عليها، لأَن السعي وراء المال، كان أقوى عندهم؛ فجعلهم يبيعون الصديق بحفنة دريهمات، أو ينسون الأَخ المخلص الوفيّ، وقت

---

(١) الدهان: سامي ـ الديوان ـ ج ١ ـ ص: ٥٣٣.

(٢) المرجع نفسه: ص: ٥٣٤.

حلولهم في بلاط الأمير أو الخليفة، يمدحونه فيجزيهم بالأبيض والأصفر. وإذا كنا نعلم، أن هذا الغرض الذي بصدده، لا يكون إلاّ بين شاعرين، فلماذا ضعف لدى الشعراء المعاصرين للأمير الحمداني؟ هل لأن التنافس والتنازع لبلوغ بلاط الخليفة، حلّ مكان التوادد، والتواصل، فصار المال أقوى من الأخوة، وحلّ الحسد محلّ الغبطة، فصار الشاعر يسعى لإزاحة صديقه الشاعر، أو من تربطه به رابطة الأُخوة، ليحلّ هو محلّه، ويكسب ما كان يكسبه من سبقه إلى مدح ممدوحه؟ ولماذا لم يسعَ مقصدون القصائد، والمتقدمون من شعراء ذلك العصر، إلى تأليف جامع أخوةٍ، تحقق المحبة في جامع الأُخوة، وتقرّب الشمل إلى ما فيه العيش الكريم، وصحة التواصل بعافية النيّة السليمة الصادقة[١].

هل لعبت قصور الخلفاء، لعبة الإغراء، في الترغيب والترهيب، فقرّبت من أدار ظهره لأخيه، وأبعدت من كان مخلصاً لإخوانه، فقربت الشمل، وشتّتت الأصدقاء، وجعلت الجوائز والأعطيات، تحل محلّ كل سجيةٍ كريمة، وعاطفة مضمورة بالوفاء، لعلّ هذا ما شاع، وكان سبباً في شيوع التهاجي محلّ التحابب بين الشعراء، وجعل هؤلاء يديرون ظهورهم لإخوانهم، بدل فتح أذرعهم للتحابب والعناق الأخوي الجاذب للعاطفة، والموصل للمحبة[٢].

ونحن لم نورد ما قدمنا من نوعية شعراء ذلك العصر، إلاّ لنثبت حقيقة شاعرنا المتميّز عمن عاصره، بتأكيد ثابت لدى باحثي هذه الحقبة ودارسيها؛ وهو أن أبا فراس، يختلف كل الإختلاف عن واقع التساؤلات التي أوردناها. والسبب يعود إلى غنىً من الصفات التي اتصف بها، فأعلته عن الوقوع في ذلك الموقع الموبؤ بالجشع والتكسب. ويأتي في أولية الميزات المقترنة بشخصه الأبي، مولده الناشيء في أمارة حمدانية، موفورة المال، واسعة الثراء، تغني شاعرنا عن السعي وراء التكسّب. وهذا المولد أبعده عن حلقة أولئك المتهافتين على القصور، لأنه كان داخل القصر، وليس خارجه يسعى للوصول إليه. وهذا الموقع الذي نشأ في ظلّة، جعله في قلب الهدف الذي يجري إليه كل من ينظم القصيد للمال، وأبعده عن التحاسد والمهاجاة، لإبعاد من يتنافسه لإمتلاك قلب صاحب البلاط؛ وصاحب البلاط، هو ابن عمّه، ناشر نعمته عليه دونما منّة، أو جميل، بل سعياً لجعله أميراً، يتحلّى ببطولة الشجاعة والأنفة والفروسية ومن حاز هذه الصفات،

(١) الدهان: سامي ـ الديوان ـ ج ٣ ـ ص: ٥٣٥.
(٢) المرجع نفسه: ص: ٥٣٦.

لا يغريه مغرٍ للأنحدار إلى السعي وراء امتلاك المال، واحتواء الثروة. ولكي لا يفوتنا ما يجب ذكره في هذا الصدد، نرى لزاماً علينا، أن نذكر واحداً لا غير، وقف منه شاعرنا موقف الحاسد، وحمل له في قلبه أشد البغض كرهاً وحقداً، وهو أبو الطيب المتبني، الذي غزا بلاط سيف الدولة، بقصائده الفذّة البعيدة، فغلب عليه أمره إلى حين، حتى تسنّى له بمساعدة ابن خالويه، إخراجه مدحوراً، بعد أن دخل القصر مفاخراً(١).

وقد نصل إلى واقع الصواب، إذا قلنا، بأنّ وفرة الشعر الإخواني في ديوان أبي فراس، يعود إلى مركزه في بلاط ابن عمه، ومحتدّه القِبلي في أمارة بني حمدان، وما تحمله له، من وفرة علاقاته الإجتماعية العامة.

والذي يقوي تلك العلاقات، إلى جانب أنه قائد وأمير، انتماؤه إلى سيف الدولة، بقرابة أبناء العمومة. وهذا الإنتماء، جعل على عاتقه تبعات كبيرة الشأن، منها العناية بأمور الناس، وأحوالهم المعيشية؛ والإشراف على مصير جماعات لها اتصالات مباشرة بالأمير الشاعر. يضاف إلى ما ذكر، أن شاعرنا اتصف بسلوك خلاّق، تدعمه سجيتان: مثالية الإنسانية، وأعماله الممدوحة السيرة. وقد سهر الشاعر على تنمية علاقاته بروح التضحية، وطيب المعشر، وإضافة الكرم، وإسداء النصائح عن طريق الأخوة الصادقة، لا الفوقية المتعالية. والذي أثبت صدق هذا السرد حرصه على جمع الناس المشهورين بعلمهم وأدبهم وحسن خلقهم، وتحلّيهم بالأخلاق والفضائل، حول ابن عمه سيف الدولة، ليكون المخلص الأمين، للإشراف على نوعية الداخلين، إلى هذا القصر الحمداني المنيع. وقد حرص شاعرنا على توحيد الصلة بين إخوانه، والسعي إلى تقويتها ومنعتها في مثل قول بعضهم «والظاهر أن أبا فراس، كان ممن يحسن معاملة أصحابه، ويخلص لهم، ويضمر لهم في قلبه فيضاً من عواطف الصداقة الخالصة والودّ الثابت المتين»(٢) وبهذا دأب هو الشاعر الأمين على مراسلة من أخلصوا له، ودأبوا هم على السعي، من أجل استمرار المراسلة بينهم وبين الأمير الأخ المفضّل. وإذا توغلنا في قصائد الإخوانيات المنتشرة في ديوان الشاعر، نجد من أبرز مَنْ كان يراسلهم، ابن عمّه أبو العشائر، وأخوه أبو الهيجاء، وأبو زهير مهلهل بن نصر الحمداني، وأبو المرجّى جابر بن ناصر الدولة، وأبو حصين

---

(١) بدوي: أحمد أحمد ـ شاعر بني حمدان ـ ص: ١٣٧.

(٢) بدوي: أحمد أحمد ـ شاعر بني حمدان ـ ص: ١٣٧.

الرَّقِّي، قاضي حلب. وغلاماه فاتك ومنصور، وأخوه أبو الفضل، وابن عمه سيف الدوْلة، وجعفر بن ورقاء الشاعر، وأبو المكارم، وأبو المعالي ولدا سيف الدولة وابنا اختهٰ[1]..

وأخلاص أبي فراس لأخوانه، يعزِّزه صدق العاطفة التي نلمحها جليةً واضحةً في أبياتٍ من قصيدةٍ يبعثها لأخيه أبي الهيجاء فيقول[2]:

أَخِي لاَ يُذِقْنِي اللّٰهُ فِقْدَانَ مِثْلِهِ! وَأَيْنَ لَهُ مِثْلٌ، وَأَيْنَ المُقَارِبُ؟
تجاوزتِ القُرْبَى المودّة بيننا فَأَصْبَحَ أَدْنَى مَا يُعَدُّ المُنَاسِبُ
أَلاَ ليتني حُمِّلْتُ همِّي وهمُّهُ وَأَنَّ أخِي ناءٍ عن الهمّ عازِبُ[3]
فَمَنْ لَمْ يَجُدْ بالنّفْسِ دُونَ حبيبِهِ فَمَا هُوَ إلاّ مَاذِقُ الودّ كاذِبُ[4]
أَتانِي مَعَ الرّكبانِ أنّكَ جازِعٌ وَغَيْرُكَ يُخْفِي عَنْهُ لِلّهِ وَاجِبُ[5]
وَمَا أَنتَ مِمّنْ يُسْخِطُ اللّهَ فِعْلُهُ وَإنْ أَخَذَتْ منه الخطوبُ التَوالبُ[6]
وإنّي لمجزاعٌ، خلا أنّ عَزْمَةً تُدافِعُ عنّي حَسْرَةً وَتُغالِبُ

فأنت يا قارئي، مهما طفت بالدواوين في عصورها المختلفة، لن تستطيع أن تكحل عينَيك بأحسن مما تقرأ سبكاً، يطابق المعنى الآخذ بأعماق العواطف الأخوية، فيرقرق ابتهاجاتها بفرح أُنسيٍّ يطربه عميق الصلة الروحية، ويوسع آفاقها باطمئنان خفايا الذات، إلى ما يؤنس وحشتها، ويخفف وحدتها، ويبعث فيها أمل التعايش مع من يكون عوناً لها في الشدائد والملمات. كيف لا، والنفس ـ من خلال هذا الشعر الجميل المؤنق ـ تُسقى بعبارات التواصل والتوادد، فتنتعش إذا كان من حولها قصيّ المرمى، وما حواليها قاسياً صلباً؛ وتشعر برطوبة سقيا تلامس جوانب التطلعات المستقبلية، فتدغدغ حناياها بأمل الاطمئنان لغدٍ مشرق، تسطع فيه شمس الأخوة الوفيّة المخلصة. ونحن إذ ننعم النظر بمعاني تلك الأبيات الناضحة بالشفافية، نجدها مشبعةً بمشاعر صادقة، تقرب الأُخوة بعضها من البعض الآخر، لتجعل الأرواح حبال وجدانية، تتصل اتصالاً ضميرياً، بكل ما

(١) أبو حاقة: أحمد ـ أبو فراس الحمداني ـ ص: ١٢٧.
(٢) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٢٠.
(٣) عازب: ناءٍ.
(٤) ماذق: مخاتل، محتال.
(٥) جازع: خائف.
(٦) الخطوب السوالب: المصائب التي تأخذ من الإنسان أفضل ما عنده.

يشد أواصر المحبة، ويذيبها في عروق التلامس العاطفي. وهذا يجعل المشدود بالأخوة، يحسُّ أنه ليس وحيداً لذاته النجافة الكئيبة، ؛ بل هناك هاطل محبةٍ تلتصق به، فتخفّف عنه ثقل الحياة، وتزيح عن عينيه سواد التشاؤم من غدٍ، ليس فيه مؤنسٌ مسلٍ؛ فيهتف ملء فرحه، لست وحيداً مهمولاً منبوذاً، بل هناك من يسليني في كآبتي، ويدفع عني الضيم في شدتي. وتخالجنا أفكار تنقح بالظن القائل، بأن أبا فراس، حين نظم أبياته هذه، كانت الدموع تترقرق من مآقيه، حتى تبلّ محمله ـ على ما جاء في شعر امرىء القيس ـ وتبين لنا عيناه، من بين عبارت الأبيات، ذابلةً، مسبلة الأجفان بأشدّ معاني الحزن، حتى لكأننا نسمع تأوّهات أحشاءه المضطرمة، بنار غصّة المجتمع المتكالب على المادّة، والكافر بجوهر الذاتية المتألقة بلألاء الإنسانية الحميمة الصافية. ومما يجدر التنبيه إليه، إن الأبيات التي وردت فيها عظةٌ للناس ممّا يقاسونه من عقوق إخوانهم، وترويحٌ للشاعر، عمّا يعانيه، وهو بعيد عن أخيه المحبّ الوفي، يسومه الروم ألوان الهمجية والقساوة، وليس حوله من معين أو مساعد. وفي مثل هذه الحال، لا بد لنا من تصوّر الدموع، تترقرق من مآقي شاعرنا، الرقيق العاطفة، المرهف الأحاسيس[1].

ولعل القارىء يشاركني الرأي، بأن الشاعر المفوّه الفيّاض، قد وُفّق إلى حدٍ بعيد، في توشيح الأبيات، بألوان الآلام التي تنتاب نفسه في أسره، فتنعكس انسحاقاً وتحطّماً في نفس أخيه المحبّ له كل الحب. ومن ذلك التوشيح الجميل الظلال، تشاهد خلجات قلبه الخافق بالعذاب، فيختلج قلبك تأثراً بها، ونظن أنك أنت المقصود بالشعر، فتتعاطف معه، وتسرح في خيالٍ ينقلك إلى تذكّر أخيك، أو من هو في منزلته. وهذا لعمري، أصدق شعر، يلامس خفايا الإنسانية في كل مكانٍ وزمان.

ومن جميل الإخوانيات الواردة في ديوان شاعرنا الحمداني، تلك التي يخاطب بها أبا أحمد عبد الله بن ورقاء الشيباني، الذي قصّد أبياتاً تغمر بني حمدان الأقدمين، بمديح عاطرٍ فيّاض. وكانت مناسبة نظم تلك القصيدة، الظفر الذي أحرزه سيف الدولة في إحدى معاركه. فسارع شاعرنا إلى الردّ على أبي أحمد، في شيءٍ من العتب على تمسك أحمد بالقديم، وتغاضيه عن زاهر

---

(١) بدوي: أحمد أحمد ـ شاعر بني حمدان ـ ص: ١٣٨.

الحديث وأمجاده الشائعة بين النّاس. وردّ أبو أحمد في عتاب مماثل، يحوي التنصّل من إهمال الحديث، حين يتكلم عن القديم الذي يعزّز الواقع، فيعلم الناس، أن الحديث هو استمرارٌ لمفاخر الماضي التليد، وكان لا بدّ من أن يردَّ أبو فراس في قصيدةٍ يقول فيها[1]:

أَتَـانـي مِـنْ بَـنِـي وَرْقَـاءَ قَـوْلٌ ... أَلَـذُّ جَـنًـى مِـنَ الـمَـاءِ الـقَـراحِ[2]

وَأَطْيَبُ مِنْ نَسِيمِ الرَّوْضِ حَفَّتْ ... بِـهِ الـلَّـذَاتُ مِـنْ رُوحٍ وَرَاحِ[3]

وَتَـبْـكِـي فـي نَـواحِـيـهِ الـغَـوَادِي ... بِـأَدْمُـعِـهَـا وَتَـبْـسِـمُ عَـنْ أَقـاحِ[4]

وَلَوْ أَنّي اقْـتَـرَحْـتُ عَـلَـى زَمَـانـي ... لَـكُـنْـتُـمْ يا بَنِي وَرْقَـا اقْـتِـرَاحِـي

عِـتَـابُـكَ يـا ابـنَ عـمٍّ بِـغَـيْـرِ جُـرْمٍ ... أَشَـدُّ عَـلَـيَّ مِـنْ وَقْـعِ الـرِّمَـاحِ

وَمَـا أَرْضَ انـتـصـافـاً مِـنْ سِـوَاكُـمْ ... وَأُغْـضِـي مِـنْـكَ عَـنْ ظُـلْـمٍ صُـراحِ[5]

أَظـنّـاً؟ إنَّ بَـعْـضَ الـظَّـنِّ إِثْـمٌ ... أَمَـزْحـاً وربَّ جِـدٍّ فـي مِـزَاحِ

أَأَتْـرُكِ فـي رِضَـاكَ مـديـحَ قـومـي ... وَتَـخْـبِـيـرَ الـمـحـبَّـرةِ الـفِـصَـاحِ[6]

أَعَـزُّ الـعَـالَـمِـيـنَ حِـمَـىً وجَـاراً ... وَأَكْـرَمُ مُـسْـتَـعَـانٍ مُـسْـتَـمَـاحِ[7]

أَرَيْـتَـكَ يـا ابـنَ عَـمٍّ بـأَيِّ عُـذْرٍ ... عَـدَوْتَ عـن الـصَّـوَابِ وَأَنْـتَ لاَحِ[8]

إنها رائعة من التبادل العاطفي، تدور شاعريتها في إطار التماذج الوجداني، بين سيدين من أسيا وبني حمدان، وأميرين من أمارة بلاط سيف الدولة، يتمسكان بتقاليد الأخوة المتماسكة الصِلات، التي لا تنفصم عراها، ولا يضعف مداها. وقد حلا تقصيد شاعر أبي فراس، وهو يرنو بعين المحبّ الشغوف بابن ورقاء، لما يحمله من صفات الشهامة والرفعة. والمعجب بأبيات قصائده السنيّة بفضائل شخصيته، وسجايا قومه الأفاضل. وفي الوقت الذي يغدق الشاعر على ابن

(١) الحمداني: سيف الدولة ـ الديوان ـ ص: ٤٦.
(٢) الماء القراح: الماء الصافي العذب.
(٣) الروح: النسيم اللطيف ـ والراح: الخمرة.
(٤) الغوادي من السحب: الناشئة في الغود، والممطرة صباحاً ـ الأقاصي: زهر الأقحوان.
(٥) الصراح: الخالص من كل شيء، البين أيضاً.
(٦) حبر الكلام، أو الخط، أو الشعر: حسنه وزينه.
(٧) الحمى: المكان الذي يحمى ويدافع عنه. المستماح: اسم مفعول من استماح: طلب العطاء والعفو.
(٨) لحاه: لامه على فعله ـ اللاّحي: الآمر.

ورقاء، أسمى نعوت التبجيل والاحترام يأخذ عليه مظنّته فيه، ويبين بأدبٍ شاعري، أن في ما يقدّمه، تكملةً للذي أخذ به أبو أحمد عبد الله. وقد تراءى لنا اطمئنان صلة الإخوة، من قبل شاعرنا، والرقة واللطافة في صياغة أبياته، عندما يبادر إلى القول:

وَلَيْتَ وَأَنْ صَبَرْتُ عَلى الرّزايا ... أُلاَحي، مَعْشَرِي، وَبِهِمْ أُلاحي[1]

وَلَوْ أَنّي اقْتَرَحْتُ عَلَى زَمَاني ... لَكُنْتُمْ، يا بني وَرْقا، اقْتِرَاحِي

وفي قوله هذا، نلمح في البيت الثاني، تجلّةً عالية القدر، يحملها في صدره العارم بمحبّة بني ورقا دونما انقطاع أو نهاية. ولعلوّ مكانتهم، وكبر همتهم، تنقاد الحياة إليم صاغرةً طائعة، لأن صفات الشهامة المطبوعون بها، تأتي بالدنيا إلى أعابتهم، لتدخل في حنايا تطالعاتهم المليئة بخدمة الناس، والسعي لتوفير الصالح لهم.

وإذا انتقلنا إلى إخوانية أخرى من إخوانيات شاعرنا التي لا تنتهي سجاياها المفعمة بالتودد والتواصل الفوّاح، بكل أصيل مرتبة، ونواصل مناقبيةٍ زاخرةٍ بشمائل المجد الدائم التسامي، في شوامخ الفكر، وجليل قلاعها الحصينة، في زينة العقل، وتمام انسجامه مع واقع المكانة. وهذه الأخوانية تبرز مع أبي الحصين، علي بن عبد الملك الرقيّ، قاضي حلب[2] الذي كانت تربطه مع شاعرنا الحمداني، صلة تحاببٍ عامرةٍ، بفيض من المحبة، ومراسلاتٍ شعرية دائمة التجديد والابتكار العاطفي، الذي يشكل مدرسةً قائمة التوجيه والإرشاد، لمن أراد اليسر، في هذا المضمار من التقصيد، الواسع العطايا. ويذكر هذا ابن خالويه[3] ويزيد على أن أبا حصين، كان دائم الإلحاح على أبي فراس، لنفحه بمزيدٍ من قصائده، وذلك من قبل التشجيع له، من أجل إبراز نبوغ شاعريته. وكان الشاعر الحمداني، يحترمه احتراماً مضمّخاً بعاطفة التبجيل، وهو يراه بمنزلة الأستاذ، والموجّه الحكيم، في تصويت خطاه، وتسديدها إلى مرامي الشاعرية الصحيحة. وكان القاضي أبو حصين، قد عزم على السفر إلى الرقّة، حين توجه له أبو فراس بقصيدة يقول فيها:

---

(١) الرزايا: المصائب. جمع رزية ـ أُلاحي: أحارب وأنازع وأخاصم.

(٢) الدهان: سامي ـ الديوان ـ ج ٣ ـ ص: ٥٣٧.

(٣) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٦٦.

يا طُولَ شَوْقِيَ إنْ قَالُوا الرحِيلُ غدا — لا فَرَّقَ اللَّهُ فِيمَا بَيْنَنَا أَبَدَا
يَا مَنْ أُصَافِيهِ في قُرْبٍ وفي بُعُدٍ — وَمَنْ أَخَالِصُهُ إنْ غَابَ أَوْ شَهِدا
لاَ يُبْعِدُ اللَّهُ شَخصاً لا أرى أنساً — وَلاَ تُطِيبُ لِيَ الدُّنْيَا إذَا بَعُدا
راعَ الفِراقُ فُؤَاداً كُنتَ تُؤْنِسَهُ — وَذَرَّ بَيْنَ الجُفُونَ الدَّمْعَ والسَّهَدا[1]
أَضْحَى وَأَضْحَيْتُ في سِرِّ وفي عَلَنٍ — أَعُدُّهُ وَالِداً إذْ عَدَّني وَلَدا
مَا زَالَ يَنظُمُ فِيَّ الشِّعْرَ مُجْتَهِداً — فَضلاً وَأَنْظُمُ فِيهِ الشِّعْرَ مُجْتَهِدا
حَتَّى اعْتَرَفْتُ وَعَزَّتْنِي فَضَائِلُهُ — وَفَاتَ سَبْقاً وحَازَ الفَضْلَ مُنْفَرِدا
أَبْقَى لَنَا اللَّهُ مَوْلاَنَا وَلاَ بَرِحَتْ — أَيَّامُنَا أَبَداً في ظِلِّهِ جُدُدا
لا يَطْرُقِ النَّازِلُ المَحْذُورُ سَاحَتَهُ — وَلاَ تَمُدُّ إلَيْهِ الحارِثَاتُ يَدَا

والحاذق الممعن النظر في ملامح هذه الأبيات، المتشبه بنسائم الودّ، يلمح فيها، الكثير من عاطفة الأخوة، الملتهبة بصدق المحبّة. ويتراءى له مدى المودّة التي تربط بين الصديقين، وتشدّهما إلى نظائر الأخوة، بوشائج الوفاء الذي يكنه الأخ لأخيه. ولا يغيب عن بال اللبيب التلاميح الودية، المسرودة في نظم كل بيت والتي تعبّر عمّا يكنّه أبو الحصين القاضي لشاعرنا، الذي يتعهده بالنصح والإرشاد؛ ويحنو عليه حنوّ الأب على ابنه الغالي العزيز. وما خرج أبو فراس عن مألوف سجاياه في الوفاء لمن يحب، فقد قدر هذا الراعي الذي يراه بمنزلة الأب. ونرى في كل بيتٍ تقرباً من الشاعر لأبي حصين، الذي يصفه بالمغدق الإحسان، الكثير الفضل، والذي يأبى، إلاَّ أن يكون له في الحياة، عزٌّ دائم الوجود بعمر طويل سعيد[2].

وكان صبره على مداراة الإخوان، وكتم الألم الذي يعتمل في نفسه لقساوتهم عليه، كثير لا يوصف. وبدل أن يبادلهم القسوة بالقسوة، والظنّة بالظنّة، لجأ إلى العاطفة، يسكب فيها عواطفه الموشحة بالتحيات، وحسن السجايا، ومن جملة ما يذكر له من حسن المخاطبة بشعر العتاب قوله[3]:

لَمْ أُؤاخِذْكَ بِالجَفاءِ لأَنِّي — واثِقٌ مِنْكَ، بِالوِدَادِ الصَّرِيحِ
فَجَمِيلُ العَدُوِّ، غَيْرُ جَمِيلٍ — وَقَبِيحُ الصَّدِيقِ، غَيْرُ قَبِيحِ

(١) راع: أفزع ـ السهد: الأرق.
(٢) صدقي: محمد ـ شعر أبي فراس في التفريط والغلوّ ـ ص: ٣٥.
(٣) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٥٠.

وكان له صديق أديب، يحمل في ثنايا شعره رقّة بالغةً في تصوير الصداقة ومراميها الوثيقة الأبعاد، في التحابب والإخلاص والتَّوَاد. وفي أحد الأيام، وردت له منه رسالةً معطرةً بفيضٍ من فوح تلك الأزاهر الندية، حيث طرّز له أزاهر أبياتٍ ناضحةٍ بالإعزاز والتقدير. فأجابه عليها بقصيدةٍ نقتطف منها قوله[1]:

عُذُوبَةٌ صَدَرَتْ عَنْ مَنْطِقٍ جَدَدٍ ... كالماءِ يخرجُ ينبوعاً مِنَ الحَجَرِ[2]

وَرَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الفِكْرِ دَبَّجَهَا ... صَوْبُ القَرائح لا صَوْبٌ مِنَ المَطَرِ[3]

كأنَّما نَشَرَتْ أَيْدِي الرَّبِيعِ بِهَا ... بُرْداً مِنَ الوَشْيِ أوْ ثوباً مِنَ الحِبَرِ[4]

وإذا أردنا أن نتوسَّعَ في قصائد إخوانيات أبي فراس، فإننا نبلغ بها كتاباً مستقلاً، يفيض بأشهى معطيات الرغائب الآخذة بعاطفة النفس، وشجونها المستفيضة رقة وإلهاماً. وما ذلك، إلاّ لأنَّ شاعرنا ترفّع عن الدنايا في قصائده، ولم يوردها مورد التكسب والوصولية الرخيصة. وأخوانياته كلّها حلّت محلّ الهجاء والمدح الرخيصين عند سائر الشعراء. وفيها نرى الشاعر ـ كما سبق وقدمنا ـ يعاتب بحكمة، ويلوم بعذوبة تعبير، ويبث نجواه بصدق، ويتأوّه بشكوى لا يثقل أنينها وتوجّعها؛ بل تصل إلى الأخ، دافئةً، تتسرب إلى الأحشاء آمنةً مطمئنةً.

إنَّ الشاعر الحمداني، لم يثقل على أخ من أخوانه في غرضه هذا، بل خفف وأزاح الظنون والشكوك. فهو يعلم بما عند صاحبه من ضيق الصدر إذا أمعن في العتاب، فلم يرد أي يجعل العتاب إحراجاً وتضييقاً. ولم يسعَ إلى صدّ الأخ عن بكاءٍ يذرفه أبياتاً مرسلة، أو يطلب إليه عدم تكرار مثل تلك الشكوى إذا جاءته، بل أمعن في الصبر على استقبال كل ما تذرفه عين أخ، أو يسري من تأوّهات صديق. وقد جارى اخوانه في ذرف الدموع معهم، ومشاركتهم بكل أحزانهم؛ دون أن يفقدهم بشرى انتظار أمل قادم، أو أمنية محتملة الحصول.

ونخلص في هذا كلّه إلى القول: إن الشاعر الحمداني، نفحنا بشعر أصيل غير مبتذل، أودعه إخوانياتٍ صادقة العاطفة، صافية المشاعر، نقية القلب، ترتع

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٩٨.

(٢) جدد: مستقيم، ثابت، صائب.

(٣) دبجها: رصعها وزينها ـ القرائح: جمع قريحة: وهي الملكة على نظم الشعر أو النثر ـ الصوب: المطر.

(٤) الوشي: ضرب من الحرير والزينة ـ الحبر: جمع حبرة، وهي الثوب الموشى.

بمتنفَّسٍ وجداني، يبرز مكنونات الذات، ويجعلها أداة تعبير صادقة، يكتسب منها الناس، مرونة التعاطي مع الأصدقاء، للاحتفاظ بصداقتهم، وقدسية حبهم الأخويّ.

مفاخره:

إذا طالعنا مفاخر الشعراء العرب، نجدها متفرقةً بين دفتي دواوينهم، بين الفخر الإفرادي المتحدث عن مزايا الذات النفسية، وما أفاضت به من المعجزات الموقوفة على صاحبها الهمام الشجاع؛ وبين الفخر الجماعي، المتحدث عن عظمة الأمة التي ينتمي إليها الشاعر، والمفاخر ببطولات تلك الأمة، وما أنجزوه من إبداعات أغنت التراث، وأعلت الحضارة إلى قمة التفوّق والإعجاب. وإذا توغلنا في جوانب مفاخر أولئك الشعراء وجدناها تنفح بمآثر شخصية، وانفعالات، تعود إلى تفاخر الشاعر، بما يراه أمراً جليلاً يستحق المدح والثناء، لأنه وجد في نفسه هوىً، يشده إلى ما نال إعجابه، وسما به بيانه[1].

ونحن يعنينا في هذا المضمار، فخر أبي فراس، في أبياته الملتصقة بذاته، حيث يصبغ تلك الأبيات، بصفاتٍ مثقلةٍ بقيم يقدسها، ويُعلي شأنها. ولا تعدو تلك القيم، المآثر التي أحلها الناس محلّ التعظيم والإعزاز. وهذا الغرض المميز في شعر الأمير الحمداني، مال إليه متذوقو الفن الفخري، لاستملاحهم روافده في قصائده المتينة السبك، فعمدوا إلى إنشادها في مجالسهم الخاصة والعامة، وأوسعوا لها في ذاكرتهم انطباعاً لا يُنسى. وشاعرنا المتزن الرصين في قصائده، نظم توعي الفخر، الفردي والجماعي، واشتهر بجميل تعاطيه ذنيك الفنَّين. ومفاخره الشخصية، لم تتأتَّ من تصوُّرٍ خيالي، بل من واقع متكامل الاتصال بين الماضي والحاضر، ومعرفةٍ حاذقة الإلمام بتاريخ الذات الحمدانية، المتمرسّة بأصالة الشرق، وشرف النسب والحسب، وسامق المقام المتعالي البيان؛ وما يختلط به من فوح الخلق الكريم، والمعدن الصقيل، في جوهر الشجاعة، وكريم محتد الفروسية، وصلابة القتال، وتعدد الانتصارات، والوقوف على تقلب الأحوال، مما جعل هذا الشاعر المعطاء، كبيراً في عنفوان المفاخرة النقية الصافية[2].

---

(١) فروخ: عمر ـ أبو فراس شاعر بني حمدان ـ ص: ٧٨.

(٢) المرجع نفسه ـ ص: ٨٠.

وهذه الصفات المحيطة بالعام والخاص، وعاها شاعرنا بإدراكٍ عقلي، وميل عاطفي، ونشر صياغتها المحبوكة الأطراف، في ألق قصائده وتوهجّها، حتى سطعت في سائر جوانب المجتمع، فتهافت الناس على احتوائها في ذاكرتهم حفظاً، وفي مجالسهم ترديداً نغمياً مطرباً. ومفاخره تتوزع في قصائد وقفة عزّ، أو إطلاق سراح معتقل، أو إخراج أسير من سجن، وتدخل هذه الفنّية ببعض جوانبها اللامعة البيان، في عتاب صديق، أو شكوى زمان، أو التغزل بحبيبة، أو مناجاة عشيقة، أو مراسلة أخ عزيز، أو في شيءٍ من هذا وذاك، في معطيات تواصله مع الآخرين بشتّى قصائده. فالفخر لم يغب عن قصائده، في كل فنونها وأغراضها[1].

وفي إحدى قصائده التي يكثر فيها من وصف إبائه، ونزاهة ذاته من المثالب والنقائص، وولعها المشرئب نحو مكارم الأخلاق، وطلب المجد في كل آنٍ وزمان، نسمعه يقول منشداً[2]:

إِذَا مَا العِزُّ أَصْبَحَ فِي مَكَانٍ ... سَمَوْتُ لَهُ، وَإِنْ بَعُدَ المَزَارُ
مُقَامِي، حَيْثُ لا أَهْوَى، قَلِيلٌ ... وَنَوْمِي، عِنْدَ مَن أقلي غِرارُ[3]
أَبَتْ لي هِمَّتي، وغِرارُ سيفي ... وَعَزْمي، والمطيّةُ، والقِفارُ[4]
وَنَفْسٌ لا تُجَاوِرُهَا الدَّنَايا ... وَعِرْضٌ، لا يَرِفُّ عَلَيْهِ عَارُ
وَقَوْمٌ، مِثْلُ مَنْ صَحِبُوا كِرامٌ ... وخَيْلٌ، مِثْلُ مَنْ حَمَلَتْ خِيَارُ
وَكَمْ بَلَدٍ شتتناهُنَّ، فِيهِ ... ضُحىً، وَعَلا مَنَابِرَهُ الغُبَارُ[5]
وَخَيْلِي، خَفَّ جانِبُها، فَلَمَّا ... ذُكِرْنَا بَيْنَهَا نُسِيَ الفِرارُ
وَكَمْ مَلِكٍ، نَزَعْنَا المُلْكَ عَنْهُ ... وجَبَّارٍ، بِهَا دَمُهُ جُبارُ[6]

وإذا تطلعنا إلى هذه المفاخر الموغلة في العزّة فماذا نرى؟ نرى نفساً يشرفها الترفع عن الدنايا، ويعزها الإباء والكرم، وترنو إلى المجد تصله بعزيمةٍ ومضاء،

---

(١) الجومرد: عبد الجبار ـ غرّة العرب ـ ص: ١٤٠.
(٢) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٨٨.
(٣) قلى: أبغض ـ الغرير: القليل من نوم أو سواه.
(٤) غرار السيف: غمده ـ المطيّة: ما يمتطى ويركب.
(٥) شتتناهنّ: فرقناهنّ.
(٦) جبار: لم يؤخذ بالثأر منه. هدر.

ولو كان في قرن الشمس، وفيه الجوزاء. نرى شاعرنا الحمداني، وقد ترصعت أمارته، بفسيفساء مفاخر حوت كل غالٍ ونفيس؛ فكأنها منتقاة من مرمر الرخام المجزّع بأعذب الألوان بهجةً، لتزيّن بها قصر الأمارة الحمدانية العليّة، بكلام رقيق يشبه إلى حدٍ بعيد، بناء معماريٍّ حاذقٍ بفن العمارة. ولا نرى الشاعر مرهّفاً منعماً بدلال الغنى والثروة، بل نجد مشاركةً فعليةً بين الشاعر والقفار، يلجها بقساوة الخشونة الشجاعة، ليشق فيها الصلب المنيع، ويزرع أمل الغد المشرق بالفوز والانتصار. كل ذلك يحفه عرض لا يشلم، ونفسٌ لا تهون، تحف بها أعزّةٌ شجعان، يتحلقون حول أميرهم القائد، سائرون برباطة جأشٍ إلى موتٍ يحيي وجودهم بخلود الأبدية المنيعة على الفناء والاندحار. كيف لا، وهم ينتصبون على ظهور أعزّ الخيول سرعةً وجرياً وذكاءً وشجاعةً؛ تتساوى مع راكبيها في الجري إلى الهدف النبيل، والرغبة في حيازة أوسمة البطولة اللامعة تحت شمس الحرية. إنَّ قوماً يفتخرون بأن خيولهم تستجيب لرغباتهم البطولية، لا يشوبهم شائبة الذلّ. فالراكب وللركوب صنوان لا ينفصلان عن إباء وشهامة، وطيب محتد[١].

وممّا يحضرنا في هذا المضمار، نادرة جديرة بالاستيعاب والتمعن. فقد حكي أن سيف الدولة، عُرضت عليه خيوله الأصيلة، وبنو أخيه يحفّون به. وبإشارةٍ منه اختار كلٌّ حاجته من تلك الخيول، إلا أبو فراس، فقد امتنع عن أخذ شيء. وكان تقريع من سيف الدولة للشاعر بسبب تصرفه السلبي المسيء لابن عمه. وبادر الشاعر إلى إرسال القصيدة إلى ابن عمّه، والتي يقول فيها[٢]:

غَيْرِي يُغَيِّرُهُ الفَعَالُ الجَافي	وَيَحُولُ عَنْ شِيَمَ الكَرِيمِ الوَافي[٣]
لاَ أرْتَضِي وُدّاً إذا هُوَ لَمْ يَدُمْ	عِنْدَ الجَفَاءِ وَقِلَّةِ الإِنْصَافِ
تَعِسَ الحَرِيصُ وَقَلَّ مَا يأتِي بِهِ	عِوَضاً مِنَ الإلحَاحِ والإلْحَافِ[٤]
إنَّ الغَنيَّ هُوَ الغَنِيُّ بِنَفْسِهِ	وَلَوْ أنَّهُ عَارِي المَنَاكِبِ حافِ
مَاكُلُّ مَا فَوْقَ البَسِيطَةِ كافِياً	فَإذَا قَنِعْتُ فَكُلُّ شَيءٍ كافِ
وَتَعافُ لِي طَمَعَ الحَرِيصِ أُبُوَّتِي	وَمَرُوءَتي وَقَنَاعَتِي وَعَفَافِي[٥]

(١) الجومرد: عبد الجبار ـ غرّة العرب ـ ص: ١٤٣.

(٢) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٢٧.

(٣) الجافي: النابي ـ شيم: أخلاق وطباع.

(٤) الإلحاف: الإلحاح، واللجاجة في السؤال.

(٥) الأبوة والإباء بمعنى واحد، وقد يفهم من اللفظة معنى النسب الكريم.

مَا كَثْرَةُ الخَيْلِ الجِيَادِ بِزَائِدِي شَرَفاً وَلاَ عَدَدُ السَّوام الضَّافي[1]
خَيْلِي وَإِنْ قَلَّتْ كَثِيرٌ نَفْعُهَا بَيْنَ الصَّوَارِمِ وَالقَنَا الرُّعَافِ[2]
وَمَكَارِمِي عَدَدَ النُّجُومَ وَمَنْزِلِي مَأْوَى الكِرام ومَنْزِلُ الأَضْيَافِ
لا أَقْتَنِي لِصُرُوفِ دَهْرِي عُدَّةً حَتَّى كَأَنَّ صُرُوفَهُ أَحْلافِي
شِيَمٌ عُرِفْتُ بِهِنَّ مُذْ أَنا يَافِعٌ وَلَقَدْ عَرَفْتُ بِمِثْلِها أَسْلافِي

إنّها السجايا الحميدة، والشمائل الفاضلة، التي تنطبع سمات رجولة حقه، في شخصية الشاعر الملتفع، بأهم مزايا الفخر السامق، بأعلى علو مشرّف. وما تلك المهمات العلية، التي تجعل شاعرنا شامخاً في مصاف العز، هي التجلّد على الرزايا، والتمسك بمهام الشرف، والالتصاق بحنايا الوداد، والبعد عن الانحراف بما يشوب المرء بالمثالب البغيضة.

ويبدو الشاعر، من خلال تعداد ما يلتصق بشخصيته من نعم الحياة الأبية، نكران الذات البعيدة عن وصولية ماديّة في التعامل مع الآخرين؛ وإذا أبرز وجوده للناس فمن أجل التعامل معهم، لإبعادهم عن الوقوع بمثلبةٍ لا يستطيعون لها رداداً، أو الانحطاط بمزلّة لا يجدون من يرفع كبوتهم التي تميل إليها. إنه ثابت في سلوكه الأمين، على التعاطي بعزةٍ وإباء إن الوصول إلى المادة ليست من شيمه، وجمع المال لم يكن يوماً غايةً في نفسه. ومن أجل ذلك، فهو يشفق على جامع الدراهم، لأنه غبي بحسن مسالك الحياة، وقلق في اليسر داخل شعابها. لذا تجده ملحاحاً، لجوجاً وهو يستجدي من كل مَنْ يراه، أو يصادفه، حتى ولو كان داخل خزائنه، أموال قارون..فقد أصبح من أصحاب الجمع والمنع، والحرص على التمسك بأهداب النجل البغيض، المرذول بنقائص يعانها شاعرنا، ويجلُّ نفسه عن الوقوع بحبائلها. لذا نراه يدعو إلى التمسك بأذيال القناعة التي تريح الإنسان من الجري لاهثاً وراء الكثير من الزائل الفاني، وتجعله يقنع بالقليل الذي يسدّ رمقه، ويعفيه من السؤال. وهذه القناعة في شرعه، لا تنطبق إلاّ على المال فحسب. أما سائر صفات الرجولة الطامحة إلى العلياء والسؤدد، فلا قناعة في مضمونها، بل طموح يسابق الريح، وغلوّ لا نهاية له. ويصور الشاعر في كل ما ورد في أبياته المتقدمة، حالة الصراع المستديم الوجود، بين ميول الشهوة

(١) السوام: الماشية والدواب التي ترعى من بقر وخيل والإبل. . . الخ ـ الضافي: الكثير.

(٢) الصوارم: السيوف ـ القنا الرعاف: الشديد العظمة الذي يسيل كثيراً من الدماء.

المادية للنفس، واندفاعها الجارف لتحقيق أطماعها منها. فالكثيرون من البشر، لا قدرة لهم على لجم تلك المطامع. أمّا شاعرنا المتحصّن بالعزة والكرامة، فإن نفسه تجافي المادة، وتقنع بالقليل منها؛ ولكنها طموحة في الاندفاع دونما خوف أو ملل، لتحقيق رغائب الشهامة والمروءة، الموصلة له، إلى أرفع درجات النبل والسمو[1].

وأبو فراس يضع توازناً لتعاطيه مع واقع طموحاته المعنوية. وهذا التوازن يجعله مفسراً لكل ما تحويه خفايا شخصيته الأبية. فالأنعام من الخيل والإبل، والصافنات من الجياد الأصيلة، لا تبعث فيه عتوّاً أو غروراً، مهما زاد تعدادها في ملكيته. فعزته، ونبل محتده، لا يتأثر بكثرة المال، أو قلته. فهو يدرك حقيقة ما يُعلي، وواقع ما يذل. فالذي يندرج تحت عنوان الكثرة، لا يكون دائماً ذا قيمة. كما أن ما يُسمّى بالقليل ليس دائماً عديم النفع. فالتوازن بين ذاك وهذا، يتأتى من جوهر الكيفية ومعيارها. وهذه الكيفية تدخل في خيرة الجياد الأصيلة التي يمتلكها شاعرنا، لهدف الحرب التي يخوضها في مواقع القتال المشرّف، تحت عشار الحرب المفروضة من موقع الدفاع عن الثغر، وبين صليل السيوف والرماح. وعلى صفحة هذه الأبيات، تدليل واضح على ما يمتاز به الحارث بن سعيد الحمداني، وتبيان لفروسيته الذائعة الصيت، في ميادين الوقائع، وغمار القتال الكبير[2].

ولعلنا لا ننسى التحدّث عمّا أورده، من خصال مكارمه التي لا يحصى عدّها. ونستطيع أن نبرز واحدةً منها، لتعطينا ما يكفينا للتعرف على ما يكتنز في رجولته. إلا وهي ميزة الجود في كل سلوكه. فهو جواد في العطاء، وفي العفو عند المقدرة، وفي مغالبة الشهوة عن الدنايا، وفي غوث الملهوف، وردّ الاطمئنان والراحة إلى المنادي المستغيث.

وإذا أردنا استخلاص ما يجمّل الجمال في تلك الأبيات الفخرية، فتجدنا نقف مأخوذين أمام قوله:

لا أَقتني لصروف دهري عدّةً حتّى كأنَّ صروفه أحلافي

فهذا البيت يرينا شامخ رجولة هذا الشاعر، غير الآبه بمصائب نوائب الحياة

---

(١) المارديني: زهير ـ شاعر أمارة بني حمدان ـ ص: ٦٧.

(٢) المارديني: زهير ـ شاعر أمارة بني حمدان ـ ص: ٦٨.

ونوازلها، التي يحسب لها حساباً، بل يلقاها طلق المحيا دون سابق استعداد لكوارثها مهما عظمت وجلّت. والعظيم في صورة هذا البيت المميّز القدرة المستفاضة في شجاعة الشاعر، التي تمكنت من التوازن بين ما يصبو إليه، وما يطمح الزمان في إحداثه؛ حتى ألفت غايات الدهر، طموحات الشاعر، فسارت منقادةً لتحقيق رغائبها. وهنا تلاحقني لفتة من القارىء، أتخيّلها متساءلة: ألا نجد شبهاً كبيراً بين ما يسري في أبيات شاعرنا، وما يفيض من قصائد أبي الطيب المتنبي؟ نعم هو الواقع الذي نلمح بعده عند الشاعرين معاً، لتشابه العزّة والأنفة في نفس الشاعرين في آن. ولعلّ التشبيه يصل إلى منتهى القناعة عندنا، حين نقول: إن الذي يؤكد تشابه النفسيتين، الصراع الذي رأيناه بين الشاعرين في حضرة سيف الدولة، حتى انتهى إلى إزاحة المتنبي، وإخراجه من حيّز وجود أبي فراس، المستأثر بالغرب من ابن عمّه، والحرص على عدم رؤية من ينافسه بمحبته.

ونفس أبي فراس غلاّبة على المصاعب في كل زمان ومكان. وهي لا تفرّق بين حالٍ وحال، مهما اشتد وصعب. ويكفينا من ذلك، المقارنة بين ما رأيناه في الأبيات التي سبقت قبل وقوعه في الأسر، وتلك التي أنشدها بعد وقوعه في الأسر، والتي يقول في بعضها[1]:

أُسِرْتُ وَمَا صَحْبِي بِعَزْلٍ لَدَى الوَغَى وَلاَ فَرَسِي مُهْرٌ وَلاَ رَبُّهُ غِمْرُ
وَلَكِنْ إذا حُمَّ القَضَاءُ عَلَى امْرِىءٍ فَلَيْسَ لَهُ، بَرٌّ يَقِيهُ وَلاَ بَحْرُ

إنها ولا ريب، خير شاهد، يثبت رسوخ الفضائل في سلوك الشاعر، في زمن السلم والحرب، والراحة والشدّة. ذلك لأنها ثابتة في قبيلته الثابتة العروبة الصافية، المتوارثة من خير أب، وأعزّ جد. وستبقى سائرةً في المحافظة على ثوابتها المشرّفة، في سلوك الأولاد والأحفاد، ما دامت عقيدة الشاعر ثابتة لا تتزعزع.

وفخر أبي فراس، لا نهاية لحدوده المحيطة بشرفه وكرامته. ذلك أنه فارس مغوار. وبطل صنديد، حوت سيرة الزمن، أجلّ ما عرف عن المقاتلين، قوّة الصراع للبقاء الأفضل، عند المغامرين الشرفاء. وشاعرنا، لا يفتأ بذكر بطولاته، وإقدامه، وعدم تورّعه عن خوض غمار أشدّ الحروب ضراوةً وشراسة. وهذه

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٧٠.

صورة صادقة، تعبّر عمّا تقدم، حين انفلتت عزيمته من عقيلة صبره، فخاض غمار حرب ضروس، حين فاجأه الروم في لهو الصيد؛ فجعل اللهو جداً حازماً، يتردّد في قوله[1]:

أَلاَ مَـنْ مُـبْـلِـغٌ سَـرَواتِ قَـوْمـي وَسَـيْـفَ الـدولـةِ المـلـكَ الـهُـمَـامَـا[2]
بَـأنّـي لَـمْ أَدَعْ فَـتَـيـاتِ قَـوْمِـي إذَا حَـدَّثْـنَ جَـمْـجَـمْـنَ الـكَـلاَمَـا[3]
شَـرِبْـتُ ثَـنَـاءَهُـنَّ بِـبَـذْلِ نَـفْـسِـي وَنَـارُ الـحَـرْبِ تَـضْـطَـرِمُ اضْـطِـرَامـا
وَلَـمَّـا لَـمْ أَجِـدْ إلاَّ فِـرَاراً أشَـدَّ مِـنَ الـمَـنِـيَّـةِ أَوْ حِـمَـامَـا[4]
حَـمَـلْـتُ على وُرُودِ الـمَـوْتِ نَـفْـسِـي وَقُـلْـتُ لِـعُـصْـبَـتِـي مُـوتُـوا كِـرامـا

إنه يبعثها صارخةً مدوّية، في مسامع القاصي والرائي، تعلن عن فخره بمن التصق شرفه به، سيف الدولة الملك الهمام؛ الذي رعاه بعظيم قدرته الخارقة للعجائب، ودرّ به على المروءة المعززة في التفاني بالذود عمّا يلحق التلمة بالشرفة. وقد أتحفنا بترداد ما يتغنى به فتيات قومه وذكراً لشجاعته الفريدة المغامرة، حين أحاط به العدوّ؛ ولمّا لم يجد سوى القتال المنقذ له من ذل القرار، صرح بجنوده كي يخوضوا غمار الحرب مهما كثر عدد الأعداء. فإمّا أن يموت وإياهم شهداء أو يعيشوا شرفاء.

ويتابع وصف بطولته، تحت عنوان المفاخرة بعزة نفسه فيقول:

وَعُـذْتُ بِـصَـارِمٍ وَيَـدٍ وَقَـلْـبٍ حَـمَـانـي أنْ أُلامَ، وَأنْ أُضَـامـا[5]
وَلَـمْ أَبْـذِلْ لِـخَـوْفِـهِـمُ مَـجَـنّـاً وَلَـمْ أَلْـبِـسْ حِـذَارَ الـمَـوْتِ لامـا[6]
كَـشَـفْـتُ بِـهِ صُـدُورَ الـخـيـلِ عَـنّـي كَـمَـا جَـفَّـلْـتُ فـي بِـيْـدٍ نِـعَـامـا[7]
أَلُـفُّـهُـمُ، وَأَنْـشُـرُهُـمْ كَـأَنّـي أُطَـرِّدُ مِـنْـهُـمُ الإبْـلَ الـسَّـوامـا[8]

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٨٢.
(٢) سروات قومي: أعلاهم مقاماً ـ الهمام: الشجاع، صفة الأسد.
(٣) جمجمن: لم يفصحن عن كلامهن.
(٤) الحمام: الموت.
(٥) الصارم: السيف ـ أضام: أذلّ وأقهر.
(٦) المجن: ما يحمى به الفارس نفسه من الضربات، وهو الترس ـ اللأم واللأمة: الدرس.
(٧) البيد: جمع بيداء. وهي الفلاة الواسعة.
(٨) السوام: مفردها سائمة. وهي الإبل الراعية التي لا تُعلف في العطن. قيل حُيّت بذلك لمداومتها الرعي. ثم عمم لكل راعية من الدواب.

وانـتـقـد الـفـوارس بـيـد أنـي   رَأيـتُ الـلُّـوْمَ أنْ ألْـقَـى الـلِّـئـامـا

إنها أبيات مستحبّة الاستساغة بكل مبدع جذّاب. وهي تخلو من التفاخر المقذع اللاذع، والتباهي بعجرفةٍ قبيحة التعبير. فالعكس المسرّ المفرح، هو الظاهر فيها، حيث التعبير عن فروسية ملؤها طيب المعاشرة، وشهامة الرجولة، ونرى أبا فراس يمثل الإنسان القريب إلى القلب، بأحاسيسه الرقيقة المرهفة، المتماوجة نقاءً وصفاءً، في جميع تقلبات الأحوال والأوضاع. إنه ضمن مفاخره، يفسّر ما يعتمل في حناياه، بالكرامة والأنفة، وما يفيض من النفس بالرغبة الجيّاشة، في التعامل مع الآخرين، على حدّ المساواة، لا تفريق إلا بمقدار الضّعة والعزة.

وفي موردنا هذا، نلفت النظر، إلى ما نظمه في رومياته، التي نلمح من خلالها شاعرنا الأبيّ، يعبر من وهدة الفشل والاندحار، في جفرة الضياع والتشتيت إلى قمة التمجيد والتفخيم، بما حققه من النجاح والانتصار. والجميل في هذه النقلة من الضعف إلى القوة، مراعاته لمواضع الفخر القريبة الاقتران ببواطن الذات، ومكان تمجيدها للسامي الشامخ. ولا يكتفي الشاعر، بذكر صفات شخصه، بل يعرّج على وصف ميزات شعره، فيصنّفه من الجيد الملتزم بقواعد الشاعرية الأصيلة، بعيداً عن الطيش والرعونة.

وكما وجدنا المفاخرة بالشعر عند أبي الطيب، كذلك نحظى بهذه المفاخرة عند الشاعر الحمداني. ولكنها بعيدةٌ كل البعد عن العنجهية المنتشرة لدى المتنبي بل هي مستساغة، خفيفة الوقع على النفس، يتباهى بها اتباعاً لأصول المفاخرة المتعارف عليها عند الشعراء. ونوع هذا الفخر، نجده في مثل قوله[1]:

مَتَى تُخْلِفُ الأيَّامُ مِثْلِي لَكُمْ فَتىً   طَوِيلَ نَجَادِ السَّيْفِ رَحْبَ المُقَلَّدِ[2]
مَـتَـى تَـلِدُ الأيَّـامُ مِـثْـلِي لَـكُـمْ فَـتـىً   شَدِيداً عَلَى البَأسَاءِ غَيْرَ مُلَهَّدِ[3]
فَإنْ تَفْتَدُوني تفتدوا شَرَفَ العُلا   وَأسْـرَعِ عَـوّادٍ الَـيْـهَـا، مُـعَـوَّدِ
وَإنْ تَـفـتـدُونـي تَـفْـتَـدُوا لِـعُـلاكُـمُ   فَـتـىً غَـيْـرَ مَرْدُودِ الـلِّـسـانِ أوْ الـيَـدِ
يُـدَافِـعُ عَـن أعْـراضِـكُـمْ بِـلِـسَـانِـهِ   وَيَـضْـرِبُ عَـنْـكُـمْ بـالـحُـسَـامِ الـمُـهَـنَّـدِ

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٥٨.
(٢) نجاد السيف: حمائله.
(٣) ملهّد: ضعيف.

فَمَا كُلُّ مَنْ شَاءَ الْمَعَالِي يَنَالُهَا وَلاَ كُلُّ سَيَّارٍ إلى الْمَجْدِ يَهْتَدِي

وفي هذه الأبيات، نشاهد بعضاً من مفاخر أبي فراس الفرديّة المتمحورة على ذاته، وإظهار شخصيته الشجاعة، في مبارزه البطولية. والذي يمنعنا عن التوسع بذكر شواهدها، ضيق مجال الدراسة لمثل ذلك الاستطراد، الكثير الشيوع في ديوان الشاعر.

ويبقى لدينا الحديث عن مفاخره الجماعية، الكثيرة الشيوع في ديوانه. والمفاخرة يكثر انتشارها في قبيلة آل حمدان، العائد مجدها إلى الشاعر نفسه. وحديثه عنهم، يعود بالذكر إلى طيب راحاتهم النديّة، ووافر تبجيلهم وسمو احترامهم لدى عارفيهم، والمعلني الولاء لغرّة عزتهم. والداعي لهذا التغنّي بمفاخر قومه الأغرار، ما تركوه في جبين الدهر، من مآثر حققوها في حروبهم المشرفة، وانتصاراتهم المجيدة، التي لا يستطيع الشاعر تجاوزها، وهي حقيقة عنفوان وجوده.

ومن شاهد تلك المفاخرة الجماعية، ذلك الذي يفسّر انتصار سيف الدولة على من حاول تحديه، في بداية نشوء دولته، حين تعرّض لكثير من الثورات من قبل البدو الضاربين في بادية الشام، وهم في غالبهم من قبائل نزار وكليب ونمير. وفي أحد الأيام صرع النزاريون، عامل سيف الدولة في قنسرين، ويدعى الصباح بن عمارة. فثار سيف الدولة لهذا التحدّي، وسارع مع ابن عمّه إلى اقتسام الجيش بينهما، حيث قاد كل منهما فريقاً، وحاصرا المتمردّين الثائرين حتى تمكنا من القضاء على تمرّدهم. وفي هذا المضمار، يقول أبو فراس مفتخراً[(١)]:

أَلَـمْ تَـرَنَـا أَعَـزَّ الـنَّـاس جَـاراً وَأَمْـرَعَـهُـمْ وَأَمْـنَـعَـهُـمْ جَـنَـابـا[(٢)]
لَـنَـا الـجَـبَـلُ الـمُـطِـلُّ عَـلَـى نِـزَارٍ حَـلَـلْـنَـا الـسَّـهْـلَ فِـيـهِ والـهِـضَـابـا
تُـفَـضِّـلُـنَـا الأَنَـامُ وَلاَ تُـحَـاشِـي وَنُـوصَـفُ بـالـجَـمِـيـل وَلاَ نُـحَـابـى
وَقَـدْ عَـلِـمَـتْ ربـيـعـةُ بَـلْ نِـزَارٌ بِـأَنَّـا الـرَّأْسُ والـنَّـاسُ الـذُّنَـابـى[(٣)]

ومن خلال هذا السرد، لصفة المناعة التي تحلّى بها قوم الشاعر، ذهب الشاعر لذكر المعارك التي أشعل الحمدانيون أوارها، في وجه أهل البداوة،

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٣٣.
(٢) أمرعهم: أحفلهم بالمرعى والخصب والعطاء.
(٣) الذنابى: الذنب، كناية عن التحقير.

ووصلوا إلى النجاح بها، تحت ظل سيف الدولة. ومن ثم ذهب إلى ذكر سمات الفرسان الحمدانيين، الراكضين وراء المعتدين، لتلقينهم درس الطاعة لسيّد بني حمدان. وفي ذلك يقول:

وَلَـمَّـا ثـار سَـيْـفُ الـدِّيـن ثُـرْنَـا ... كَـمَـا هَـيَّـجْـتَ آسـاداً غِـضَـابـا

دَعَـانـا والاسِـنَّـة مُـشْـرَعَـاتٌ ... فَـكُـنَّـا عِـنْـدَ دَعْـوَتِـهِ الـجَـوَابـا

ومن جميل شعر فخره بمزايا قبيلته، السامية العلوّ، الرائدة في المجد، ذلك الذي يعزّزه منعة العقيدة، في أصالة قبيلته، وطيب أرومة ماضيها المتبع بكل صلب قوي. ويطيب لنا أن نختار في هذا الصدد بعض أبياته التي يقول فيها(١):

أَيُّها الـمُبْتَغِي مَحَلَّ بني حَمْدَان ... مَـهْـداً أَتَـبْـلُـغُ الـجـوزاءَ

فَـضَـلُـوا الـنَّـاسَ رِفْـعَـةً وَسُـمُـوّاً ... وَعَـلَـوْهُـمْ تَـكَـرُّمـاً وَوَفَـاءَ

يا مُجِيلَ الأَفْكارِ فِيهِمْ إلى كَمْ ... تُشْعِبُ النَّفْسَ هَلْ تنالُ السَّمَاءَ

أُسْـرَتـي، لاَ أَقُـولُ فـخـراً سَـرَاةٌ ... حَـسْـبُـهُـمْ ذَاكَ مَـفْـخَـراً وسَـنَـاءَ(٢)

ومن مفاخره الجماعية بأهله وقبيلته، تلك التي يردُّ بها على شاعرٍ يدعى عبد الله بن ورقاء الشيباني، التي فاخر فيها بمضر وبكر وتغلب في وقائعها قبل الإسلام، أثناء تهنئة سيف الدولة ببعض انتصاراته. وقد سارع أبو فراس للرد على الشاعر الشيباني بقصيدة نقتطف منها قوله(٣):

ولـي فـيـك مـن فَـرْطِ الـصَّـبَـابـةِ آمِـرُ ... وَدُونَـكِ مِـنْ حُـسْـنِ الـصِّـيـانَـةِ زَاجِـرُ

عَـفَـافُـكِ غـيٌّ إنَّـمـا عِـفَّـةُ الـفَـتَـى ... إذا عَـفَّ عَـنْ لَـذَّاتِـهِ وَهْـوَ قَـادِرُ

نَـفَـى الـنَّـوْمَ عَـنِّـي هِـمَّـةٌ عَـلَـوِيَّـةٌ ... وَقَلْبٌ على ما شِئْتَ مِنْهُ مُظَاهِرُ

وَأَسْـمَـرُ مِـمَّـا يُـنْـبِـتُ الـخَـطُّ ذَابِـلٌ ... وَأَبْـيَـضُ مِـمَّـا يَـطْـبَـعُ الـهِـنْـدُ بَـاتِـرُ

وَنَـفْـسٌ لَـهَـا فـي كُـلِّ أَرْضٍ لُـبَـانَـةٌ ... وَفـي كُـلِّ حـيٍّ أُسْـرَةٌ وَمَـعَـاشِـرُ

ويَستمرّ مفاخراً بمآثر نفسه العليّةِ التي لا تعرف الكلل والملل، ولا التقاعس عن واجب الذود عن حياض الوطن، وحدوده المقدّسة، حتى يصل إلى من أورثه هذه النخوة الدفاعية عن كل مقدّسٍ غالٍ، وهو والده سعيد بن حمدان، ويراعيه منذ طفولته، سيف الدولة، فيقول:

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٨.

(٢) سراة وسروات: سادة وزعماء.

(٣) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٧٥.

لَئِن كَانَ أَصْلِي مِنْ سَعِيدٍ نَجارُهُ　　فَفَرْعِي لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ القَرْمِ نَاصِرِ[1]
وَمَـا كَـانَ لَـوْلاَهُ لِـيَـنْـفَـعَ أَوَّلٌ　　إِذَا لَـمْ يُـزَيِّـنْ أَوَّلَ الـمَـجْـدِ آخِـرُ

وهذه القصيدة الرائية، حافلة بمآثر الحسب والنسب المتصل بقبيلة بني حمدان عامّةً، وبآباء الشاعر وجدوده وأعمامه وأخواله خاصّةً. فيذكر جدّه «حمدان» صاحب الأيادي البيضاء، في جمع شمل العشيرة، ووضع نفسه حامياً في الملمات والحروب، حيث حارب الطوليين، وقاتل البيزنطيين، ورفع القلاع والحصون درعاً حامياً لهجمات كل معتدٍ. ويذكر مآثر عمّيه: الحسين بن حمدان، وأبي جعفر بن حمدون التغلبي، اللذين أبليا البلاء الحسن في ساحات الوغى، وحققا انتصارات رائعة على بعض قبائل العرب، وواجها بشجاعة نادرة، وقوّة شكيمة، غزوات الفرس والروم، ومحاولة السيطرة على الثغور الحمدانية. وكذلك يذكر مآثر عمه أبي الهيجاء، المنتصر انتصاراً شامخاً ساحقاً، على بني كلاب في بطاح نجد؛ والّذي سار بإقدام نادر الشجاعة لقتال ابن الدّيدَواذِ في بلاد أذربيجان، ولم يتركه حتى جند له، وهزم جنوده شرّ هزيمة. وبعد أن يذكر عمه سليمان بن حمدان الملقب بالحرون، ومآثر أبيه الذي حمى جنبات الملك، وأذق الأعداء من بني قريع مُرّ النكال في «سُلَيْم» و «حاجر» و «سرح» ينتقل إلى ذكر مآثر سيف الدولة، باني المجد الطريق للأمارة الحمدانية. ويخص بالذكر جهاده المشرّف في وجه البيزنطيين والإخشيديين، والقبائل البدوية التي تدين بالقرمطية. ويعرّج على أعمال آل حمدان النجب، أمثال يحيى بن علي بن حمدان، وأخيه أحمد، وأبي عدنان، والمهلهل، وسائر فرسان العشيرة الأشداء. ثم يختم قصيدة الفخر هذه، بنشيد العزّة الحمدانية التي يقول فيه:

لَنَا في بَنِي عَمّي وَأَحْيَاءِ إِخْوَتي　　عُـلاً حَيْثُ سَارَ النَّيِّران سَوائرُ[2]
وَإِنَّـهُـمُ الـسَّـادَاتُ والـغُـرَرُ الـتـي　　أَطُولُ عَلَى خَصْمِي بِهَا وَأُكَاثِرُ
نَطَقْتُ بِفَضْلِيَ وامْتَدَحْتُ عَشِيرَتي　　فَـمَـا أَنَـا مـدَّاحٌ وَمَـا أَنَـا شَـاعِـرُ
وَهَلْ تَجْحَدُ الشمسُ المنيرةُ ضَوْءَها　　وَيُسْتَرُ نُورُ البَدْرِ، والبَدْرُ زَاهِرُ

ولن نجد أفضل من القصيدة «البائية» ختاماً لهذه المفاخر العامرة، ينثر أبيات شاعرنا، الحافلة بكل جيّد وجميل. وهي القصيدة التي فاضت بها قريحته

---

(١) النجار: الأصل والحسن ـ القرم: السيد العظيم، والفحل من الرجال.
(٢) النيران: الشمس والقمر.

أثناء احتدام الجدال، بينه وبين الدمستق، داخل السجن الحصين الذي اعتقله الروم بداخله، حين تجرّأ الدمستق عليه بقوله: «إنّما أنتم كتّاب، ولا تعرفون الحرب». وللحال، ثار الشاعر قائلاً: «نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام». وأردف هذا القول بقصيدةٍ طويلة، نقتطف منها الأبات التي تقول[1]:

أَتَزْعُمُ يا ضَخْمَ اللَّغَادِيدِ أَنّنا ... ونَحْنُ أُسُودُ الحَرْبِ لاَ نَعْرِفُ الحربَا[2]

أَتُوعِدُنا بالحربِ حتّى كأنّنَا ... وَإِيّاكَ لَمْ يُعْصَبْ بِهَا قلبنا عَصْبا

لَقَدْ جَمَعَتْنَا الحَرْبُ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ ... فَكُنَّا بها أُسْداً وَكُنْتَ بها كَلْبا

فَسَلْ بَرْدَساً عنّا أَخاكَ وصِهْرَهُ ... وَسَلْ آل برداليسَ أَعظمكم خَطْبا[3]

وَسَلْ قَرْقواساً والشُّمَيشقَ صِهْرَهُ ... وَسَلْ سِبْطَهُ البطريقَ أثبتكم قَلْبَا[4]

...وَجَدْتُ أباكَ العِلْجَ لمّا خَبَرْتُهُ ... أَقلَّكُمُ خيراً، وأَكْثَرَكُمْ عُجْبا[5]

لقد كان فخر أبي فراس نابعاً من قناعته، بأنه واجب الوجود في شعره، كي يتم له الوجود في واقع العشيرة المترامية البطولات، الساحقة الفروسية وهو واحد موجود في ذلك الواقع العشائري، المتصف بأمارةٍ حكمت وأعلت الحاكم عالياً في تاريخ البطولات العربية. فإذا أعلى من قدر أهله وأقاربه ومن ينتمي إليهم بعزته وسؤدده، اعتلى قدراً ورفعةً؛ وإذا أهمل ذكرهم، لا يكون لديه ما يعزّه ويرفع منزلته. فكانت تلك الصولات التي هدر فيها منشداً بتلك القصائد الغرّاء، والتي أوردنا بعضاً منها، على أمل أن يتسنّى لنا في الزمن القريب، من إفراد مؤلّفٍ مستقل يتحدّث عن مآثر الفخر في شعر أبي فراس. ولعلنا نوفّق إلى تحقيق هذه الأمنية.

رومياته:

هذه التسّمية كعنوان غرضٍ من أغراض شعر أبي فراس، تحتضن مقطعاتٍ من المقطعات التي فاضت بها قريحته، وهو داخل سجن العذاب، والآلام الرومي. فالعذاب يلقاه من قساوة القيد المحيط بمعصميه وكاحليه؛ والألم يأتيه

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٣٦.

(٢) اللغاديد: جمع لغدود. وهي اللحمة عند اللهاة من الحلق.

(٣) بردى: اسم علم شخص معيّن.

(٤) قراقوس والشميشق: اسمان علمان ـ البطريق: سيد الروم وقائدهم.

(٥) الصيد: السادة البخبار، من صيد الأسود ـ بيض الهند: صفة السيوف المصنوعة في الهند.

من فراقه لإخوانه وأصدقائه وأحبته. لقد شاقه أن يعيش ما يقارب الأربع سنين أو أكثر، وحيداً فريداً في أسر مرٍّ شاق، يراوده فيه شعاع من أمل بالخروج ثم لا يلبث أن يغيبه ظنٌ تطرحه دسيسة الروم الخبيثة، بأن ابن عمه مسرورٌ بسجنه، ولا يريد افتداءه بمالٍ لإطلاق سراحه. وهنا تجيش في صدره عوامل العتاب على من رعاه بتربيةٍ حصينة، ويعجب أشد العجب لما يسمعه، من أهل الشقاق والنميمة، ويدعو الله أن لا يكون ظنه في محلّه، بأن ابن عمّه يسلوه ولا يهتم لإخراجه من أسره. وفي جانب آخر من تلك الهواجس التي كانت تساوره، كان يشعر بالضيق الشديد، لما يلقاه من الذل؛ وهو عزيز قوم، ربي بالدلال، ونشأ بالعزة والسيادة. فتصغر الدنيا في عينيه، وتكبر الهموم في رأسه، فيشرد به الخيال، إلى شتاتٍ من التشاؤم الأسود البغيض، وتدور الدنيا بأثقال قلقه، وارتباك تفكيره، فيغوص في بحرانٍ من اللاوعي الداجي، في سراب الضلال، ويحار عقله بين الغيبوبة واليقظة، أيهما طريقه إلى الالتزام. بأنها معاناة إنسانٍ لم يعرف الأسر من قبل وقوعه فيه لدى الروم، وظن أنه في سبيل الذود عن حمى الوطن، يستسهل كل صعب؛ ولكنه لم يفطن إلى ظنون الغدر التي قد تراوده، وهو فريدٌ وحيد، فصعب عليه الحال، واستسلم لوابلٍ من دموع البكاء الحار السخي؛ تجري فيه لآليء عينيه على قرطاس قلمه. ومن تلك اللآليء، شكاية شعر أرسلها إلى والدته، يشرح لها فيها ما هو عليه من ذلٍّ وألم وسقم، ويدعوها إلى التمثل به في كثيرٍ من التجلّد والصبر، علّ الله يحدث بعد ذلك أمراً. ومن جميل قوله في شعره الوجداني الرقيق[1]:

مُصَابِي جَلِيلٌ والعَزَاءُ جَمِيلُ ... وَظَنِّيَ أَنَّ اللَّهَ سوفَ يُدِيلُ[2]
جِراحٌ تَحاماها الأُسَاة ومخافةٌ ... وَسُقْمَانِ بادٍ مِنْهُمَا وَدَخِيلُ[3]
وَأَسْرٌ أُقَاسِيهِ دليلٌ نُجُومُهُ ... أرَى كُلَّ شَيءٍ غَيْرَهُنَّ يَزُولُ
تَطُولُ بي الساعاتُ وهي قَصِيرَةٌ ... وَفي كُلِّ دَهْرٍ لا يَسُرُّكَ طُولُ

لا أدري كيف أكشف معاني هذه الأبيات، لدليل القارىء الجاري وراء قلمي، مستفسراً عن فحواها بنفحها الحار، الملتهب بنار جمر البعاد، عن أمٍّ

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٣٩.
(٢) يديل: يبدل.
(٣) الأساة: المعالجون ـ السقمان: مفردها سقم. وهو المرض.

عاشت حياتها محرومة الزوج، في سبيل رؤية الولد، فلذة الكبد، وحشاشة الروح؟ أجل لا أدري، كيف أفسّر هذه المعاناة، وهي تخرج من فم أبي فراس، كفحيح أفحى جريح، وهو من هو، في مقياس رفعة العظمة، وشرف النبل السامق في العلوّ. ألم يكن قبل أن يقول: «مصابي جليل» ينزل المصائب فوق رؤوس الروم، بقلة من جنوده، أمام كثرة من جنودهم؛ ألم يكن المقاتل المجلّي في كل صولة وجولة، والباعث الرعب في نفوس الأعداء، حتى يغلب عليه الضحك، وهو يراهم ينهزمون أمامه، انهزام النعاج أمام الأسد الهصور؟ إلا نلمح في شعره أنّه مكلوم، وهو يقول: «وأسرّ أقاسيه» فنحسُّ وكأن الجبل الراسيات، تنطبق عليه، وتكاد تقطع نفس الحياة في شرايين جسده المعذّب، لولا بقيّة أمل في ضميره، بأن الله لن يتخلّى عنه، وفي القاطع الآخر من حريّة الوجود، أمٌّ تنتظر أوبة وحيدٍ، لن يبخل الإله عليها، برؤيته سليماً معافى.

وقد أوردنا المعافاة، للفت نظر القارىء أن آلامه لم تكن من الأسر فقط، بل من جراح فخذه الذي أصيب بسهم مسنّن، بقي نصله داخل الجرح، فتورّم وتأزّم، وكاد يقضي عليه من تفاعل التّهابات أصابته بالحمّى الشديدة التي كادت تقضي عليه. حتى أن الأطباءِ تعاونوا على مداواته بعد خروجه من السجن، فلم يتمكنوا من إزالة التهاب الجرح، إلاّ بعد مدّةٍ طويلة. ومع هذا الوصف الحسيّ، لمعاناته الجسدية، كان هناك وصف آخر لمعاناته الروحية، التي أصبحت هذه الأخيرة، وكأنها معلّقة بأمراس كتان ـ كما قال امرؤ القيس ـ تعدُّ انقضاء ساعات الليل، ثانية ثانية، ودقيقة دقيقة، بلهاث صدرٍ يعلو ويهبط من وقع حلكة الظلام الجاثمة على جسده. وهنا نتساءل: هل كان الشاعر مؤمناً بما يخطّه لأمّه من أمل الخروج من الأسر؟ وهل كان حقيقةً يشعر بواقع ما يكتبه، أم أنّه كان قانطاً من فك أسره، ويقول ما يقول في شعره، ليواسي والدته في وحدتها، ويدفع عنها صدمة اليأس القاتلة؟ لم تكن حقيقةً في ضمير الشاعر؛ ولم يفصح الشاعر بعد ذلك عمّا نتساءل عنه، وبقي أبياتاً نسردها في حالتها الشعرية، ونعرضها كما جاءت، بعيداً عن التفسير والتعليل. والذي يعزز في تساؤلاتنا واقع الحيرة، ويميل بنا إلى الظنّ، بأن أبا فراس، حاول وهو في أسره، أن يعزز الأمل في نفس والدته، رغم شعوره باليأس، هو تتمة الأبيات التي تعبّر عن قنوطه الشديد، من إخوانه وأصدقائه، وقد نسوه، وألهتهم دنياهم عنه، والتي يقول فيها:

تَنَاسَاني الأصحابُ إلاّ عصابةً ستلحق بالأُخرى غداً وتحُولُ

وَمَنْ ذا الذي يَبْقَى على العَهْدِ إنّهم وإنْ كَثُرَتْ دَعْواهُمُ لَقَلِيلُ
أُقَلّبُ طَرْفِي لا أرَى غَيْرَ صَاحِبٍ يَمِيلُ مَعَ النَّعْمَاءِ حَيْثُ تَمِيلُ[1]
وَصِرْنَا نَرَى أنَّ المُتَارِكَ مُحْسِنٌ وَأنَّ صَدِيقاً لاَ يَضُرُّ وُصُولُ
أكلُّ خَلِيلٍ هَكَذَا غَيْرُ مُنْصِفٍ وَكُلُّ زَمَانٍ بِالكِرام بَخِيلُ
فَيَا حَسْرَتي مَنْ لي خلٌّ مُوافِقٍ أقُول بِشَجْوِي مَرّةً وَيَقُولُ[2]
. . . لَقِيتُ نجومَ الأُفُق وهي صَوَارِمٌ وَخُضْتُ سوادَ الليل وَهْوَ خُيُولُ
وَلَمْ أرْعَ للنفسِ الكريمةِ خِلّةً عَشِيّةَ لَمْ يَعْطِفْ عليّ خَلِيلُ

إنها معاناة مفجعة، يتصبب منها هطل دموع مدرارة، تذرفها حدقتا الشاعر المكتوي، فوق نار الفراق، وجمر القلق المساور، وقد غدر الخلان به، وتحاشوه كتحاشي البعير المعبّد، كما جاء على لسان طرفة بن العبد. وهذا ما أشرنا إلى تفاعله في صدر أبي فراس، المملوء بالحسرة والكمد، لأنه لم يفطن قبل ذلك، لما سيلحقه ممّن آنس منهم أُخوّةً فظنها دائمة صادقة، ولكنه فوجيء بها فيما بعد، غدارةً كاذبة؛ وهو الذي بذل الغالي والنفيس، من أجل البقاء على العهد، والحفاظ على الودّ؛ والتمسك بأذيال الصداقة الناضحة بالإخلاص الدائم. ومن هنا رأينا معاني تلك الأبيات، تنضح بلاذع من المعاناة القاسية المتحجرة، وكأنها قطعت من صخر. كيف لا، وقد آلت بهِ الحال، إلى التماس كفّ الأذى عنه، من أولئك الذين ظنهم أصحاباً، فإذا هم ذئابٌ في ثياب بشر. وكل همّه الآن، أن يسلم من شرّهم وأذاهم وقد يئس من وصلهم، وتقربهم إليه بعد طول جفاء.

وبينما الشاعر يغرق في هذه الوساوس الممضّة القاتلة، يتراءى له شبح أُمّه الغارقة في بحرانٍ أشد التهاباً، من حمّى بحرانه. كيف لا، وهي عجوز وحيدة، تشكو عزلتها في منبج، ولا همّ لها سوى عودة ابنها الأسير. وكان يتصورها، وقد خدّ الحزن بدموع الأسى خدودها، فتلاشت عافيتها، وأضناها طول السهر، وعصرة الكمد في صدرها، فحاق بها الهزال، وأقضى مضجعها الأرق، فتحولت إلى ما يشبه الخيال المترائي في جسد امرأة. وكان يصعب عليه، أن ينتهي الأمر بتلك الأم المتفانية بحب وحيدها، إلى ما أصبحت عليه. وإذا كانت علاقته بتلك

---

(١) طرفي: عيني وبصري.

(٢) شجوي: حزني.

الأم، لا يشابهها علاقة في نظره، من حيث الأمانة والإخلاص، والصدق والشرف، والتفاني وبذل الغالي والنفيس، فلا عجاب إذا جسّد هذا كلّه في قوله[1]:

يَا حَسْرَةً مَا أَكَادُ أَحْمِلُهَا ... آخِرُهَا مُزْعِجٌ وَأَوَّلُهَا
عَلِيلَةٌ بِالشَّآمِ مُفْرَدَةٌ ... بَاتَ بِأَيْدِي العِدَى مُعَلِّلُهَا[2]
تُمْسِكُ أَحْشَاءَهَا عَلَى حُرَقٍ ... تُطْفِئُهَا والهُمُومُ تُشْعِلُهَا
إِذَا اطْمَأنَّتْ وأينَ؟ أَوْ هَدَأَتْ ... عَنَّتْ لَهَ ذِكْرَى تُقَلْقِلُهَا[3]
تَسْأَلُ عَنَّا الرُّكْبَانَ جَاهِدَةً ... بِأَدْمُعٍ مَا تَكَادُ تُمْهِلُهَا

إنها أبياتٌ حافلةٌ بتحطّم حلم الأمان، وأمل رجوع الفرح بعد طول حزن، فكان لا بد للحسرة، من أن تدخل قلب الشاعر، ممزقةً أحشاءه، مكسّرة ضلوعه، تاركةً إياه، في بحر من هشيم تذروه رياح الشجون المغموسة بتأوهات الندبة القاتلة.

وإذا خلا الشاعر إلى نفسه المعذّبة، يهدّيء من روعها، بعد أن يئس من تهدئة روع أُمّه، فإنه ينفحها أبياتاً من نوع آخر من الشعر يقول فيه[4]:

قَدْ عَذُبَ المَوْتُ بِأَفْوَاهِنَا ... وَالمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ مُقَامِ الذَّلِيلِ
أَنَّا إِلَى اللَّهِ لِمَا نابَنَا ... وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرُ سَبِيلِ[5]

وكلن، هل هذا الذي مال إليه الشاعر، وقضى أسره في التحدث عنه؟ لا، فإلى جانب هذه الآلام المكبوتة بحرقة المعاناة الوجدانية، هناك أبيات زاخرة بقوّة الصبر، لا تقنع بالآهات تزفرها، أو التأوّهات تخفف بها لهيب حريقها، بل هناك من المفاخر الرومية، التي عزّ مثيلها قبل دخوله السجن، والتصاقه بجرم العذاب فيه، فانظر إليه، كيف يتحامل على قساوة المعاناة، وينشد بأقوى ما في الفخر اعتزازاً[6]

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٦٠.

(٢) المعلّل: المسلّي.

(٣) عنت: خطرت ـ تقلقها: تزعجها.

(٤) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٤٩.

(٥) نابنا: أصابنا بنائبته.

(٦) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٢٩.

فَلاَ تَصِفَنَّ الحَرْبَ عِنْدِي فإنَّها	طَعَامِيَ مُذْ بِعْتُ الصِّبَا وَشَرابي[(1)]
وَقَدْ عَرَفَتْ وَقْعَ المَسَامِيرِ مُهْجَتي	وَشُقِّقَ عَنْ زُرْقِ النُّصُولِ إهابي[(2)]
وَلَجَّجْتُ في حُلْوِ الزَّمَانِ وَمُرِّهِ	وَأَنْفَقْتُ مِنْ عُمْرِي بِغَيْرِ حِسَابِ[(3)]

ومن منطلق هذا التعالي على الجراح الدامية، تعتمل في خاطره ذكريات الأمس، وقد أخذ منه الإقدام كلَّ مأخذ، فتعود إليه حفيظته المتوثبة، على وقع صهيل الخيول، وصليل السيوف، فتعود إليه عافية القفز فوق الضعف، ليبلغ مبلغ القوّة المتعافية، وأعلى درجات التجلّد، فوق مكابح الحفظ من الإغراق في الأحزان، فنسمعه ينشد، وقد طاب له الإنشاد في خرشنة، فإذا به يقول[(4)]:

إنْ زِرْتُ خَرْشَنَةَ أَسِيرا	فَكَمْ أَحَطْتُ بِهَا مُغِيرا[(5)]
وَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّارَ تَنْـ	ـتَهِبُ المَنَازِلَ والقُصُورا
وَلَقَدْ رَأَيْتُ السَّبْيَ يُجْـ	ـلَبُ نَحْوَنَا حُوّاً وَحُورا[(6)]
نَخْتَارُ مِنْهُ الغَادَةَ الـ	ـحَسْنَاءَ، والظَّبْيَ الغريرا[(7)]
إنْ طَالَ لَيْلِي في ذُرا	كِ فَقَدْ نَعِمْتُ بِهِ قَصِيرا[(8)]
وَلَئِنْ لَقِيتُ الحُزْنَ فِيـ	ـكِ فَلَقَدْ لَقِيتُ بِكِ السُّرُورا

إنّه يخفف هول السجن عليه، ويحاول أن يرفع من معنوية ذاته، ليجعلها أعلى قدراً وقيمةً ممّا يجعل الرُّوم نفسهم. فهو أجلُّ منزلةً ممّا يحرزه حكام خرشنة الذين كانوا بالأمس مهزومين أمام بطولة شجاعته؛ فلا بأس عليه، إذا رؤوه اليوم مهزوماً داخل خرشنة. ومن وسط هذا التخفيف لعبء الإهانة التي لحقت به، علل نفسه بفرج قريب.

وتحضرنا في تحليل غرض روميات الشاعر، قصيدةٌ اشتهرت بوجدانية

---

(١) الصبا: الشباب.

(٢) النصول: جمع نصل. وهو طرف الحربة أو الرمح أو السهام ـ إهابي: جلدي.

(٣) لججت: ولجت اللجة، وهي معظم الماء، أي خضت وجرّبت.

(٤) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٠٥.

(٥) خرشنة: حصن في بلاد الروم ـ مغيراً: محارباً.

(٦) السبي: ما يسبى ويغنم في الحرب ـ حوّاً: فهن حوّة، وهي السمرة في الشفاه. حوراً: فيهن حور، وهو شدة سواد حدقة العين وبياضها.

(٧) الغرير: المغرور الناعم. كناية عن الفتاة.

(٨) الذرى: الأعالي، جمع ذروة.

مفرطة الشفافية بإجماع النقّاد والمحلّلين. ألا وهي قصيدة لامية، تتجلى فيها حقيقة صراعه النفسي، بين الاختناق داخل قضبان سجن الأعداء، المغرقين في عنجهية الاستكبار البغيض، وبين الانتعاش تحت شمس الحريّة الساطعة اعتزازاً وعلواً، في بلاط الأمارة الحمدانية. وتدور قصيدته هذه، داخل حوار إنساني رقيق العاطفة الجيّاشة بالحزن، بينه وبين حمامةٍ طليقةٍ فوق أغصان شجرةٍ قريبة من السجن، يحكي لها حكاية المرارة التي تعصره وهو الأمير المدلّل، الرابي في أحضان التنعم والسيادة، حيث يلقى نفسه الآن مهاناً، مهيض الجناح، بينما جناحها يرفرف في سماء الحريّة والانعتاق، فيقول[1]:

أَقُولُ وَقَدْ نَاحَتْ بِقُرْبِي حَمَامَةٌ ... أيا جارتا، هل تَشْعُرِينَ بِحَالي؟
مَعَاذَ الهَوَى مَا ذُقْتِ طَارِقَةَ النَّوى ... ولا خَطَرَتْ مِنْكِ الهُمُومُ بِبَالِ[2]
أَتَحْمِلُ مَحْزُونَ الفُؤَادِ قَوَادِمٌ ... عَلَى غُصُنٍ نَائي المسافَةِ عَالِ[3]
أَيَا جَارَتَا مَا أَنْصَفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا ... تَعَالَيْ أُقَاسِمْكِ الهُمُومَ تَعَالِي!
تَعَالَيْ تَرَيْ رُوحاً لَدَيَّ ضَعِيفَةً ... تُرَدَّدُ في جِسْمٍ يُعَذَّبُ بالِ؟
أَيَضْحَكُ مَأْسُورٌ وَتَبْكي طَلِيقَةٌ ... وَيَسْكُتُ مَحْزُونٌ وَيَنْدِبُ سَالِ[4]
لَقَدْ كُنْتُ أَوْلَى مِنْكَ بالدَّمْعِ مُقْلَةً ... وَلكِنَّ دَمْعي في الحوادِثِ غالِ

ومثل هذا العتاب الموجه للغدر الذي رماه في شر ورطة، والذي جسده في مخاطبته للحمامة؛ نجد مثله في مخاطبةٍ شعرية، يرفعها إلى سيف الدولة، ويوشّحها بحسرةٍ نابعةٍ من فؤاد قلب مكسور، بقي طريح الوحدة القاتلة، دون افتداء. إنه يتوجه إلى ابن عمه بالشكوى التي تعتمل في خاطره، علّه يتمكن من مديد العون له، وهو العليل المرهق بالأسى؛ يفرح عينيه السهد، ويؤرقه خوف من المستقبل المظلم. وفي ذلك يقول[5]

هَلْ تعطفانِ على العَلِيلِ ... لا بالأَسِيرِ ولا القَتِيلِ
بَاتَتْ تقلّبُهُ الأكُـ ... ـفُّ سَحَابَةَ اللّيلِ الطَّوِيلِ

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٥٠.
(٢) طارقة النوى: نازلة البين والفراق.
(٣) القوادم: جمع قادمة، وهي الريشة الكبيرة الظاهرة من جناح الطائر.
(٤) السالي: الخالي من الهم.
(٥) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٤٦.

يَــرْعَــى الــنُّــجُــومَ الــســائِــرا ... تِ مِــن الــطُّــلُــوعِ إلــى الأفُــولِ
فَــقَــدَ الــضُّــيُــوفُ مَــكــانَــهُ ... وَبَــكَــاهُ أَبْــنَــاءُ الــسَّــبِــيــلِ
واسْــتَــوْحَــشَــتْ لِــفِــرَاقِــهِ ... يَــوْمَ الــوَغَــى سِــرْبُ الــخُــيُــولِ
وَتَــعَــطَّــلَــتْ سُــمْــرُ الــرِّمَــا ... حِ، وأُغْــمِــدتْ بِــيــضُ الــنُّــصُــولِ

هذا هو أبو فراس، في معمعات رومياته التي شغلت الناس في تفسيرها، وتوضيح معالم معانيها، في صورة الواقع الذي كان، لا ذلك الذي صوره خيال المدّعين. وهو يبدو ممّا قدمنا من الشواهد الشعرية، الجديرة بالدراسة والتحليل، مسّهداً، يعد النجوم، ويراقب تطاول ليله البطيء النهاية؛ وهو المشهود له بالشهرة بين الأصدقاء والضيوف، وهذا دليل الكرم، والمكانة الاجتماعية التي يتبوأها، ويحتل رفيع منزلتها. وفي جميع القصائد الموجهة إلى ابن عمّه سيف الدولة، نجده يلحُّ عليه بالمساعدة، ويسأله عن الوعد، والحبّ والذمام، وإدارة الظهر للوشاة، وأهل النفوس المريضة، الذين يحاولون الإيقاع بينهما.

وقد انتهينا من مطالعة هذه الروميات، إلى أنَّ قصائد أبي فراس، تختلج بالشعر الوجداني، الذي لم يتوفّر لسائر الشعراء. إلى جانب سردها لأسره الطويل، وما لحقه منه من مشقّة ومعاناة، وعذاب نفسي وجسدي. إن رومياته وليدة ألم ساحقٍ ضاغط، جعلته يعطي من قريحته الصادحة، أجود الأشعار تفاعلاً مع الذاتّ الإنسانية[١].

أغراض أخرى:

هناك متفرّقات شعرية، لا تحمل عنوان الأغراض المتعارف عليها بالكثرة والعددية؛ بل هي لمحات خاطر جادت بها قريحته في مناسبات طارئة، فرضت عليه إنشاد تلك القصائد؛ ولم تكن استمرارية شعرية، لها شروط الانتساب لهذا اللون الشعري؛ وكذلك لم يكثر الشاعر منها كباقي الموضوعات المسماة بالأغراض. ومن متفرقات موضوعات شعره، نستخلص العناوين التالية:

أولاً ـ الرّثاء: وموضوع الرّثاء، لا يزيد في مجموع قصائده على التسعين بيتاً، تناولت في غالبها أقاربه، والخاصة من أهل بيته. وتنحصر في غالبيتها، في رثاء والدته، وأخته، وابن عمه أبي المرجى جابراً، وأخت سيف الدولة، وأبي

---

(١) شرارة: عبد اللطيف: أبو فراس الشاعر المعذّب ـ ص: ٧٣.

ـمكارم ابن أخته، وأبي وائل الحمداني. ولعلنا نصيب الهدف في عرض ـفرّقات هذا الشاعر، إذا جعلنا قصيدة رثائه لوالدته، هي الجديرة بالاهتمام، لما ـحويه من عاطفةٍ صادقة، تأخذ بمجامع قلبه وعاطفته حيث يقول[١]

ـا أُمَّ الأسيـر سَقَـاكِ غَـيْـثٌ ... بِـكُـرْهٍ مِـنْـكِ مَـا لَـقِـيَ الأَسِـيـرُ
ـا أُمَّ الأَسِـيـرِ سَـقَـاكِ غَـيْـثٌ ... إلى مَنْ بـالـفِـدَى يَـأْتـي البَـشِـيـرُ
ـا ابْـنُـكِ سَـارَ فـي بَـرٍّ وَبَـحْـرٍ ... مـمـنْ يَـدْعُـو لَـهُ أَوْ يَـسْـتَـجِـيـرُ
ـرَامٌ أَنْ يَـبِـيـتَ قَـرِيـرَ عَـيْـنٍ ... ولُـؤْمٌ أن يُـلِـمَّ بِـهِ الـسُّـرُورُ[٢]
قَـدْ ذُقْـتِ الـرَّزَايـا والـمَـنَـايـا ... وَلاَ وَلَـدٌ لَـدَيْـكِ وَلاَ عَـشِـيـرُ[٣]
غَـابَ حَـبِـيـبُ قَـلْـبِـكِ عَنْ مـكـانٍ ... مَـلاَئـكـةُ الـسَّـمَـاءِ بِـهِ حُـضُـورُ
يـبـكـيـكِ كُـلُّ يَـوْمٍ صـمـتِ فـيـهِ ... مُـصَـابِـرةً، وَقَـدْ حَـمِـيَ الـهـجـيـرُ[٤]

بمثل هذه الألفاظ الحزينة، ينذب أبو فراس والدته، التي أحلّها المحلّ لأول في حياته، والتي جعلته يبكي وجوده الممض المؤلم. إنه يشعر بثقلٍ ضاعفٍ من الآلام، بعد أن وصل إليه نبأ وفاة والدته، وهو بعيدٌ عن المكان التي ضت نحبها فيه، ولا يستطيع المشاركة بتشييعها إلى مقرها الأخير. والذي ينبئنا ذلك، ترداده لكلمة «أيا أم الأسير» حيث يجمل بها موضوعين:

الأول، فجيعة الأُم بابنها الدائم الغياب عنها، وانتقال روحها إلى خالقها، ـهو على ذلك الحال من الأسر. والثاني: فجيعته هو الأسير بموت أُمه داخل ـسجن، يذيقه الموت مرتين. مرّة في خروج الروح من الجسد، ومرّةً من قصوره عن بلوغ واجب تشييع تلك الروح. وهذا ما أوحى إليه بترداد «يا أم الأسير» لمعبّرة عن واقع الحال الثقيل على الجسد والروح في آن. وفي المرثية ألفاظ ـقليدية، سبكها الشاعر على صيغة ما كان عليه الشعراء الأقدمون، بالدعاء لاستنزال الغيث على قبر والدته. وكأنه يحسُّ بعطشها الروحي لرؤية ابنها التي حرمت من قربه منها، فدعا لها بهطولِ مطرٍ على جثتها، يرويها في مماتها، لأنها لم ترقوِ في حياتها.

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٩٠.
(٢) يلم: يصيب.
(٣) العثير: الصاحب المعاشر.
(٤) الهجير: شدة الحرّ.

لعلنا لم نصادف في هذه المرثاة، الألفاظ الجديدة في الإبداع، ولكننا صادفنا جمالاً في التعبير، يتخطّى المألوف عند سائر الشعراء؛ والذي يحوي عاطفة ولدٍ بارٍّ بأمه في حياتها ومماتها، ومتوجّه إلى أنفاسها الأخيرة التي فارقت جسدها وقت الاحتضار، بكلّ شفافيةٍ بنويةٍ صادقة.

إننا لا نستطيع إيفاء هذه المرثاة حقها من التعبير والتحليل، لأنها تتعلق بروحين عاشا في جسدٍ واحد؛ هو جسد الأُمومة. فأبو فراس ذاب في حرارة جسد أُمه الملتهب بالحب له؛ وجسد أُمه ذاب في حرارة تعلّقها به حتى النهاية. وهكذا نجد جسد الأم يحوي روح الأُمومة والبنوّة معاً. والمرثاة الثانية، التي تستأثر باهتمامنا، تلك التي قالها في أخت سيف الدولة، والتي يقول فيها[1]:

أَوصِيكَ بالحُزْنِ، لا أُوصيكَ بالجَلَدِ ... جَلَّ المُصَابُ عَنِ التَّعْنِيفِ والفَنَدِ[2]

إنّـي أُجِـلُّـكَ أَنْ تُـكْـفـى بِـتَـعْـزِيَـةٍ ... عَنْ خَيْرِ مُفْتَقَدٍ يَا خَيْرَ مُفْتَقِدِ

هِـيَ الـرّزِيّـةُ إنْ ضَـنّـت بـمـا مَـلَـكَـتْ ... مِنْهَا الجُفُونُ فَمَا تَسْخُو على أَحَدِ[3]

بي مِثْلُ مَا بِكَ مِنْ حُزْنٍ وَمِنْ جَزَعٍ ... وَقَـدْ لَـجَـأْتُ إلـى صَـبْـرٍ فَـلَـمْ أَجِـدِ

لَمْ يَنْتَقِصْني بُعْدِي عَنْكَ من حزنٍ ... هِـيَ الـمُـوَاسَـاةُ فـي قُـرْبٍ وفـي بُـعُـدِ

لقد صوب أسلوب المرثاة، بمطلع فيه الكثير من التجلّة للفقيدة العزيزة الغالية على قلبه وقلب ابن عمه. والتجلّة للفقيدة، تظهر في مناداته لسيف الدولة، بأن يكثر من الحزن حتى يشمل كل صبره وجلده. فلمثل أُخته الجليلة القدر، لا يستطيع أحدٌ أن يقلّل من الحزن عليه، بل عليه تجاوز كل مقدار الكد الممضّ، وفاءً للعظيمة الراحلة. ولذا فهو يستطيع أن يخفّف من وقع المصاب عليه، لما فيه من ازدواجيةٍ في معنى الكارثة النازلة بالأخ وأخته. فالمصيبة بالأخت فقدها، والمصيبة بالأخ، فقده لأعظم أخت. وقد وُفّق أيّما توفيق في جمع تلك الإزدواجية بذكر الأخت بأنها: «خير مُفْتَقَدٍ» وذكر الأخ، بأنه: «خَيْرُ مُفْتَقِدِ» وجمال هذه المرثاة يزداد تألقاً، حين يُساوي بينه وبين ابن عمّه في فقدان الجلد، والاستسلام الكامل للحزن في قوله: «بي مثل ما بك من حزنٍ ومن جزعٍ» وأردف هذا الشطر بتعبير لا يقل عنه مساواة حين قال: «وقد لجأت إلى صبرٍ فلم أجد»

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٥٥.

(٢) الجلد: الصبر ـ الفند: الكذب.

(٣) الرزيّة: المصيبة ـ ضنّت: نجلت ـ تسخو: تجود.

ونكتفي بعرض هذين النموذجين من الرثاء الوجداني الحميم، الجدير بالتحليل والتعليل، عافيه من وقوفٍ على أصغري أبي فراس، وهما القلب واللسان. أما مراثيه في الآخرين، فلا تعدو المتعارف عليه، ممّا يأتي في سياق المجاملة المتعارف عليها بين الشعراء؛ كمثل إظهار الحزن على الفقيد، وذكر الصفات التي كانت تلازمه في حياته، والمكانة، أو الرتبة التي نالها. ومن مثل هذه المراثي، يبدو أبو فراس صادقاً بعيداً عن المغالاة. ولكنه لا يملك أفكاراً تميل إلى عمق المعنى، والنظرة الفلسفية الجديرة بالتحليل في خفايا الحياة وغيبيّات الموت؛ كمثل ما نلمح عند المتنبي، وأبي علاء المعرّي. بقي شيءٌ أخير نلفت النظر إليه، ألا وهو انعدام الرثاء عند أبي فراس، في ابن عمّه سيف الدولة، على رغم الحبّ العظيم الذي كان يكنّه له، حتّى وهو في الأسر. فلِمَ كان هذا؟ وما سبب جفوة الرثاء لسيف الدولة. هل هناك انقلاب في صلة الحب بينه وبين ابن عمّه، بعد خروجه من الأسر؟ وهل هذا الانقلاب سببه تأخّر سيف الدولة عن افتدائه، أم لعلّه توجّه نحو مطامع تختلف عن تلك التي امتلكها قبل الأسر، وصارت لديه طموحاً يسعى لتحقيقه؟ أسئلة كثيرة طرحها النقاد والدارسون، وأجابوا عليها بالعجب والتعجب. والذي يلفت النظر أيضاً، أنه في السنتين الأخيرتين من حياته، عاش صامتاً عن نظم الشعر. فلا رثاء، ولا مديح، ولا هجاء، حتّى ولا عتب. لقد انقطع انقطاعاً كلياً عن ذكر أيّ بيتٍ يوجهه لأمير حلب، فكأنه لم يقل فيه شعراً جعله فيه في مصاف أمراء الأساطير. تلك هي المعميّة التي لَمْ يُمَطْ عنها اللثام حتى يومنا هذا.

ثانياً ـ الوصف: أمّا الغرض الثاني في متفرقات شعره، فهو الوصف الموشح أبيات قصائده، في كل فنٍ من فنون شعره. وهذا التوشيح بتزيين الوصف، لم يسعَ إليه الشاعر، كسعيِ ابن الرومي مثلاً؛ بل جاء عفوياً، مكتسباً بسليقة الشعراء الذين لا يستطيعون نظماً، دون ادخال الوصف على ذلك النظم. ونحن نتساءل عن سبب عدم إفراد شاعرنا فناً مستقلاً للوصف في شعره، كونه عاش في حاضرة، تنعم بكل مغريات الزهر والورد، والخضرة والمياه؟ والإجابة تأتينا من تفرّغه لفنون الحرب، ومساجلات القتال، التي لم تترك له فرصةً ينصرف معها، إلى زهو الطبيعة، وزينتها الساحرة. لقد وجهه ابن عمّه لشؤون الدولة، فامتثل هو لذلك الأمر الوديّ الأبويّ؛ وأستغل حياته الخاصة والعامة، في ردّ اعتداءات المغيرين من الروم؛ والقضاء على تحرّكات البدو المريبة، وثورة القبائل

الحاسدة لمكانة سيف الدولة وفي خصوصيات حياته البعيدة عن خوض المعارك مباشرةً، انهمك في تنظيم شؤون الجند، وتنسيق معطيات الإدارة، والاعتناء بتخزين القوت واللباس للجنود، وتوفير مختزن الأسلحة للقوّاد، والتنسيق معهم لنشر الأمن والاطمئنان في ربوع الدولة.

كل هذه المشاغل المتعبة المضنية، أحلته المكان الوعر، الحافل بمشاكل الأخذ والعطاء، وصرفته عن التمتع بمناظر الطبيعة الخلاّبة. بيد أننا عثرنا في ديوانه، على هنيهاتٍ من فرص الراحة، استسلم فيها إلى محاسن الجمال، في قلب الكون المفيض بالإبداع في فصل الربيع، حيث فاض من قريحته، أبياتٌ يقول فيها[1]:

أَنْـظُـرْ إلـى زَهْـرِ الـرَّبـيـعِ ... والـمَـاءِ فـي بَـرِكِ الـبَـدِيـعِ
وَإذَا الـرِّيـاحُ جَـرَتْ عَـلَـيْـهِ ... فـي الـذَّهـابِ وفـي الـرُّجُـوعِ
نَـشَـرَتْ عَـلَـى بِـيـضِ الـصَّـفَـا ... ئِـحِ بَـيْـنَـنَـا حَـلَـقَ الـدُّرُوعِ[2]

إنها ألفاظٌ رتيبة الوقع، ساذجة التعبير، تنقل إليك واقع الحياة دونما إعمال إبداع؛ بل ذكرٌ لمادةٍ لا تجسيد فيها ولا تجسيم، وإنما نقل روتيني بسيط. وسذاجة هذا النقل، أنه تحرير وصفي، لماءٍ وسط حوض تتلاعب فيه الريّاح فتحركه، وترسم في وسطه صورة دروع. وهذه صورة مأخوذة من الشعراء المشهورين. نجدها عند عمرو بن كلثوم التغلبي في الجاهلية، وكذلك عند البحتري وابن الرومي في العصر العباسي؛ فأين هي الجدة؟ وأين هو الابتكار؟

كنّا نأمل برؤية حياةٍ نابغةٍ بخفقة العبقريّة الفذّة، في عصر الزهور والعطور، والمياه الجارية الرقراقة. أو مشاهدة الحدائق الحافلة بجيد الورد والزهر. ولكن هذا غاب عن بال الشاعر في وصف الطبيعة؛ واهتدى إليه في مكانٍ آخر، تكمن فيه زيارته لأحد أصدقائه، والشمس تميل إلى الشفق، في غيابها عن الطبيعة، حيث يقول[3]:

وَفِـتْـيَـانِ صِـدْقٍ أَمَّـلُـوا أَنْ أَزورَهُـمْ ... وَمَـا مِـنْـهُـمُ إلاّ كـريـمٌ وَمُـنْـصِـفُ

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٢٣.

(٢) الصفائح: كناية عن الأسلحة المصنوعة من الصفيح، أي الحديد.

(٣) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٢٦.

فَوَافَيْتُهُمْ والـلَّيْلُ نَشْوَانُ زَاحِفُ إلى سَائِرِ الآفاقِ والشمسُ تَطْرَفُ[(١)]

هذان البيتان على قلتهما، يحويان وصفاً يفوق ذلك الذي ذكره في الطبيعة. مع أن المؤمّل، في شاعرٍ موهوبٍ كأبي فراس أن يتحفنا بفيضٍ من الأوصاف السامية التعبير في حسّ النظر الكوني، لا في حسّ التلامس الأخوي بين الأصدقاء!

وهناك إجادة في وصفه لربوع منبج التي سقط فيها رأسه وقت ولادته؛ وبها نشأ في صباه، فخصها ببعض ذكرياته، التي أضفت عليها جمالاً وصفياً يقول فيه[(٢)]:

قِـفْ فـي رُسُـومِ الـمُـسْـتَـحَـا ب، وَحـيِّ أَكْـنَـافَ الـمُـصَـلَّـى[(٣)]
فـالـجَوْسَـقُ الـمَيْمُونُ فـالـسُّقْـيا بِـهَـا فَـالـنَّـهْـرُ أَعْـلَـى[(٤)]
تِـلْـكَ الـمَـنَـازِلُ وَالـمَـلاَ عِـبُ لا أَرَاهَـا الـلَّـهُ مَـحْـلا[(٥)]
أُوطِـنْـتُـهَـا زَمَـنَ الـصِّـبَـا وَجَـعَـلْـتُ مَـنْـبِـجَ لـي مَـحِـلا[(٦)]
حَـيْـثُ الـتَـفَـتُّ رَأَيْـتُ مَـا ءً بـارِداً وَسَـكَـنْـتُ ظِـلاًّ
وَتَـحِـلُّ بـالـجِـسْـرِ الـجِـنَـا نُ وَتَـسْـكُـنُ الحِـصْـنَ الـمـعـلّـى
تَـجْـلُـو عـرائِـسُـهُ لَـنَـا هَـزَجَ الـذُّبَـابِ إذَا تَـجَـلَّـى[(٧)]

إنّها قصيدة طويلة، اقتطفنا منها هذه الشواهد، الدالّة على جودةٍ لا تخفى، لألات أعيننا بذوق أبي فراس، إلى مسقط رأسه الذي يحن إليه ويهواه. لقد تخيلناه، وكأنه واقف إزاء ذلك المكان، يحييه بتحية المشتاق، ويخاطبه مخاطبة المستهام. وقد أوغل في وصف المياه والأشجار والأطيار، وكل موشح بلون الإخضرار، حتى جعلنا نظن، بأننا وسط ذلك الروض المخملي إنشادك الشاعر في مشاهداته الوجدانية.

---

(١) نشوان: السكران في أوّل أمره ـ تطرف: تغيب.
(٢) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٥٦.
(٣) الرسوم: آثار الديار والأماكن الباقية.
(٤) الجوسق: القصر والحصن. وقد يكون اسم قصر بعينه.
(٥) المحل: انقطاع المطر ويبس الأرض. الجدب.
(٦) منبج: اسم بلدة جنوب غرب حلب.
(٧) الهزج: الصوت الجميل والطرب.

في تجوالنا داخل وصفياته القليلة المتفرّقة، نجد الشاعر بعيداً عن التكلف والصناعة، ميالاً إلى العفوية الناقلة بإحساس صادق، كل ما يجيش به صدره، وتتوافر فيه أسباب الإيحاء المرهف النظم، الرقيق الجودة.

ثالثاً ـ الحكمة والزهد: وتصادفنا أيضاً في سائر أغراض أبي فراس، نتفات أبياتٍ، وبعض مقطوعاتٍ، تتحدث عن الحكمة المصاغة من تجارب الحياة، والزهد المتوّج بعبرة النظرة المؤمنة بفناء كل مخلوق حيّ، وزوال العالم الذي نعيش عندما يشاء الإله. والأبيات المحيطة بفن الحكمة والزهد، لا تتجاوز المائة من متفرقات أغراضه. وليس هذا بغريبٍ عن واقع الحال؛ فأبو فراس لم يختص بهذا النوع من الموضوعات، المتضمنة نظرات فلسفية، وبواطن فكرية، تبتكر من سلوك الإنسان، قضيةً إنسانيةً عامّة، ترسم للناس خلقاً جديداً، من مضمون صحيح المسار، في مرافق العيش السليم. وسبب ذلك يعود إلى الحاجة عنده، لمثل هذه الاستبساطات العقلية، التي لم تغذّيها علوم مكتسبة من الدراسة والتثقيف. فالشاعر لم يتسنَّ له، أن يستفيد من التعليم الفلسفي، كما تسنّى للمتنبي مثلاً؛ ولم يدرك صيغة الشعر، كما أدركه أهل المذهب الثقافي، أمثال أبي تمام، وابن الرومي، والمتنبي، وأبي العلاء. وغياب هذا الإدراك، لم يبلور في بصيرته تحليل الأمور الغامضة، في مقاييس الكون، وظواهره الخفيّة. لقد عمل عكس هذا تماماً، فقد خطا خطوات من احتضنوا الأصالة العربية فناً، حيث الغنائية، والوجدانية، وما يقوم على مسارها، في سبك الديباجة المعبّرة، عن خلجات العواطف، ولوامع الأفكار. وهذا مكتسب ولا شك، من مجتمع المسار الشامي، في بيئته القائمة، على خلجات الديباجة المشرّبة بمشاعر التقليد المتوارث في أصوله، ودقائق أموره، وخاصةً في منبج وحلب، المولعة ولوعاً فائقاً بأريحيّة البحتري الشعرية؛ والمؤثرة فيه خاصةً، تفضله عندهم عن غيره، لما تحوي من صياغةٍ شعرية جميلة السبك، عذبة اللفظ، متآلفة الأصوات، تجذب الحواس، بشعاع تألقها المطرب، على نغم إيقاع الجرس المنعش للعقل، في ميزان استقامة التفكير الصحيح. وتأثر الشاعر بتلك المظاهر التي ذكرنا، أضعفت فيه طموح التطلع إلى المناحي الفلسفية في شعره، وجوانب الحكمة المتخمرّة بتجارب الدهر، ومضامينه المكتسبة. ومنظومات أفكاره المقصّدة في هذا المجال، لا تعدو ومضات خواطر، لمعت في ذهنه، من وهج الأحداث المتفاعلة أمامه، فسطّرها أبياتاً يقول فيها(١):

---

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٤٢.

الـدَّهْـرُ يَـوْمـانِ: ذا ثَـبْـتٌ وَذَا زَلَـلُ والعَيْشُ طَعْمَان، ذا صابٌ وذا عَسَلُ[1]
كَـذَا الـزَّمـانُ فَـمَـا فـي نِـعْـمَـةٍ بَـطَـرٌ لِـلْعَـارِفِـيـنَ وَلاَ فـي نِـقْـمَـةٍ فَـشَـلُ[2]
سَعَادَةُ المَرْءِ في السَّرَّاءِ إنْ رَجَحَتْ وَالعَدْلُ أَنْ يَتَسَاوى الهمُّ والجذلُ[3]
وَمـا الـهُـمُـومُ وَإنْ حـاذَرْتَ ثـابـتـةً ولا الـسُّـرورُ وَإنْ أَمَّـلْـتَ يـتّـصـلُ
فـمـا الأَسَـى لـهُـمـومٍ لا بـقـاءَ لَـهَـا وَمَا السُّرورُ بنُعمَى سَوْفَ تَنْتَقِلُ؟
لكـنَّ فـي الـنَّـاسِ مَغْرُوراً بِنِعْمَتِهِ مَا جَاءَهُ اليَأْسُ حَتَّى جاءَهُ الأَجَلُ[4]

إنها خواطر إنسانية، تتوافق وواقع المسيرة البشرية، وتبيّن أحقيّتها المتساوقة وحقيقة المترائي تحت البصر، وبين حنايا البصيرة. وقد أصاب الشاعر كبد الصواب، وصحة مضمونه، حين جعل الدهر يومين: يوم مسرّة، ويوم كدر. فعيش المجتمعات العالمية كلها، لا تخرج عن مسيرة هذين اليومين، بين الفرح والترح. قد يكون هناك من هو أكثر فرحاً، وأشدّ كدراً، ولكن الجميع يصيبهم واقع الاطمئنان آناً، والقلق أحياناً، ويعيشون، وقد أخذوا من اللونين في مسيرة الحياة.

والذي لا نلمسه في أبيات أبي فراس، هي نفحة القوة، الممزوجة بعناية التجويد، وعمق الفكرة الممنوحة لأبي الطيب مثلاً. إنَّ في شعره استسلام كامل، لمتقلبات القضاء والقدر، ينحو به منحى الخضوع لواقع نتائج الأيام، بحلوها ومرّها، دونما اعتراض وتأنّف. وإذا تفحصنا موضوعاً آخر من حكمته فماذا نرى؟ لعلنا ندرك حقيقة الرؤيا من قوله[5]:

وَخَبَرْتُ هـذا الـدَّهْـر خِبْرَةَ نَـاقِـدٍ حـتَّـى أَنِـسْـتُ بِـخَـيْـرِهِ وَبِـشَـرِّهِ
لا أَشْـتـري بَـعْـدَ الـتجرُّب صاحِـبـاً إلاَّ وَدِدْتَ بِـأنَّـنـي لَـمْ أَشْـرِهِ
مِـنْ كُـلِّ غـدَّارٍ يُـقِـرُّ بِـذَنْـبِـهِ فَـيَـكُـونُ أَعْـظَـمُ ذَنْـبِـهِ فـي عـذرِهِ
وَيـجـيءُ طَـوْراً ضـرُّهُ فـي نَـفْـعِـهِ جَـهْـلاً وَطَـوْراً نَـفْـعُـهُ فـي ضُـرِّهِ
فَـصَـبَـرتُ لَـمْ أَقْـطَـعْ حِـبَـالَ وَدَادِهِ وَسَتَرْتُ مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُ بَسَتْرِهِ

(١) الثبت من الأمر: الدائم المستمر: والزلل الذي يمرُّ سريعاً. الصاب: شجر من العصارة.
(٢) البطر: الدهشة والحيرة عند هجوم النعمة. الطغيان بالنعمة وجهل قيمتها.
(٣) الجذل: السرور.
(٤) الأجل: مدة الشيء، وغاية العمر، أي الموت.
(٥) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١١٠.

وَأَخٍ أَطَعْتُ فَمَا رَأى لي طَاعَةً | حَتَّى خَرَجْتُ بِأَمْرِهِ عَنْ أَمْرِهِ
وَتَرَكْتُ حُلْوَ العَيْشِ لَمْ أَحْفَلْ بِهِ | لَمَّا رَأَيْتُ أَعَزَّهُ في مُرِّهِ
وَالمَرْءُ لَيْسَ بِبَالِغٍ في أَرْضِهِ | كالصَّقْرِ لَيْسَ بِصَائِدٍ في وَكْرِهِ
أَنْفِقْ مِنَ الصَّبْرِ الجَمِيلِ فإنَّهُ | لَمْ يَخْشَى فَقْراً مُنْفِقٌ مِنْ صَبْرِهِ
وَاحْكُمْ وَإِنْ سَفِهَ الجَلِيسُ وَقُلْ لَهُ | حُسْنُ المَقَالِ إِذَا أَتَاكَ بِهُجْرِهِ[1]
وَأَحَبُّ أَخْوانِي إِلَيَّ أَبَشُّهُمْ | بِصَدِيقِهِ في سِرِّهِ أَوْ جَهْرِهِ[2]

إنها حكم أنتجتها خبرات أبي فراس، وتجاربه، المتولّدة من تعامله مع الآخرين. وقد أعطته مرونته الحكيمة مع البشر، نقائص التعامل ومثالبه، فاختار من هم على قدر المسؤولية الأخوية، ونبذ من لا يعيشون إلاَّ على أنانية الذات. إنّه في حكمته يبيّن عصابةً من الخلاّن، ادّعو الإخوة لغايةٍ في نفوسهم، وحين جوبهوا بالخلل، قدموا أعذاراً أقبح من الذنب، فعرّتهم من زيفهم، وبانوا على حقيقتهم المفرطة في الغدر واللامبالاة.

لقد خبر المحيطين بظاهرة التملّق والمخادعة والمخاتلة، فوجدهم يتوهمّون الخير، في ما يجلب المضرّة والخسارة. ويبيّن لنا حاله مع هؤلاء، حين هادفهم على أمل الإقلاع عن وصوليتهم الرخيصة، ولكنهم أمعنوا في الضلال والطغيان من خلال حجود الصداقة، وعقوق المحبة المرتبطة بقداسة الوفاء. أما صفاته العارض لها، من حركة سلوكه مع العارفين لشخصه، فيلخصها بتعاطيه لروح القيم الأصيلة، المبنية على أساس عزة النفس المتجرّدة من كل تحايل، أو مصانعة، فطريقه واضحةٌ، لا التواء فيها ولا تعرّج. إن سبيله للوصول جليٌّ لا لبس فيه. فإذا وجد مقصد غايته يعتوره الإذلال، عاد عنه وزاغ منه، ذلك أن الوسيلة عنده لا تبرّرها الغاية. حين تضيق به سبل الصلاح والإصلاح، في مكان يقيم فيه، يرحل إلى مكانٍ أعزّ وأفضل، يحقق فيه ما يرنو إلى تنفيذه في حيّز الوجوده. أمّا ذخيرته في مجال المسيرة السويّة، فهي الجلد والتحمل، في إطار الصبر المحلّى بطول الأناة. والتسامح المبني على العفو عند المقدرة. والذي جمّل حكمته في نظر عارفيه، حسن المظهر المحلّى بافترار ثغرٍ تزينه البسمة المرتسمة على وجهه البشوش.

---

(١) سفه: تحامق وجهل.

(٢) أبشّهم: أطلقهم وجهاً وابتسامةً.

ويكفينا من موضوع الحكمة عنده، هذا المقدار من منتخب الأبيات التي جئنا بها كشاهدٍ يثبت حقيقة ما بيّنا وفصّلنا، أمّا التوسّع في شأن الحكمة، فلا مجال له، لأنه لم يأخذ حيّزاً كبيراً من نظم قصائده؛ فاكتفينا بهذا التدر المدلّ على موضوع من متفرقّات شعره.

الفصل الرابع

بين النقد والتحليل
في أهم خصائص شعره

- الرومنسية في شعره
- الظاهر والخفي من فنية شعره
- موقع الشعر في مكانة الشاعر
- مقارنة الخصائص بين أبي فراس والمتنبي
- نماذج من شعره

بين النقد والتحليل

إذا كنّا عرضنا لمجمل أغراض شاعرنا الحمداني، فإننا لن نغفل تحليل تلك الأغراض، من جانب التعرّف على ماهية الدوافع، التي دعته إلى النظم، على وتر خاصيّة، تغريه إلى المزيد من التوغل، داخل نفسه العاجّة، بهموم الناس أولاً، وهموم ضميره الحيّ ثانياً، والاحتكام إلى الواقع المترامي تحت بصر الناس وبصيرتهم. والذين أخضعوا شعر أبي فراس للنقد والتحليل، أظهروا ما فيه من ميزات، تكتسب الاهتمام، والانصراف إلى التعليل والتفسير الملخص بما يلي:

١ ـ لم يغب شعر أبي فراس عن الجوّ الحربي المثير لكل الفروسيّة، تضيء الشعلة العربية، بشعاع الساطع الأخلاقي، في وميض النخوة العربية العامة الشاملة.

٢ ـ كانت خاصيّة قصائد الشاعر تحمل طابع التحلّي بالقيم المرتكزة على الإخلاص والوفاء. ولذا فقد تزينت في مجملها، بترجيع جذاب، يتلألأ فيه الولاء لسيف الدولة الحمداني، والإخلاص في الحفاظ على سيادته.

٣ ـ لقد توشح شعر أبي فراس، خمائل الرومنسية، فسطع بريقها في زمنه، كما هي عندنا اليوم، في عصر الحداثة الشعرية.

٤ ـ إن قصائد الأمير الحمداني، تحمل خصائص الظاهر والباطن، في توضيح ما يعتمل في خاطره. ولا يمكن تحليل تلك الخصائص، دون الوقوف للفصل بين ما هو خفيّ، وما هو جليّ.

٥ ـ وإذا كان للشاعر مكانة لها حيّز خاص به؛ فلن نستطيع تبيان تلك الخاصية إلاّ بالمقارنة بين ما نظمه وما نظم المتنبي، لتشابه الشعر بين الشاعرين، وإن كان يختلف كمّاً وكيفاً.

الرومنسية في شعره:

مخافة أن تمتد إلينا يد الاتهام بالمبالغة، والمغالاة في التحليل، نتوجه بالتوضيح الصريح البائن، الدال على التصاق ما ظهر اليوم من فنيّة الرومنسية بشعر أبي فراس من حيث لا يريد ولا يقصد. فأبو فراس لم يقصد هذا الفن، لإعجابه به، وولعه بخاصيته، بل عاشه بحالةٍ من التفرّد، واللاإنتماء لما يسود التقليد الجاف، والانعتاق منه، للوصول إلى قيم جديدة، ملؤها الحرية والاستقلالية. وهذا التفسير، هو مدخل الشاعر إلى هذا الفن، الشبيه بباب الدخول إلى رومنسية تعنون للحب واللذة وتدرج تحت عنوانها نكهة المجد، ومذاق الألم، وروعة الفتوّة، ومأساة المصير. وشاعرنا أخذ من كل هذا في قصائده، ليعيش على فتوّة بطولة، تجعله الفارس المغوار، في الوقت الذي يكون فيه أسيراً منكسراً. ويتعالى بكل هذه التناقضات، إلى مصاف القيم الحافلة بالنبل والترفع والعظمة. فلا نلمح إلا الشاعر، كما نعرفه حق المعرفة. الشاعر المنتصر، والمنشد لنا مقاطع الآلام العاجّة بالآمال، والملونة بظلال التعالي بكثير من الصبر والجلد. ويبدو كمن يريد أن يشرح لنا بلغته لنا في لعبة الزمان والمكان. وفي ذلك الشرح الرومنسي يعلمنا أنه الشاعر الإنسان، الذي عاش بشعره، معاناة الظلم الذي جعله في أسره، يهجر الجسد خارج النفس المسجونة بداخله، لتصل الفداء وتبلغ به قمة السمو والعلوّ[١] وخير دليل على تمتعه باللون الرومنسي المرصّع بالذوبان والانصهار، في صميم اللهب الداخلي المتأجج عاطفةً صادحةً، بنشوة الغيبة الطافحة بأجيج الحنايا الشعرية القائلة[٢]:

وإنَّ وراءَ الـحَـزْمِ فـيـهـا وَدُونَـهُ مَـواقِـفَ تُـنْـسي دونـهـنَّ الـتـجـاربُ
أرى مِـلْءُ عـيـنـيَّ الـرّدى فـأخـوضُـه إذا المَوْتُ قدّامي وخلفي المعايبُ
وَأَعْـلَـمُ قَـوْمـاً لـو تـتـعـتـعـتُ دونـهـا لأَجـهـضـنـي بـالـذّمّ منهم عصائبُ[٣]
ومضطغنٌ لم يحمل السرّ قلبه تـلـفَّـتَ ثـم اغـتـابـنـي وهـو هـائـبُ[٤]
تـردّى رِداءَ الـذُّلِّ لـمّـا لـقـيـتُـه كـمـا تـتـردّى بـالـغـبـار الـعـنـاكـبُ[٥]

---

(١) سليمان: ميشال ـ ضرورة الفن ـ دار الحقيقة ـ لا. ت ـ ص: ٧٤.

(٢) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ١٨.

(٣) تتعتعت: تلجلجت وتعثرت في نطقها ـ أجهضني: طرحني وأثقلني.

(٤) المضطغن: حامل الضغينة في نفسه، أي الكره ـ هائب: خائف.

(٥) تردّى: ليس رداءً.

في هذا الشعر، نلمح أبا فراس موغلاً في رومنسيته الفارقة بنرجسية «الأنا»، البعيدة عن الانطوائية. وتكمن مأساته في ذاته المتعالية عن الواقع بكل تعسّفه ومظالمه. هو لا يرفض الآخر ابن عمه، ولا ينسب إليه الاضطهاد، بل يعليه عن مرامي تلك الوساوس والتهم، لأنه المثال، والرمز والرجاء الأخير الذي لا يريد أن يفقده. أليس هو منه بمنزلة الروح للجسد؟ إذاً كيف يتخلّى الإنسان عن روحه؟ ومن هنا، اطمأن الشاعر إلى قرارة نفسه، وخلد إلى عرين سيف الدولة، وبه اضطجع على وسادة التعالي عن كل ما يضعفه، ويُفقد في نفسه لذة الأمل. إن سيّد حلب، هو الجالب لكلِ ما يعانيه، وكل ما يصدر عنه، من هذيان وهتاف ونجوى. والشاعر متصل اتصالاً مباشراً بذلك الجالب ومسبب الضياع؛ فلا غراوة أن يتحوّل شعره كلّه إلى رومنسيّة مبكرة في الشعر العربي القديم؛ وأن تلوح لنا من خلال قصائده الهائمة بعالم بعيدٍ عن الدنس والرعونة، وقريبٍ من الاندماج بأشياء الطبيعة الحلوة البريئة.

ويسير الشاعر في رفاهية الرومنسية الرقيقة الرقراقة، بكل مطربٍ، يعزف للذات جمال التغنّي بها، بكامل الثقة. ومن جميل ما نظم في هذا المعنى قوله[1]:

لَقَدْ ضلَّ مَنْ تَحْوِي هَوَاهُ خَرِيدَةٌ	وَقَدْ ذَلَّ مَنْ تَقْضي عليه كِعَابُ[2]
ولكنني، والحمد الله، حازِمٌ	أَعِزُّ إذا ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقابُ
ولا تملكُ الحسناءُ قلبي كُلَّه	وَإنْ شَمَلَتْهَا رِقَّةٌ وشبابُ
وأَجري فلا أُعطي الهوى فَضْلَ مقودي	وأَهْفُو ولا يخفى عليّ صوابُ[3]

إنها رومانسية من نوع جديد، لا يغرق معها الشاعر في عشق الحبيبة، والتغنّي بجمالها الأخّاذ، بل يهيم بعشق ذاته المتحلية بأجمل الصفات، وأحلاها ترفعاً عن الإذلال للحسناوات، والفتيات الآسرات للقلوب. فالشاعر أسير عشق نفسه، لا عشق فتاةٍ كعوب. وليس هذا فحسب، بل يضيف إلى ذلك، إيمانه النبيل، بقدرته على أن يُصبح سيّد مصيره. وهذه القدرة، تبدو جليةً، في فتوته المتعالية الأميرة، وفي هروبه إلى نفسه من عالم الدنس، والرياء، والتسكع،

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٢١.
(٢) الخريدة: الفتاة البكر التي لم تمسّ ـ الكعاب: الفتاة أول ما يظهر نهداها ويكعبان.
(٣) المقود: الزمام ـ أهفو: أزلّ وأخطيء.

والتكسّب بالشعر. نراه يقيم علاقة انسجام تام، بين عالمه وعقله، بين ما يدّعيه من قيم وفروسيّة، وبين واقعه المرير، الذي يرتفع به إلى مستوى القيم الملتصقة بوجدانيته التي لا تحيد عن طريق الاستقامة، والإغراق بعاطفة إنسانية، تذوب وتنصهر، في شتّى أنواع الرومانسية المعروفة في عالمنا اليوم. هذه لمحة موجزة عن واحدة من الخصائص التي حملها أبو فراس في تكوين فنيته الشعرية؛ والتي تتصل اتصالاً مباشراً بموضوعات الخصائص الأخرى، التي سنأتي على ذكرها بإيجاز.

الظاهر والخفيّ من فنّيته الشعرية:

نقصد بالظاهر والخفي، تلك الازدواجية، التي أصبحت خاصةً من خصائص التقصير في شعر أبي فراس، الذي يحمل في مجمله وجهين مختلفين، لا يتناقضان مع استقامة الشخصية، ومعيار توازنها، في حالي السرّ والعلن. فالشاعر وهو مرهف الحواس، رقيق العواطف، يتأثّر بمظهر الوداعة والإلفة، التي يلحظها بين أصحابه ومعارفه. وإذا داخله الشك، وراودته الوساوس، يحتفظ بها لنفسه، ولا يشرك المتهم بظنّه بما يساوره؛ بل يبقيه بعيداً عن الاتهام، وإن كانت الشكوك تحوم حوله. وهذا إن دلّ على شيء، فيدلُّ على الضمير الحيّ، المختلج بين أصغريه: قلبه ولسانه؛ والذي لا يدنّسه بالتهجم على غريم، لا يثْبِتُ لديه غرمه؛ بل يحافظ على مداواته، علّه يصلحه، ويعود إليه. وإذا بقي موازياً في سلوكه ـ ذاك الغريم ـ لما يشعره أبو فراس، من ضغينة نحوه، يحافظ على سريّة وساوسه، ويبقي على علاقة الودّ، رغم النفور الداخلي الذي يعتمل في صدره. ولعلّ تفاعل هذين الضدين، يبرزان في قصيدته التي جعلها رسالةً لابن عمه من سجنه، يقول له فيها[1]:

دَعَوْتُكَ لِلْجَفْنِ القَرِيحِ المُسَهَّدِ ... لَدَيّ، ولِلنَّومِ القليلِ المشرّدِ[2]
وَمَا ذَاكَ بُخْلاً بالحياةِ، وإنّها ... لأَوّلِ مَبْذُولٍ، لأَوّلِ مُجْتَدِ[3]
وَلاَ زال عنّي، أن شخصاً مُعَرَّضاً ... لنَيْلِ العِدا، إنْ لم يُصَبْ فكأن قدِ...

وهي قصيدة طويلة، حافلة بأنواع الأغراض، المعتملة بين فخرٍ وعتابٍ

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٥٦.
(٢) القريح المسهّد: المجروح الأرق.
(٣) المجتد: طالب الجدا والمعروف. والجدا: هو المال.

ومديح وإطلاق حكمة؛ ولكنها في مجموعها، جراحٌ تتكلم، ووجدان يئن، ونفسٌ تخبيء في طياتها عكس ما تعلن، مخافة إحداث جرح في المخاطب، لا يرضى الشاعر بأن يناله، فيفسد عليه الودّ الحريص على بقائه.

ونلاحظ في هذا الخفاء المضمر، ملكةً شعريةً يقظةً بخصائص التستر على ما لا يجب كشفة، في ذاتية تعيش ما تقول، ولا تقول ما تعيش، كي لا تثقل على المخاطب، فتسيء إليه، وتهدم صداقةً حرص الشاعر على بنائها بثقةٍ جياشة، ولا يريد لهذه الثقة أن تزول، إنها خصيصة الفنيّ الخفيّ في أكثر قصائده، التي تعالج الصلة التي تربطه، بمن لا يريد الانفصال عنه، كابن عمه سيف الدولة، ومن يليه في قرابة الرحم. أمّا الفنيّة الخارجية، في خصيصة شعره المبرّرة لكتمانه ما يخفي في نفسه، فتتضح جليّةً في واضح العلاقة التي تصله بمن يجلّ ويحترم ويقدس. ولعلنا نستطيع بيان هذه الخصيصة المتلصقة بفنيّة الظاهر من شعره، من نفس القصيدة التي يخاطب بها سيف الدولة، والتي تحوي الظاهر والخفيّ في آن، ويبين ذلك جلياً في قوله[1]:

فَلاَ وأبي، ما ساعدانِ كساعدٍ ... ولا وأبي ما سيّدان كسيّد
وَلاَ وَأبي، مَا يَفْتُقُ الدّهْرُ جانباً ... فَيَرْتُقُهُ، إلاّ بأَمْرِ مُسَدَّدِ[2]

إنّها إبياتٌ مزج الخارج فيها بالداخل، فأعطت نوعيةً مقبولة التعليل عند أبي فراس فقط؟ لأنها تصدر من شاعرٍ مجبولٍ على الوجدانية، لا على التصنع، وإذا كان كذلك، فحريٌ به أن يعلن عكس ما يضمن لأنه ضنين بأن يفقد أغلى ما عنده بعد أُمه، ابن عمه سيف الدولة، فجعل له خصيصة هذه الصناعة، لا التصنّع، ليحافظ من خلالها، على حسن علاقته مع مَنْ لا يفرّط بالولاء له، وقد يبادر القارىء إلى القول: أليس هذا نوع من ازدواج الشخصية؟ فنقول: نعم. ولكنها ازدواجية مشروعة، لأنها لا تأتي بالضرر، ولا تجيء بالغدر. بل هي كتمان سرٍّ للنفس، لا نستطيع البوح به، لأنها ليست أكيدة من صدق كنهه، ولا تستطيع منع حلوله، لأنه صار مزاجاً يعيش مع الشاعر، ولا يلحق الضرر بأحد ولعلنا نصل بهذا التناقض المبرّد في شعره إلى أقصى غايته، حين نطلُّ إلى سائر الأبيات التي تحمل تعليلاً ملائماً لعنوان خصيصة الظاهر في قصائده. إنها ألفاظ نظم، تقولب

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٥٨.

(٢) يفتق: يثقب ويخرق ـ يرتقه: يصلحه ويلحمه.

التجربة الشعرية، بإطارٍ من التقريرية السهلة. أو ما يسمى بالتأنّي في الحكم، ليصل بصاحبه في التردّي بالإعلان عن دخيلة مخبؤاته، وكأن له عنق جمل. ولنسمعه يخاطب سيف الدولة بقوله:

وأنكَ لِلْمَولَى الّذي بِكَ أقتدي وإنّكَ للنجم الّذي بك أهتدي

ويضلّ في سيره على هذا المنوال المحاذي لمدارةٍ محبّبةٍ أليفة؛ والملتف حول عاطفةٍ أبوية لا يريد لها أن تغيب في بادرة تسرّعٍ منه، أو تزول في خطأ حمقٍ لا يرضى أن يلتصق به، فيسرّع إلى القول(١):

وأنت الذي بلغني كُلّ غايةٍ مَشَيْتُ إليها فَوْقَ أَعْنَاقِ حُسَّدي
فَيَا مُلْبِسِي النُّعْمَى الذي جَلّ قَدْرُهَا لَقَدْ أَخْلَقَتْ تلك الثيابِ فجدِّدِ(٢)
أَلَمْ تَرَ أَنّي فيك صافحتُ حَدَّها وفيكَ شربتُ الموتَ غَيْرَ مصرّدِ(٣)

فالصورة تأتت من واقع لا تناقض فيه بالمواقف، بقدر ما هي سورة إحباط، تفاعلت بداخل الشاعر بسبب الأسر، وثارت تجاه أبرز عناوين الحياة الكريمة عنده، فصدمت آماله العراض، وثوت بين عارضين لا نستطيع منهما فكاكا: عامل اليأس، وعامل الرجاء. وبين هذين العاملين، نمت خصيصة الظاهر والمخفي في شعر الرسائل المبعوثة من أسر الشاعر وما أكثرها. فهي لا تحصى. وعليها نعلل أهم أغراض أبي فراس، التي نضحت بوجدانية قلّ نظيرها، لأنها وليدة واحد من الشعراء، ندر في عالم التقصيد المتساوي فيه الظاهر والباطن، بقدرٍ كبيرٍ من التوازن المعادل للتضاد، في أبهى حلّة، وأسمى معادلة.

موقع الشعر في مكانة الشاعر:

يمتاز شعر أبي فراس ـ إلى جانب ما قدمنا ـ بخصيصة الرفعة اللازمة في شعره، لأنها وليدة واقع يجب أن تكون عليه، وإذ تجاوزته خالفت حقيقة ما نبت الشاعر عليه، وما ثبت فيه. إن العنجهية التي نجدها عند المتنبي مثلاً، لا تليق به، لأنه وضيع المنبت، فلا يحق له التكبّر، ولا شيء يسمح له بذلك. أما أبو فراس، فالتكبر المجبول بالأنفة، هو موقعه الصحيح، لأنه أمير وابن أمير. ومن هنا كان موقع الشاعر في أدب رفيع، منحه خصيصة الفخر بالمحتد، والتباهي إلى

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٥٨.
(٢) أخلقت: بليت ورثّت.
(٣) مصرّد: بارد ودائم.

أرقى غايات التباهي. وهذه الخصيصة تلقاها في أكثر قصائده، وفي أغلب موضوعاته الغزلية، والمديحية، والوصفية.. الخ ومن شواهد المكانة المناسبة لموقعه الشعري، تلك التي يقولها في قتل سيدّ بني كلاب، ومنها[1]:

ألا أَبْلِغْ سَراةَ بني كِلاَبٍ ... إذا نَدَبَتْ نَوَادِبُهُمْ صباحا[2]
جَزَيْتُ سَفيهَهُمْ سوءاً بسُوْءٍ ... فَلاَ حَرَجاً أَتَيْتَ وَلاَ جَنَاحا[3]
قَتَلْتُ فَتَى بني عمرو بن عَبْدٍ ... وَأَوْسَعُهُمْ عَلَى الضّيْفانِ ساحا
قَتَلْتُ مُعَوّداً علل العَشَايا ... تخيّرتِ العبيدُ لَهُ اللُّقَاحا[4]
وَلَسْتُ أَرَخى فساداً في فَسَادٍ ... يَجُرُّ على طَرِيقَتِهِ صلاحا

هذه الأبيات، تلوح بسمات شاعريّة أصيلةٍ سامقة السموّ يتباهى بها على شعراء عصره، فأخذ منهم أجلّ الأمكنة وأرفعها، إلى جانب تقدير للغته المسبوكة بتعاليم استاذه ابن خالويه؛ الذي أحلّه المحلّ اللائق بتأديب أميرٍ يجب أن يأخذ علمه اللائق به. وهل هذه الخصائص وحدها، هي التي وضعته في مكانه الشعريّ الذي حددنا إطار رفعته، لا، فهناك الكثير الكثير، من الفروسية الملتصقة بهذا الشعر، إلى جانب المغامرة، وإباء الضيم، وحبّ الغزو والمدافعة التي كانت مقياساً لمتبوّيء المكان الأرفع والأعلى. ولعلّ هذه الأبيات تثبت مصداقية المكانة التي وضعنا شاعرنا فيها، والتي تقول[5]:

عَلَوْنا جَوْشَناً بأشدّ مِنْهُ ... وَأَثْبَتَ عِنْدَ مُشْتَجَرِ الرِّماحِ[6]
بِجَيْشٍ جَاشَ بالفرسان حتّى ... ظَنَنْتُ البَرّ بَحراً مِنْ سِلاَحِ[7]
وَأَلْسِنَةٍ مِنَ العذباتِ حمرٍ ... تُخَاطِبُنَا بأفواه الرِّماحِ[8]
وَأَرْوَع، جيشه ليلٌ بهيمٌ ... وَغُرّتُهُ عَمُودٌ مِنْ صَبَاحِ[9]

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٥٠ ـ ٥١.
(٢) سراه بني كلاب: أشرافهم وأعيانهم.
(٣) سفيههم: جاهلهم.
(٤) علل العشايا: الشراب مرّة بعد مرة ـ اللقاح: خيار النوق.
(٥) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٤٩.
(٦) جوشن: اسم شخص بعينه. والجوشن: الترس، الدرع.
(٧) جاش: اضطرب وهاج.
(٨) العذبات: جمع عذبة. وهي القذى، والطرف من كل شيء كعذبة العمامة مثلاً.
(٩) بهيم: شديد السواد.

صَـفُـوْحٌ عِـنْـدَ قُـدْرَتِـهِ كـريـمٌ ... قَلِيْلُ الصَّفْحِ مَا بَيْنَ الصِّفَاحِ[1]
فَـكَـانَ ثَـبَـاتُـهُ لِـلْـقَـلْـبِ قَـلْـبـاً ... وَهَـيْـبَـتُـهُ جَـنَـاحـاً لِـلْـجَـنَـاحِ

إن الشاعر يحرص في أبياته هذه، على بلوغ سدرة المنتهى، في الإعزاز والاعتزاز، والوصول بشاعريته، إلى أقصى غايةٍ بلغها شاعر فخر واعتدادٍ بالبطولة النبيلة الشرف، الكريمة القتال، في أقدس قدسية التعامل بشهامة الحرب، وكريم التناول في معاركها. ولذا، فهو لا يكتفي برفع قدره، وإعلاء منزلته، بل يبادر إلى رفع قدر خصمه، وإحلاله المحل السامق، ليكون جديراً بمنازلته، وكفءً لقتاله. والأبيات التي تؤخذ شاهداً في هذا المضمار، كثيرةٌ لا تحصى. يكاد القارىء يجدها في كل غرضٍ تقريباً؛ وكلها تعطيه أرفع مقام، ومكاناً شعرياً يجعله في مصاف أكثر الشعراء، المعتد لهم بشاعريتهم الحقّة.

مقارنة في الخصائص بين أبي فراس والمتنبي:

تبدأ المقارنة بين هذين الشاعرين الكبيرين، منذ دخول المتنبي إلى بلاط سيف الدولة الحمداني، الأمر الذي أثار حفيظة أبي فراس، وأستاذه ابن خالويه، فبدأ العراك الشعري، والمشاحنات الأدبية الممزوجة، بالتحديات الشخصية، والحسد الذي أخذ يذر قرنه بين الشاعرين، والذي انتهى بخروج المتنبي من بلاط سيف الدولة، وهو يشعر بالحرج والإهانة، لتحامل المحيطين بهذا الأخير عليه، رغم اعتذار الأمير الحمداني من المتنبي، عمّا ألحقه به من إهانة، حين رماه بالدواة، وهو ينشد قصيدته المشهورة «واحرّ قلباه ممن قلبه شبم»[2] ومنذ هذه اللحظة الحاسمة، بدأت المقارنة من قبل أنصار كل من الشاعرين، بين ما يمتاز كل منهما من خصائص فنيّة، تلتصق بشعره، وتعطيه طابعه الخاص المميّز. ولنحصل على واقع الخصائص العالّقة بشعر أبي فراس والمتنبي، لا بد من عرض ثقافة كل منهما، وسعة إطلاعه على أدب العصر، وقوّة الشخصية الأدبية التي يتمتع بها. ويبدأ عرض أدب الشاعرين في حادثة ضرب سيف الدولة المتنبي بالدواة ـ كما سبق وذكرنا ـ؛ والتي تبدأ من مجلس أمير حلب الذي كان يتربع على سدته، وحوله جمع غفير من الأدباء والشعراء والقواد، حين دخل عليه المتنبي ـ وألقى عليه قصيدة: «واحرّ قلباه». وكان أبو فراس في جملة الحضور،

(١) الصفاح: كناية عن الأسلحة.

(٢) شبم: بارد.

ولعله كان صاحب اليد الطولى، في نشوء هذه الموجدة بقلب ابن عمه. ولعله كان أكثر الناس تأثيراً على صاحب حلب، حتى يحوّل صداقته للمتنبي إلى عداوة صارخة[1] وبعد أن استقر المقام بالمتنبي، ويدأ بإنشاد قصيدته، شعر أبو فراس، بأن هنالك اغتمازاً له في قوله أبي الطيب «وتدعي حب سيف الدولة الأمم» ولكنه سكت على مضض، حتى وصل إلى قوله:

يا أعدل الناس إلاّ في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورمُ

وللحال، اهتزت فرائض أبي فراس، وعرف أنه هو المعني. فتوجه إليه مقاطعاً ثائراً وهو يقول: فلقد منحت قول دعبل:

ولست أرجو انتصافاً منك ما ذرفت عيني دموعاً وأنت الخصم والحكم

وفي صدر البيت الثاني هتف به: «من أنت يا دعيّ كندة، حتى تأخذ أعراض الأمير في مجلسه» ولكن المتنبي تجاوزه ولم يلتفت إليه ثم أنشد:

سيعلم الجمع ممن ضمن مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

وهنا ازداد أبو فراس غيظاً وقال: قد سرقت هذا عن عمرو بن عروة بن العبد حيث يقول:

أوضحتُ من طُرُقِ الآدابِ ما اشتكلت دهراً وأظهرتُ إغراباً وإبداعاً
حتى فتحتُ بإعجازٍ خَصصتُ بِهِ للعُمي والصُمّ أبصاراً وأسماعاً

واستمر المتنبي في إنشاده للقصيدة، متجاهلاً مقاطعة أبي فراس له حتى وصل إلى قوله:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقِرطاسُ والقلمُ

فانبرى له شاعرنا ليقول: وماذا أبقيت للأمير، إذا أوصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة. تمدح الأمير بما سرقته من كلام غيرك، وتأخذ جوائزه. أما سرقت هذا من الهيثم بن الأسود النخعي الكوفي، المعروف بابن العُريان العثماني، من قوله:

أنا ابنُ الفَلا والضَربِ والطعن والسُرى وَجُرْدِ المَذَاكي والقَنا والقَواضِبِ

(١) البديعي: يوسف: الصبح المبني عن حيثية المتني ـ ص: ٥٤.

ولكن المتنبي بقي مستطرداً في إنشاده يقول:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

وعاد شاعرنا إلى مقاطعاته بقوله: وهذا سرقته أيضاً من قول معقل العجلي:

إذا لم أميّز بين نورٍ وظلمةٍ بعينيّ فالعينان زُوْرٌ وباطلُ

وهو مسروق أيضاً من قول محمد بن مرّة البكري القائل:

إِذا المَرءُ لم يُدرِكْ بعينيه ما يرى فما الفرقُ بين العُمْي والبُصَرَاءِ

ودب الضجر في نفس سيف الدولة من غثاثة هذا الحوار الممل، فضرب المتنبي بالدواة فأنشد:

إن كان سرّكمُ ما قال حَاسِدُنا فَمَا لجُرح إِذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ

فعاجله شاعرنا إلى القول: وهذا مأخوذ أيضاً من قول بشار بن برد:

إذا رضيتم بأَن نُجفَى وَسَرَّكُمُ قَوْلُ الوُشاةِ فلا شكوى ولا ضَجَرُ

عندئذٍ، تجاوز سيف الدولة أبا فراسٍ، لإعجابه الشديد بهذا البيت الآخِر، وأدنى المتنبي منه، حيث قبل رأسه، ونفحه ألف دينار، ثم أردفها بألف أخرى[1] والآن، وبعد أن قدمنا بإيجاز، ما كان عليه الشاعران، من حسن ثقافة، وسعة إطلاع، لا بد من عقد موازنة بينهما، تبيّن ما يتفرد كل واحد من خصائص شعره، ومظاهر شخصيته. فإذا تناولنا المتنبي، نراه يمتاز بالثورة العارمة المالئة نفسه علواً وسمواً. وهذه الثورة تكونت في الكوفة، مرتع طفولته بين الشيعة الساخطين على حكم بني العباس، المضطهدين لحقوق الطالبين، ومن كل من ينتمي لعليّ. وتتابع نمو تلك الثورة في بادية السماوة، وبين القرامطة الذي حافظ الشاعر على صلته بهم. وهذا ما جعله يحمل طموحاً يتفاعل بالثورة والعنف. أنه الطموح المتجاوز كل حدود في الأرض، ليرقى إلى السماء التي يقول فيها:

يقولون لي: ما أنت؟ في كل بلدة وما تبتغي؟ ما أبتغي جلّ أَن يُسْمَى

وهذا القول يفسره إباء نفسه التي لا تقبل الضيم أو الذل، وتحارب التسلط بكل قوة وعزم كما في قوله:

ذلّ من يغبط الذليل بعيش رُبَّ عيشٍ أخفُّ مِنْهُ الحِمامَ

إن البيت يضج بالمغالاة إلى حدود التمرد، والتطاول بشموخ الصنجهية

(١) اليازجي: إبراهيم: العرف أبي الطيب في شرح ديوان الطيب ـ ص: ٣٢٦.

والكبرياء إن ذاته تضج بالعظمة التي لا يضاهيها على الأرض مضاهٍ. وهذه العظمة المصطنعة، سببها شعوره بالضعة، وطموحه بنيل أمارة تعوض عليه ذلك المركب بالنقص. وحين لم ينلها، نالته المرارة حتى أسكرته بألمها. أما أخلاقه، فكانت على جانب كبير من الترفع عن الدنايا، والميل إلى جانب الفضيلة. ولذا، فقد ابتعد عن التبذل، وجانب المجون ومجّد البطولة والقوة، وزين شخصيته بصفات الفرسان، وحذاقة عزيمتهم. وهي الصفات التي يحملها آل حمدان فضائلها. وهو يلتقي مع أبي فراس، بكثيرٍ من الصفات، ولكنه يختلف عنه بما يلي:

١ ـ إنهما يلتقيان بمركب العظمة، ويختلفان بضعة النسب التي كان عليها المتنبي، والرفعة التي كان عليها أبو فراس.

٢ ـ كان أبو فراس قريباً من الناس، للطف معشره، ولين عريكته. أما المتنبي فكان بعيداً عنهم لفظاظته، وكثرة كبريائه.

٣ ـ إنهما يلتقيان بطموحهما لنيل الملك الذي كان طبعةً في نفس أبي فراس، ومرضاً مستعصياً في نفس المتنبي.

٤ ـ لقد اشتهر أبو فراس بإنسانيته النقيّة الصافية التي حببت الناس إليه، بينما عرف المتنبي بخشونة الطبع، وتحجر العاطفة التي أبعدته عن عارفيه.

٥ ـ كان مظهر أبي فراس طبيعياً، يبدو فيه على سجيته؛ بينما يأخذ المتنبي جانب التصنع والظهور بمظهر ليس فيه من نفسه حقيقة.

٦ ـ في نفس أبي فراس، الكثير من العطف على الناس، ويحمل شيئاً من التشاؤم في رومياته. بينما نفس المتنبي، تحمل الحقد على الناس، والكثير من التشاؤم.

٧ ـ لقد ادعى المتنبي الكثير من الفروسية في بطولات لم تكن بمستوى تلك التي خاضها أبو فراس، حتى أصبحت ديمومةً لحياته المنخرطة في القتال الدائم.

٨ ـ كان المجد الذي يسعى إليه المتنبي بعيداً عن التحقيق؟ ولم ينله إلاّ بشعره. أما أبو فراس، فقد ولد على بساط المجد، وهذا الفارق جدير بالإهتمام في دراسة واقع شخصية الرجلين في خصائص الشعر.

٩ ـ كان المتنبي أكثر ثقافةً، وأوسع إطلاعاً من أبي فراس.

١٠ ـ قضى المتنبي وقته متجولاً بين قصور الأمراء والخلفاء والوجهاء، مادحاً، طمعاً بكسب الودّ أو المال. أما أبو فراس فلم يكن على شيءٍ من هذا مطلقاً

هذا ما يؤكده الدارسون لشخصية الرجلين، في حقل المجتمع الذي عاش الشاعران بين ظهرانيه، فعرف فيهما تلك الفروقات التي أوردناها. أما من حيث الخصائص الشعرية، فهناك فروقات كبيرة أيضاً، تتلخص بما يلي:

أ ـ كان أبو فراس يتناول الشعر بعبقرية ظاهرةٍ في نظمه لقصائده. ولا يعنيه أن ينقح ألفاظ شعره، ويغرق في تصحيحها. أما المتنبي فكان يسعى إلى التنقيح والتصحيح.

ب ـ كانت القوافي تأتي على سجيتها على لسان أبي فراس. وكذلك الأوزان الشعرية. أما المتنبي فكان يعمل على تغيير الأوزان والقوافي، لتأتي ملاءمة لغرضه الشعري.

ج ـ كان المتنبي حريصاً على جعل شعره فناً متألقاً بالمعاني العميقة الجزيلة اللفظ. أما أبو فراس، فكان يحرص على أن يأتي الشعر على شيءٍ من الفنيّة وليس مغالياً للإنخراط بها.

د ـ كان المتنبي يتناول شعره فلذةً فلذةً، وجزءاً جزءاً، ويقف على دقائقه حتى لا يغادره، إلاّ وهو راضٍ عنه. وكان ينهج في ذلك نهج أبي تمام صاحب التصنيع في الشعر العربي. بينما كان أبو فراس بعيداً عن هذا التكلف ويعتبره خارجاً عن عفوية شعره.

وهكذا يبين لنا من خلال المقارنة بين خصائص الشاعرين، أن العفوية كانت غالية في نظم القصائد لدى أبي فراس. ويخرج خواطر نفسه بمنتهى السهولة، وإن كان يلجأ إلى إضافة المحسنات البديعية من طباق وجناس واستعارة وتشبيه، وسائر ألوان المجاز الأُخرى، من دون إسرافٍ ومغالاة. أما أبو الطيب المتنبي، فقد حرص على أن يجعل شعره، تعبيراً فخماً صافياً، يختلف في أدائه عن الأدب المنثور، وأن يجعله عملاً فكرياً، فيه عمق واتساع في معطيات العقل، واستقصاء للمعاني الشاملة، على عكس ما كان شعر العرب في الزمن القديم. وذلك، أنه فهم الشعر صنعةً واعيةً، ورياضةً إرادية، وخلقاً في تزاوج الكلمة، وتعبيراً عن مختلف شؤون الكون والحياة. وبذلك انتهى إلى المجردات والتأملات البعيدة. وقد سعى إلى التجسيد والتجسيم، واستخدام المنطق، والربط بين أجزاء القصيدة. وقد وثب به الفكر إلى الفكر؛ حتى استوجبت قراءة شعره، دراية وأناة ورويّة[1] ولنقف على خصائص كل منهما، وقوفاً حسيّاً مقنعاً، نرى من الواجب عرض شعر كل منهما

---

(١) أبو حاقة: أحمد ـ أبو فراس الحمداني ـ ص: ١٩٥.

في غرض معين، ليبين لنا الفرق بينهما، ولنصل إلى صحة الخصائص التي ارتبطت بشاعرية أبي فراس، وميّزته عن سائر الشعراء، وعلى رأسهم أبو الطيب المتنبي. ولا بد الآن من عرض المقارنة في موضوع واحد، ومناسبة واحدة، هي وفاة أخت سيف الدولة التي رثاها كلٌ من الشاعرين: لقد قال أبو الطيب في رسالة تعزية بعثها إلى سيف الدولة، يقول فيها[1]:

يا أُختَ خَيْرِ أخٍ يا بِنتَ خَيْرِ أبٍ ... كِنَايَةً بِهِما عَنْ أشرَفِ النّسَبِ
أُجِلُّ قَدْرَكِ أنْ تُسْمَيْ مُؤبَّنَةً ... وَمَنْ يَصِفْكِ فَقَدْ سَمّاكِ للعَرَبِ[2]
لا يَمْلِكُ الطّرِبُ المَحزُونُ مَنطِقَهُ ... وَدَمْعَهُ وَهُمَا في قَبضَةِ الطَّرَبِ[3]
غَدَرْتَ يا مَوْتُ كَمْ أفنَيتَ مِن عَدَدٍ ... بِمَنْ أصَبْتَ وَكمْ أسكَتَّ مِن لَجَبِ[4]
وَكَمْ صَحِبْتَ أخَاهَا في مُنَازَلَةٍ ... وَكَمْ سألتَ فَلَمْ يَبْخَلْ وَلَمْ تَخِبِ[5]
طَوَى الجَزِيرَةَ حتى جاءَني خَبَرٌ ... فَزِعْتُ فيهِ بآمالي إلى الكَذِبِ
حتى إذا لم يَدَعْ لي صِدْقُهُ أمَلاً ... شَرِقْتُ بالدّمعِ حتى كادَ يشرَقُ بي

وندرك من قراءة هذه الأبيات، أنها رثائية، تخلو من شفافية الحزن، ورقيق العاطفة. والمتنبي، لم يكن يملك في صدره مثل هذه الرّقة في العاطفة، ولكنه قادر على تصنّع في النظم، يجعله مشدود للناس، في تمثيل إحساسٍ يقرّ من صدق الواقع، وإن لم يكن واقعاً[6]. أمّا أبو فراس: فكان داخل سجنه أسيراً، عندما وصله نبأ وفاة أخت سيف الدولة، فقال فيها[7]:

أُوصِيكَ بالصّبْرِ لا أُوصِيكَ بالجَلَدِ ... جَلّ المُصَابُ عَنِ التّعْنِيفِ والفَنَدِ[8]

---

(1) المتنبي: أبو الطيب ـ الديوان ـ ص: ٣٣.
(2) مؤبنة: اسم مفعول من أبن: والتأبين رثاء الميت والثناء عليه وتعداد صفاته.
(3) الطرب: صفة من الطرب. وهي صفة تأخذ الإنسان من الحزن والسرور.
(4) اللجب: الضجيج واختلاط الأصوات.
(5) يقصد أنها كم صحبت أخاها في غزواته، وسألته أن يمكنك من نفوس أعدائه ففعل، ولم يبخل عليك بما سألته.
(6) قيل إن أحد العظماء فقد شخصاً عزيزاً في زمن المتنبي، فجاءته خمسمائة رسالة تعزية تبدأ بقول المتنبي: طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ إلى آخر البيتين. وقيل إن علاقة غرامية كانت تربط المتنبي بخولة الأميرة الحمدانية المعروفة. ولعل ما في هذه القصيدة من جيّد الرثاء، هو الذي حمل النقاد على إشاعة الحب بين المتنبي وخولة أخت سيف الدولة.
(7) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٥٥.
(8) التعنيف: شدة اللوم ـ الفند: الخطأ في الرأي.

هي الـرَّزِيَّةُ إنْ ضَـنَّتْ بِـمَـا مَـلَـكْـتْ	فِيهَا الجُفُونُ فَمَا تَسْخُو عَلَى أَحَدِ
بِيْ مِثْلُ مَا بِكَ مِنْ حُزْنٍ ومِنْ جَزَعٍ	وَقَـدْ لَـجَـأْتُ إِلـى صَـبْـرٍ فَـلَـمْ أَجِـدِ
لَمْ يَنْتَقِصْنِي بُعْدي عَنْكَ مِنْ حُزُنٍ	هِـيَ الـمُـؤَاسَـاةُ فـي قُـرْبٍ وفـي بُـعُـدِ
لأَشـرِكَـنْـكَ فـي الـبَـأْسَـاءِ إنْ طَـرَقَـتْ	كَـمَـا شَـرِكْـتُـكَ فـي الـنَّـعْـمَـاءِ والـرَّغَـدِ
وَمَـا قَـضَـى أَحَـدٌ مِـنْـهـا لُـبَـانَـتَـهُ	وَلاَ انْـتَـهَـى أَرَبٌ إلاَّ إلـى أَرَبِ[1]

فتراءى لنا صدق العاطفة الوجدانية، وواقعها الأليم في نفس الشاعر المطوي على نفسه في فجيعتين تعترِيانه في آن؛ فجيعة الأسر، وفجيعة الموت بأخت العزيز على قلبه. ويبدو من خلال الأبيات انكسار الخاطر الذي سيطر عليه آنذاك وأمضّه. وتبدو أبياته أكثر رقّةً من أبيات المتنبي، وأكثر احتواءً للنفحات الحزينة، ولوعة التفجع؛ ولكنها سطحية المعاني، قريبة المنال لم تثر في نفسه ما أثارته في نفس المتنبي، من وقوف أمام حقيقة الموت والحياة، يتأملها ليستخرج منها عبراً ومعاني إنسانية خالدة.

ومن الموضوعات التي اشترك الشاعران في نظم القصائد بها، موضوع مقدم العيد، الحامل لعناوين الفرح والسرور، والتنعم بطول العمر، ورغد العيش. فالمتنبي نظم قصيدة العيد، وهو مسجون عند كافور، داخل ظلام دامس، بعثوره، فيه، شتى أنواع هواجس التحطيم والانكسار. وهو في هذه الحال مرّت بخاطره ذكرى أهله وإخوانه وأحبابه، والحرية التي كان يتمتع بها وهو الآن محروم منها فأنشد القصيدة المشهورة:

عِـيـدٌ بـأَيَّـة حـالٍ عُـدْتَ يـا عِـيـدُ	بِـمَـا مَـضَـى، أَمْ لأَمْـرٍ فِـيْـكَ تَـجْـدِيْـدُ
أَمَّـا الأَحِـبَّـةُ فَـالـبِـيْـداءُ دُوْنَـهُـمُ	فَـلَـيْـتَ دُوْنَـكَ بِـيْـداً دُوْنَـهَـا بِـيْـدُ
لَوْلا العُلَى لَمْ تَجُبْ بي ما أَجُوبُ بِهَا	وَجْـنَـاءُ حَـرْفٍ ولا جَـرْداءُ قَـيْـدُودُ[2]
وَكَـانَ أَطْـيَـبَ مِـنْ سَـيْـفِـي مُـعَـانَـقَـةً	أَشْـبَـاهُ رَوْنَـقِـهِ الـغِـيْـدُ الأَمَـالِـيْـدُ[3]
يـا سَـاقِـيَـيَّ أَخَـمْـرٌ فـي كُـؤُوسِـكُـمَـا	أَمْ فـي كُـؤُوسِـكُـمَـا هَـمٌّ وتَـسْـهِـيْـدُ

(١) اللّبانة: الحاجة النفسية. وكذلك الأرب. والمعنى: لم يقضِ أحدٌ حاجته من الدنيا، لأنَّ حاجاته لا تنقضي، فإذا فرغ من أرب انتهى إلى أرب آخر.

(٢) جاب الموضع: قطعه ـ الوجناء: الناقة الشديدة ـ الحرف: الضامرة الصلبة ـ الجرداء: الفرس القصيرة الشعر ـ القيدود: الطويلة العنق.

(٣) الغيد: جمع غيداء، المرأة المتنية ليناً ـ والأماليد: جمع أملود وأملودة: الناعمة المستوية القوام.

أَصَخْرَةٌ أَنا مالي لا تُحَرِّكُني ... هَذِي المُدَامُ وَلاَ هَذي العَنَاقِيدُ
إذا أَرَدْتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صافيةً ... وَجَدْتُهَا وَحِبيبُ القَلْبِ مَفْقُوْدُ
مَاذَا لِقِيتُ مِنَ الدُّنيا وَأَعْجَبُهُ ... أَنّي بما أنا شاكٍ مِنْهُ مَحْسُوْدُ
أَمْسَيْتُ أَرْوَحَ مُثْرٍ خازِناً ويَداً ... أَنا الغنيُّ وأَمْوالي المواعِيْدُ

في هذه الأبيات، تبدو مرارة الشاعر، وتمزقه وهو أسير الذل. وقد فاضت تلك المرارة بنقمة السخط على كافور الظالم المتعسّف. إنها ومضات رقّه في مضامين الشدّة، تخالها تلهب ساجنة بالسياط وهي ترقرق الدمع من عيني الشاعر. وهذه مقدرة نادرة في حسن السبك الوصفي العاطفي، تفرّد بها المتنبي ولم يجاريه فيها شاعر آخر. أما أبو فراس، فكان أسيراً في بلاد الروم حين أطل عليه العيد فقال[1]:

يَا عِيْدُ مَا عُدْتَ بِمَحْبُوبِ ... على مُعَنّى القَلْبِ مَكْرُوْبِ
يا عِيْدُ قَدْ عُدْتَ على ناظِرٍ ... عَنْ كُلِّ حُسْنٍ مِنْكَ مَحْجُوْبِ
يَا وَحْشَةَ الدَّارِ التي رَبُّهَا ... أَصْبَحَ في أَثْوَابِ مَرْبُوْبِ[2]
قَدْ طَلَعَ العِيْدُ على أَهْلِهَا ... بِوَجْهِ لا حُسْنٍ وَلاَ طِيْبِ
مَالي وللدَّهْرِ وَأَحْدَاثِهِ ... لَقَدْ رَمَاني بالأَعَاجِيْبِ

إن الخصائص المتوافرة في هذه الأَبيات، تتضح بعذوبة اللفظ، وجودة المعنى، ويتخللها عاطفة شاعر حزين، رهيف الحسّ، غزير الدلالات الجاذبة المؤثرة إنها مليئة بسهولة التعبير عما يعتمل في صدر الشاعر، مع مرونة التعاطي بأسلوب بعيدٍ عن التكلّف. ورغم ذلك، فهي لا تبلغ في القوة، وثقل الوزن، وروعة الفن، وعمق التفكير، ما تبلغه مقطوعة المتنبي، بالرغم من شدّة وقعها المؤثر على أذن السّامع.

وإذا انتقلنا من وصف العيد، إلى مدح سيف الدولة، نجد عند الشاعرين قصائد تتناول هذا الموضوع، في اختلاف كبير، من حيث خصائص الأسلوب والمعنى معاً. إنها انعكاسات ملكتين تجاورتا في شفافية القريحة، واختلفتا في قوة سبكها، وإخراجها إلى حيّز التقصيد.

(١) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ ص: ٢٩.

(٢) المربوب: عبد مملوك، يملكه ربّه ـ والرب: السيد المالك.

لقد نظم المتنبي قصيدةً في مدح سيف الدولة سنة أربع وأربعين وثلاثمائة، حين قدم إليه وفدٌ من الروم، ليفاوض أمير حلب في الهدنة، بعد أن ضيّق عليهم هذا الأخير في انتصاراته الكبيرة والعظيمة. وممّا قاله في هذه القصيدة:

أَرَاعَ كَذَا كُلَّ الأَنَامِ هُمَامُ ... وَسَحَّ لَهُ رُسْلُ المُلُوكِ غَمَامُ[1]
وَدَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا فَأَصْبَحَ جَالِساً ... وَأَيَّامُهَا فِيمَا يُرِيدُ قِيَامُ[2]
إِذَا زَارَ سَيْفُ الدَولَةِ الرُومَ غَازِياً ... كَفَاهَا لِمَامٌ، أَوْ كَفَاهَا لِمَامُ[3]
فَتىً تَتْبَعُ الأَزْمَانُ فِي النَّاسِ خَطْوَهُ ... لِكُلِّ زَمَانٍ فِي يَدَيْهِ زِمَامُ
تَنَامُ لَدَيْكَ الرُسْلُ أَمْناً وَغِبْطَةً ... وَأَجْفَانُ رَبِّ الرُسْلِ لَيْسَ تَنَامُ

ونتساءل عن مورد هذه المعاني التي يولّدها الشاعر في عمق المعاني، ويستوحيها من المواقف المناسبة لها. لقد جعل سيف الدولة مسلطاً على رقاب الناس، تخشاه الملوك فتلوذ به، وتضرع إليه، كيما يهادنها، ويكف عنها شرّه. إنه الرجل المثالي في إقدامه، وعلو همته، وشدة سطوته. وقد جاء أبو فراس بأبيات مشابهة لتلك التي نظمها المتنبي، حين وصف جنود الثغور من العرب، وقد علوا جبلاً يسمى «جوشنا» ومعهم وفد الروم، ثم أقبل عليهم سيف الدولة، وهو مشرق الجبين، يبعث في قلوب فرسانه الشعور بالعزّة والفخر، فكأنه قلب لقلبهم، وجناح لجناحهم، وفي ذلك المديح الرائع بأحضان الوصف المعبّر عن عظمة سيف الدولة، وقوة شكيمته يقول أبو فراس[4]:

عَلَوْنَا جَوْشَناً بِأَشَدَّ مِنْهُ ... وَأَثْبَتَ عِنْدَ مُشْتَجَرِ الرِّمَاحِ
بِجَيْشٍ جَاشَ بِالفُرْسَانِ حَتَّى ... ظَنَنْتَ البَرَّ بَحْراً مِنْ سِلَاحِ
وَأَلْسِنَةٍ مِنَ العَذَبَاتِ حُمْرٍ ... تُخَاطِبُنَا بِأَفْوَاهِ الرِّمَاحِ[5]
وَأَرْوَعَ جَيْشُهُ لَيْلٌ بَهِيمٌ ... وَغُرَّتُهُ عَمُودٌ مِنْ صَبَاحِ
صَفُوحٌ عِنْدَ قُدْرَتِهِ كَرِيمٌ ... قَلِيلُ الصَّفْحِ ما بَيْنَ الصِّفَاحِ[6]

---

(١) راعه: خوفه ـ والاستفهام هنا تعجب. الأنام: الخلق. والهمام: الملك العظيم الهمة. سح الماء: صبه.

(٢) دانت: ضعفت؛ خضعت له الدنيا فأصبح جالساً لا يسعى، لأن الأيام اسعى له فيما يريد.

(٣) اللمام: القليل من المشي: أي أن أقل غزو منه يخضع له دولة الروم، ولكنه لا يكتفي بالقليل.

(٤) الحمداني: أبو فراس ـ الديوان: ص: ٤٩.

(٥) العذبات: جمع عذبة: وهو ما سدل بين الكتفين من العمامة.

(٦) الصفاح: جمع صفح. وصحف السيف عرضه. وصفح الإنسان: وجهه.

فكان ثباتهُ للقلبِ قلباً وَهيبتهُ جَناحاً للجناحِ

في شعر أبي فراس إكبارٌ لسيف الدولة، وإعلاءٌ لشأنه. وفيه مَديحٌ نابعٌ من نفسٍ هائمةٍ بحبّه، متعلّقة به، ولكنها تفتقر، إلى إبداع في التصوير، وذروةٍ في الإعجاز. ونخلص من هذا إلى تعليل سبب إقلال أبي فراس في مدح ابن عمه، والعائد ربما إلى انشغال شاعرنا بأعْبَاءِ الأمارة، فلم يتيسّر له أن يخلو إلى نفسه، كما تسنّى لأبي الطيب، ليطلع على الناس بقصائد مثل قصائده. ويبقى من هذا كله، بروز خصائص في شعر أبي فراس، لا تنفصل في تحليلها وتعليلها عن تلك التي في شعر المتنبي، بسبب صلة الشاعرين بجاذب واحدٍ لشعرهما، وهو سيف الدولة؛ مفجر قريحتي الشاعرين في الفخر والمدح والغزل والرثاء، وما شابهها. لذا سعينا إلى استنباط خصائص أبي فراس الشعرية، من خلال مقارنتها بتلك التي عند المتنبي، فيما كان مشتركاً بينهما من الأغراض.

مختارات من شعره

يقول أَبو فراس متغزلاً، وهو يحنّ إلى الشام:

أَقـنـاعـةً مـن بـعـد طـول جـفـاءِ — بـدنـوّ طـيـفٍ مـن حـبـيـبٍ نـاءِ
بـأَبـي وَأُمّـي شـادنٌ قـلـنـا لـه: — نـفـديـك بـالأُمّـاتِ والآبـاءِ(١)
رَشـأٌ إِذَا لِـحـظَ الـعـفـيـفُ بـنـظـرةٍ — كـانَـتْ لَـهُ سَـبَـباً إِلـى الـفـحـشـاءِ(٢)
وَجَـنَـاتُـهُ تَـجْـنِـي عـلـى عُـشّـاقِـهِ — بِـبَـدِيْـعِ مـا فـيـهـا مِـنَ الّـلألاءِ
بِـيْـضٌ عَـلَـتْـهَـا حُـمْـرَةٌ فـتـورّدَتْ — مِـثْـلَ الـمُـدَامِ خَـلَـطْـتَـهَا بـالـمـاءِ(٣)
فـكـأنّـمـا بَـرَزَتْ لَـنَـا بِـغَـلالَـةٍ — بَـيْـضَـاءَ تَـحْـتَ غَـلالَـةٍ حـمـراءِ(٤)
كَـيْـفَ اتّـقَـاءُ لـحـاظـه وَعُـيُـونُـنَـا — طُـرُقٌ لأَسْـهُـمِـهَـا إِلـى الأَحْـشـاءِ
صَـبَـغَ الـحَـيَـا خَـدّيْـهِ لَـوْنُ مَـدَامِـعِـي — فَـكَـأَنّـه يَـبْـكِـي بِـمِـثْـلِ بُـكـائـي

وقال من الغزل الرصين:

لَـبِـسْـنَـا دَارَ الـلّـيْـلِ والـلّـيْـلُ وَاضِـحٌ — إِلَـى أَنْ تَـرَدّى رَأْسُـهُ بِـمَـشْـيْـبِ(٥)
وَبِـتْـنَـا كَـغُـصْـنَـيْ بَـانَـةٍ عَـابَـثَـتْـهُـمَـا — إِلى الصُّبْحِ رِيْحَا شَمْألٍ وَجَنُوْبِ(٦)
بِـحَـالٍ تـردُّ الـحـاسِـدَيْـنَ بـغـيـظـهـم — وتـطـرفُ عَـنّـا عَـيْـنَ كُـلِّ رَقِـيْـبِ(٧)
إِلـى أَنْ بَـدا ضَـوْءُ الـصـبـاحَ كَـأَنّـه — مَبَادِي نُصُوْلٍ في عِذَارِ خَضِيْبِ(٨)

---

(١) الشادن: ولد الظبية.
(٢) الرشأ: الظبي الغرير ـ الفحشاء: الزنى، وعمل القبيح.
(٣) المدام: الخمرة.
(٤) الغلالة: شعار رقيق يلبس تحت الثوب.
(٥) راضع: مقيم، وشديد الملكة ـ تردّى: لبس رداءً.
(٦) البانة: واحدة البان. الشجر الطويل الساق ـ عابثتهما: حركتهما، ولعبت بهما.
(٧) تطرف: أي تدمع من القذى.
(٨) النصول: تغير لون الصباغ وشحوبه ـ العذار: الشعر في جانب الوجه. الخضيب: الصباغ.

فَيَا لَيْلُ قَدْ فَارَقْتَ غَيْرَ مُذَمَّمٍ ... وَيَا صُبْحُ قَدْ أَقْبَلْتَ غَيْرَ حَبِيْبِ

وقال في العتاب والمفاخرة:

ألا ليتَ قومي، والأَماني كثيرةٌ ... شهوديَ، والأَرواحُ غيرُ لَوَابِثِ
غداة تُنَاديني الفوارسُ والقَنَا ... تَرُدُّ إلى حَدِّ الظُّبَى كُلَّ ناكِثِ[1]
أَحَارِثُ! إِنْ لم تُصْدِرْ الرّمحَ قانياً ... وَلَمْ تَدْفَعِ الجُلَّى فَلَسْتَ بِحَارِثِ[2]

ومن جميل شعره في الرجز قوله:

قَامَتْ إِلى جاراتِها ... تَشْكُو بِذُلٍّ وَشَجَا[3]
أَمَا تَرَيْنَ ذا الفَتَى ... مَرَّ بِنَا مَا عَرَّجَا[4]
إِنْ كانَ مَا ذَاقَ الهَوَى ... فَلاَ نَجَوْتُ، إِنْ نَجَا

وقال في الشكوى والاعتذار:

عَدَتْنِي عَنْ زِيارتِكُمْ عوادِ ... أَقَلُّ مَخُوفِهَا سُمْرُ الرِّماحِ[5]
وَإِنَّ لِقَاءِهَا لَيَهُوْنُ عِنْدِي ... إِذَا كَانَ الوُصُوْلُ إِلى نَجَاحِ
ولكن بَيْنَنَا بَيْنٌ وَهَجْرٌ ... أَأَرْجُو بَعْدَ ذلك مِنْ صَلاحِ
أَقَمْتُ وَلَوْ أَطَعْتُ رَسِيْسَ شَوْقي ... رَكِبْتُ إِلَيْكَ أَعْنَاقَ الرِّمَاحِ[6]

وقال في ودّ الصداقة:

يَا طُوْلَ شوقيَ إِنْ قالُوا الرَّحيلَ غدا ... لاَ فَرَّقَ اللّهُ فيما بَيْنَنَا أَبَدا
يا مَنْ أُصَافِيْهِ في قُرْبٍ وفي بُعُدٍ ... وَمَنْ أُخالِصُهُ إِنْ غابَ أَوْ شَهِدا
لا يُبْعِدُ اللّهُ شَخصاً لا أَرَى أَنَساً ... وَلاَ تطيبُ لي الدُّنْيَا إِذَا بَعُدا
رَاعَ الفِراقُ فُؤَاداً كُنْتَ تُؤْنِسُهُ ... وَذَرَّ بَيْنَ الجُفُوْنِ الدَّمْعَ والسَّهدا
أَضْحَى وَأَضْحَيْتُ في سرٍّ وفي عَلَنٍ ... أَعُدُّه والداً، إِذْ عَدَّني وَلَدا
مَا زَالَ ينظمُ فيَّ الشِعْرَ مُجْتَهِداً ... فَضْلاً وَأَنْظُمُ فِيْهِ الشِّعْرَ مُجْتَهِدا

---

(١) القنا: الرماح ـ الظبي: جمع ظباة وهي حد السيف والنصل ـ ناكث: ناقض.
(٢) تصدر: ترسل ـ قانياً: مصبوغاً بالدم، طاعناً ـ الجلّى: الداهية والمصيبة والواقعة.
(٣) شجا: حزن ـ طرفها الساجي: عينها الناعسة ـ شاجٍ: محزن.
(٤) عرج: نزل، وحط رحاله.
(٥) عدتني: سبقتني وفاتتني ـ عواد: جمع عادية، وهي النازلة والحادثة العظيمة.
(٦) الرسين: الأول والثابت من كل شيء.

حتّى اعترَلتُ وعزّتني فضائِلُهُ وَبَاتَ سَبْعاً، وَحَازَ الفَضلَ مُنفرِدا
إنْ قَصَّرَ الجُهدُ عن إدراكِ غايتِهِ لأَعْذَرُ النّاسِ مَنْ أَعْطاكَ مَا وَجَدا
أبقى لَنَا اللّهُ مَوْلانا وما بَرِحَتْ أيّامُنَا أبَداً فِي ظِلِّهِ جُدُدا
لا يَطْرُقُ النّازِلُ المحذُورُ ساحَتَهُ ولا تَمدُّ إليْهِ الحادِثاتُ يَدا
الحمدُ لِلّهِ حَمْداً دائماً أبداً أعْطَانِيَ الدَّهرُ مَا لَمْ يُعْطِهِ أحَدا

ومن جميل غزله، رائيته المشهورة، التي نقتطف منها قوله:

أراكَ عصيَّ الدمعِ شيمتكَ الصّبْرُ أمَا لِلْهَوى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلاَ أمْرُ[1]
بَلى أنا مُشْتَاقٌ وعِندي لَوْعَةٌ ولكِنَّ مِثْلِي لاَ يُذاعُ لَهُ سِرُّ
إذا اللّيْلُ أضْوَاني بَسَطْتُ يَدَ الهَوَى وَأذْلَلْتُ دَمْعاً مِنْ خَلائِقِهِ الكِبْرُ[2]
تَكَادُ تُضِيءُ النّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي إذا هِيَ أذْكَتْهَا الصَّبَابَةُ والفِكْرُ[3]
مُعَلِّلَتي بَالوَصْلِ والموتُ دُونَهُ إذا مِتُّ ظَمْآناً فَلاَ نَزَلَ القَطْرُ
تُسَائلني من أنتَ؟ وهي عليمةٌ وَهَلْ بِفَتًى مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نُكْرُ؟
فقلت كما شاءتْ وشاءَ لها الهَوَى قَتِيلُكِ قالَتْ: أيُّهُمْ؟ فَهُمُ كُثْرُ
فقلتُ لَهَا: لَوْ شِئْتِ لَمْ تَتَعَنّتِي وَلَمْ تَسْألي عَنّي وعندكِ بي خُبْرُ[4]
فقالَتْ: لَقَدْ أزْرَى بِكَ الدهرُ بعدنا فقلتُ: معاذَ اللّهِ بل أنتِ لا الدَّهرُ[5]

ومن شعره الجميل في مدينة حلب وساكنها الحبيب على قلبه:

سَقَى ثَرَى حَلَبٍ، مَا دُمْتَ ساكنها يا بَدْرُ، غَيْثَانِ مُنْهَلٌّ وَمُنْبَجِسُ[6]
أسِيرُ عَنْهَا وَقَلْبي في المقامِ بِهَا كَأنَّ مُهْرِي لثقلِ السَّيْرِ مُحْتَبَسُ
هَذَا وَلَوْلا الّذي في قلبِ صاحبِهِ مِنَ البَلابِلِ لَمْ يَقْلَقْ بِهِ فَرَسُ
كَأنّما الأرْضُ والبُلْدانُ مُوحِشَةٌ وَرَبْعُهَا دُونَهُنّ العَامِرُ الأنِسُ
مِثْلُ الحَصَاةِ التي يُرْمَى بِهَا أبَداً إلى السّماءِ، فَتَرْقَى ثُمّ تَنْعَكِسُ

ومن جميل قوله في الزهد:

---

(١) شيمتك: خلقك وطبعك.
(٢) أضواني: شملني وأضعفني ـ خلائقه: طباعه. جمع خليقة.
(٣) جوانحي: أضلاعي ـ أذكتها: أضرمتها.
(٤) تتعنتي: تطلبي العنت والمشقة.
(٥) أزرى بك: غير من حالك.
(٦) منهل: مسكب ـ منبجس: متفجر بغزارة.

أيا قلبي أما تخشعْ … ويا علمي أما تنفعْ؟
أمَا حسبي بأنْ أنظـ … ـرُ للدنيا، وما تصنعْ؟
أما شيّعتُ أمثالي … إلى ضيقٍ من المضجعْ
أما أعلمُ أنْ لا بـ … ـدَّ لي من ذلك المصرعْ
أيا حسرتاهُ باللـ … ـهِ هذا الأمرُ ما أفظعْ

وقال في وصف غلام متغزلاً به:

غلامٌ لم يزلْ مذ أهيفُ … كأنّ قوامَهُ ألِفُ
إذا ما مالَ يُرعبني … أخافُ عليه ينقصفُ
وأنحفُ من تأوّدِهِ … أخافُ يُذيبُهُ الترفُ[1]
سُروري عِدّةٌ لُمَعٌ … وذكري كلّهُ أسفُ
وأمري كلّهُ أمَمٌ … وحبّي وحدَهُ سَرَفُ[2]

وقال في غلامين له، تذكرهما داخل الأسر:

هل تحسّانِ لي رفيقاً رفيقاً … مُخلِصَ الودِّ أو صديقاً صدوقاً[3]
لا رعى اللهُ يا خليليَّ دهراً … فرّقتنا صروفُهُ تفريقا[4]
فلكَ مولاكما، وما لكَ إلاّ … واجداً مُحسناً، وعمّاً شفيقا
فاذكراني: وكيف لا تذكراني … كلّما استخونَ الصديقُ الصديقا[5]
بتُّ أبكيكما، وإنّ عجيباً … أن يبيتَ الأسيرُ يبكي الطليقا

وقال مستشكياً في جميل من شعره:

يا أخي لو رهنتكَ ذاتَ زمانٍ … طرقتني صروفُهُ بالمهالكْ[6]
لم يَهَبْ لي صُبابةً من رُقادٍ … لم يجدْ فيها بطيفِ خيالكْ[7]

---

(١) تأوّده: تمايله وتثنيه - الترف: الغنج والدلال.
(٢) أممٌ: وسط.
(٣) تحسّان: تجدان - الودّ: الحب الخالص.
(٤) صروفه: أحداثه وتقلباته الشديدة.
(٥) استخونه: اتهمه بالخيانة.
(٦) طرقتني: زارتني ليلاً - صروفه: أحداثه.
(٧) الصُّبابة: بقية الشيء. الرقاد: النوم.

قَـدْ قَـنَـعْـنَـا بِـذلـك الـنَّـزْرِ مِـنْـهُ وَغَـفَـرْنـا لَـهُ الـذنـوبَ لـذلـك[1]

ومن جميل غزله قوله:

أَيـا سَـافِـراً! ورداءُ الـخـجـل مُـقـيـمٌ بـوجـنـتـهِ لَـمْ يَـزَلْ
بـعـيـشـك، رُدَّ عـلـيـك الـلِّـثـامَ أخـافُ عَـلَـيْـكَ جراحَ الـمُـقَـلْ[2]
فَـمَـا حَـقُّ حُـسْـنِـكَ أَنْ يُـجْـتَـلَـى وَلاَ حـقُّ وَجْـهِـكَ أَنْ يُـبْـتَـذَلْ
أَمِـنْـتُ عـلـيـكَ صُـرُوْفَ الـزّمـانِ كـمـا قَـدْ أَمِـنْـتَ عـلـيَّ الـمَـلَـلْ

وقال يمدح أبا المعالي:

يُـهْـنـي الأَمـيـرَ بـشـارةٌ قَـرَّتْ بِـهـا عَـيْـنُ الـمَـكَـارِمْ[3]
أَعْـلَـى الـوَرَى شَـرَفـاً وَمَـنْ قَـدْ بَـشَّـرُوْهُ بِـخَـيْـرِ قَـادِمْ[4]
إِنِّـي، وَإِنْ كُـنْـتُ الـمُـشَـا رِكَ فـي الأُبُـوَّةِ والـمُـسَـاهِـمْ
لا قَـوْلَ قَـوْلاً لا يُـرَدُّ وَلاَ يَـرَى لـي فـيـه لائِـمْ
لأَبـي الـمـعـالـي فـي الـعُـلا وأبـي الـمـكـارمِ فـي الـمـكـارِمْ
بَـيْـتٌ رفـيـعٌ سُـمْـكُـهُ عـالـي الـذُّرَى، ثَـبْـتُ الـدَّعـائِـمْ

وممّا نظمه في الإخوانيات قوله:

مَا كُنْتُ مُذْ كنتُ إلاّ طوعَ خلاّني لَيْسَتْ مُؤَاخَذَةُ الإخوان مِنْ شاني
يَجْني الخَليلُ، فَأَسْتَحلي جنايتَهُ حَتَّى أدلَّ على عَفْوِي وإِحْسَاني
وَيُتْبعُ الذَّنْبَ ذنباً حين يعرفني عَـمْـداً، وَأُتْـبِـعُ غُـفْـرَانـاً بِـغُـفْـرانِ
يَجْني عليّ، وأعفو صافحاً أبداً لا شيءَ أَحْسَنُ من حَانٍ على جانِ

ومن جميل شعره الخمري قوله:

يا ليلةً لستُ أنسى طيبها أبداً كـأنَّ كـلّ سـروري حـاضـرٌ فـيـهـا
بـاتَـتْ وبـنـتُ وبـات الـزِّقُّ ثـالـثـنـا حتّى الصباحِ ليسقيني ويسقيها[5]
كـأنَّ سُـوْدَ عـنـاقـيـد بـلـمـتـهـا اهدتْ سلافتها صرفاً إلى فيها[6]

---

(١) النزر: القليل.
(٢) المقل: العيون: جمع مقلة.
(٣) ترت: هدأت.
(٤) الورى: الخلق الأنام.
(٥) الزق: وعاء الخمرة ودنها.
(٦) اللمة: مجمع شعر الرأس ـ سلافتها: خمرتها المعتقة ـ صرفاً: خالصة.

المصادر والمراجع

١ ـ ابن أبي أصيبعه: أحمد بن القاسم ـ عيون الأبناء في طبقات الأطباء ـ نشر مرغليوث ـ ليدن (١٩٠٧).

٢ ـ ابن أحمد: صاعد القاضي الأندلسي ـ طبقات الأمم ـ نشر شيخو ـ بيروت (١٩١٢).

٣ ـ ابن حوقل: المسالك والممالك ـ نشر دي غويه ـ ليدن (١٨٧٢).

٤ ـ ابن خلكان: أحمد بن يحيى ـ وفيات الأعيان ـ القاهرة (١٨٨١).

٥ ـ ابن الطقطقي: الفخري ـ نشر ديرنبورغ ـ باريس (١٨٩٥).

٦ ـ ابن الفقيه: كتاب البلدان ـ نشر دي غويه ـ ليدن (١٨٨٥).

٧ ـ ابن قيم الجوزيه: أخبار النساء ـ القاهرة (١٩٠١).

٨ ـ ابن النديم: الفهرست ـ مكتبة خياط ـ بيروت (١٩٩٤).

٩ ـ أبو حاقة: أحمد ـ أبو فراس الحمداني ـ أعلام الفكر العربي ـ منشورات دار الشرق الجديد ـ ط ١ (١٩٦٠).

١٠ ـ أبو العتاهية: الديوان ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت (١٩١٤).

١١ ـ الأصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ـ مسالك الممالك ـ ليون (١٩٢٧).

١٢ ـ الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين ـ الأغاني ـ بيروت (١٩٥٥).

١٣ ـ أمين: أ ـ أحمد ـ ضحى الإسلام ـ القاهرة (١٩٣٣).

ب ـ ظهور الإسلام ـ القاهرة (١٩٥٦).

١٤ ـ الأمين: محسن ـ أبو فراس الحمداني ـ الروائع (١٦) بيروت (١٩٢٨).

١٥ ـ باجقني: عبد الغني ـ فخر أبي فراس وأبي الطيب ـ دمشق (١٩٣٢).

١٦ ـ البغدادي: الخطيب ـ تاريخ بغداد ـ القاهرة (١٩٣١).

١٧ ـ البستاني: بطرس ـ دائرة المعارف الإسلامية.
١٨ ـ البستاني: فؤاد أفرام ـ أبو فراس الحمداني ـ الروائع (١٦) بيروت (١٩٢٨).
١٩ ـ الثعالبي: أبو منصور ـ عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري ـ يتيمة الدهر من شعراء أهل العصر ـ دمشق (١٧٨٨).
٢٠ ـ الجاحظ: أ ـ عمرو بن بحر ـ أبو عثمان ـ البيان والتبيين ـ الخانجي بمصر ـ ط ٢ (١٩٦٠).
ب ـ الحاضرة العباسية ـ الدكتورة وديعة طه نجم ـ نشر جامعة بغداد (١٩٦٥).
٢١ ـ الجومرد: عبد الجبار ـ غرّة العرب ـ دار الطليعة ـ بيروت (١٩٦١).
٢٢ ـ حتي: فيليب ـ تاريخ العرب ـ دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ ط ٤ (١٩٦٥).
٢٣ ـ الحوفي: محمد محمد ـ الخلاّن والزمان بين أبي فراس والبارودي ـ القاهرة (١٩٤٧).
٢٤ ـ الحمداني: أبو فراس ـ الديوان ـ دار الفكر العربي ـ بيروت (١٩٩٤).
٢٥ ـ الحموي: ياقوت ـ معجم البلدان ـ طبعة وستنفلد ليبزغ (١٨٦٦).
٢٦ ـ الدهان: سامي ـ ديوان أبي فراس الحمداني ـ بيروت (١٩٤٤).
٢٧ ـ زيدان: جرجي ـ تاريخ التمدن الإسلامي ـ دار الهلال (١٩٥٨).
٢٨ ـ السيوطي: جلال الدين ـ تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة ـ مصر ـ ط ١ (١٩٥٢).
٢٩ ـ شرارة: عبد اللطيف ـ أبو فراس الشاعر المعذّب ـ بيروت (١٩٦٣).
٣٠ ـ شرف الدين: خليل ـ أبو فراس الحمداني ـ دار مكتبة الهلال ـ بيروت (١٩٨٥).
٣١ ـ الشكعة: مصطفى ـ معالم الحضارة الإسلامية ـ دار العلم للملايين ـ بيروت (١٩٧٣).
٣٢ ـ صدقي: محمد ـ شعر أبي فراس بين التفريط والغلو ـ القاهرة (١٩٦٣).
٣٣ ـ الطبري: محمد بن جرير ـ تاريخ الطبري ـ بولاق (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م).

٣٤ ـ العبادي: أحمد مختار في التاريخ العباسي ـ دار النهضة العربية ـ بيروت (١٩٧٢).
٣٥ ـ العلي: صالح أحمد ـ العراق في التاريخ ـ بغداد (١٩٨٣).
٣٦ ـ الفاخوري: حنا ـ تاريخ الأدب العربي ـ المطبعة البوليسية ـ بيروت (١٩٥٣).
٣٧ ـ فروخ: عمر ـ أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم ـ بيروت (١٩٥٧).
٣٨ ـ الكتبي: فوات الوفيات ـ بولاق (١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م).
٣٩ ـ المارديني: زهير ـ شاعر أمارة بني حمدان (١٩٧٥).
٤٠ ـ المبرّد: محمد بن يزيد ـ الكامل ـ نشر ريت اليزيغ (١٨٦٤).
٤١ ـ المدوّر: جميل نخلة ـ حضارة الإسلام في دار الإسلام ـ القاهرة (١٩٠٥).
٤٢ ـ المسعودي: علي بن الحسين ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ بيروت (١٩٨١).
٤٣ ـ المقدسي: أحسن التقاسيم ـ نشر دي غويه ـ ليدن (١٨٧٧).
٤٤ ـ نمر: حنّا ـ أبو فراس الحمداني ـ (١٩٦٥).
٤٥ ـ النويري: أحمد بن عبد الوهاب ـ نهاية الأدب ـ القاهرة (١٩٣٦).
٤٦ ـ اليعقوبي: أحمد بن إسحاق ـ كتاب البلدان ـ ليدن (١٨٨٣).

المخطوطات

١ ـ إبراهيم الحلبي: سليم ـ من بطولات أبي فراس الحمداني ـ محفوظة رقم (١١٢) المكتبة الظاهرية ـ دمشق.
٢ ـ أبو معجن: محمد بن النقعي الحامدي ـ مخطوطة رقم (٦١) المكتبة الظاهرية ـ بطولات النبلاء وشهامات الفداء.
٣ ـ المحمد: محيي الدين ـ مخطوطة رقم (١٥) الشاعر الأمير وأمير الشعراء.

المراجع الأجنبية:

1 -C. Brockelman: Histoire des peuples et des états islamiques Tradution de MTazeron. Paris (1949) p: 98.
2 - Pirenne: Les grandes courants de l'histoire universelle. II Paris (1947) p: 11 -14.

فهرس الموضوعات

الفصل الرابع